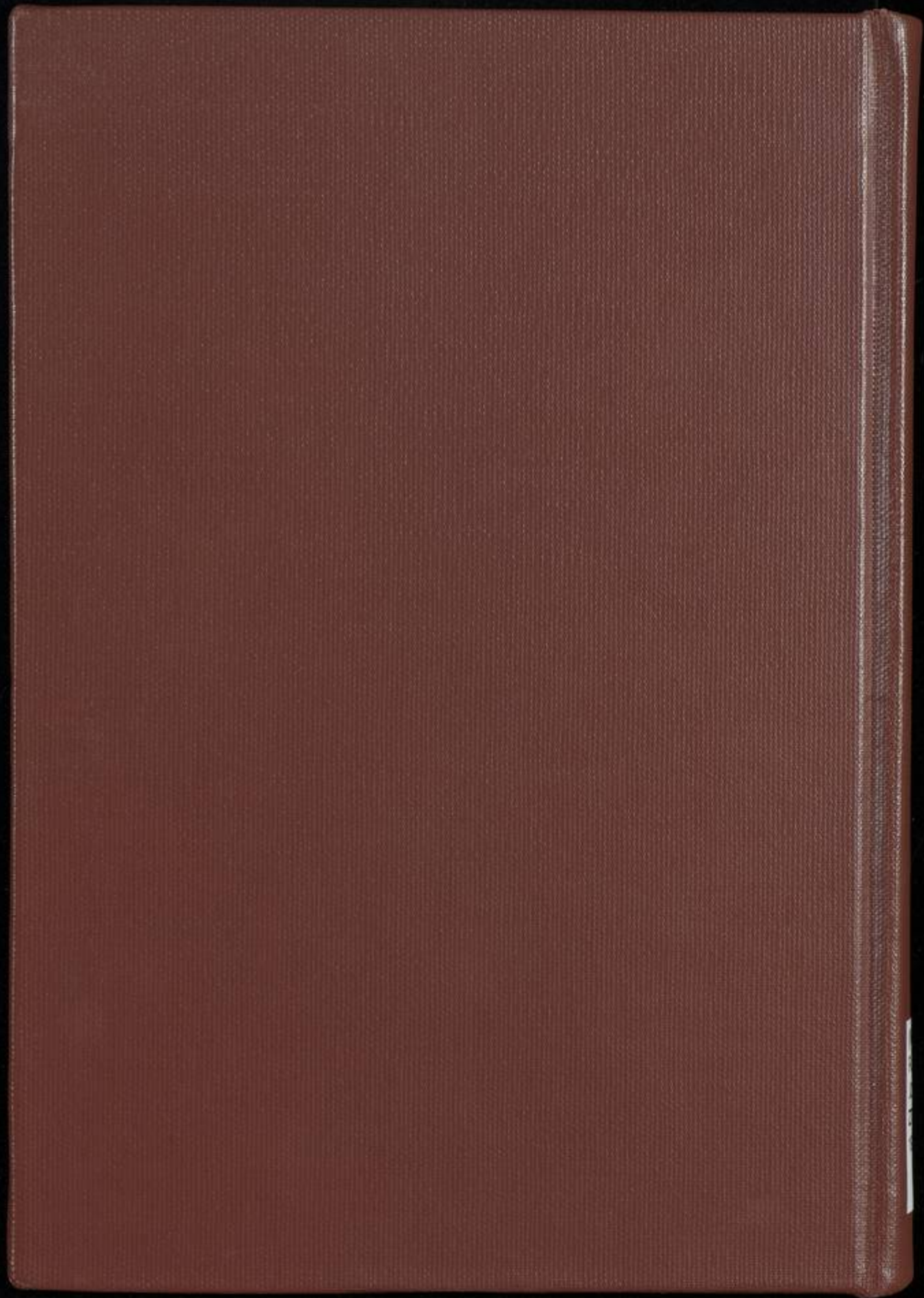


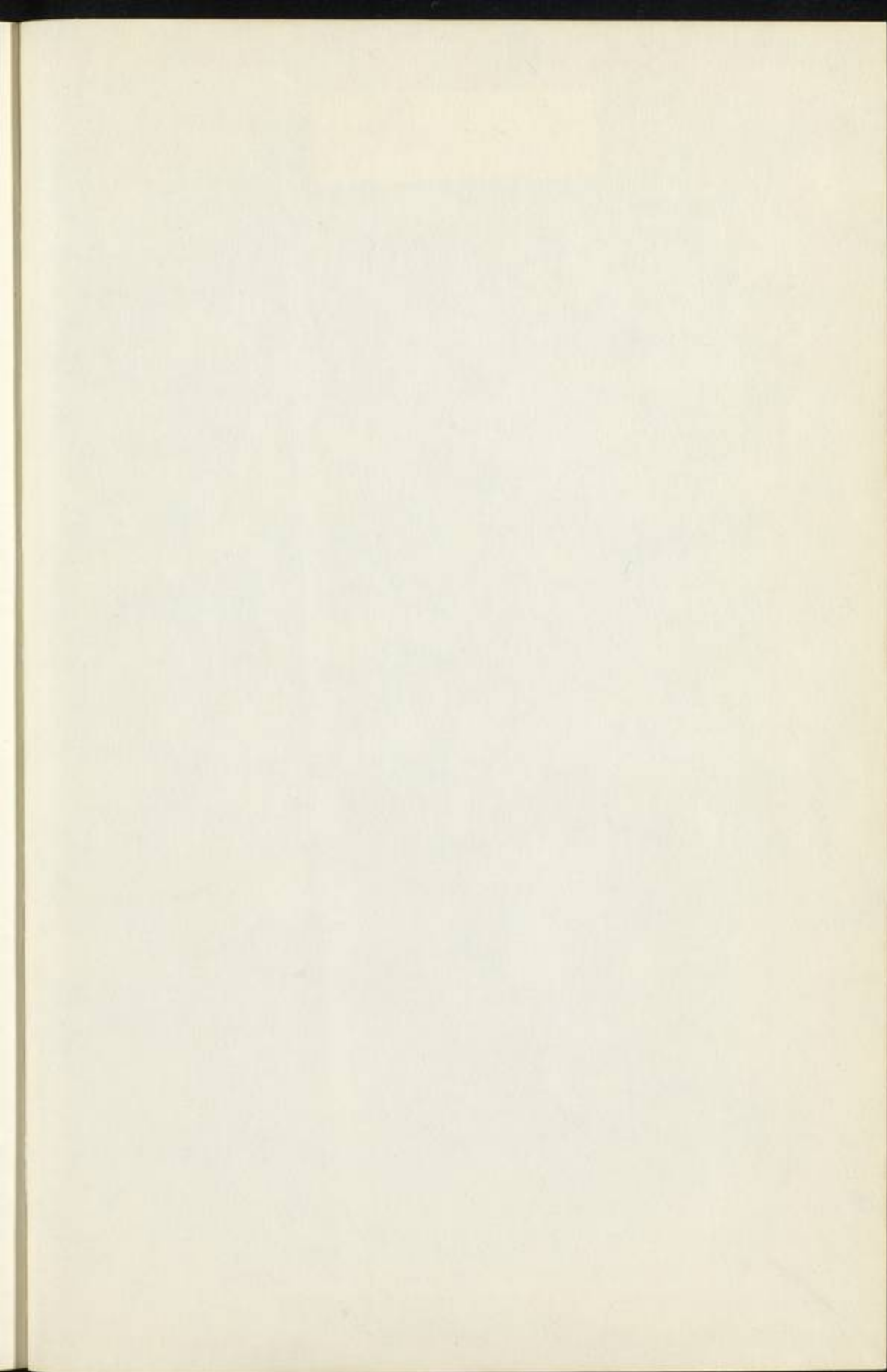


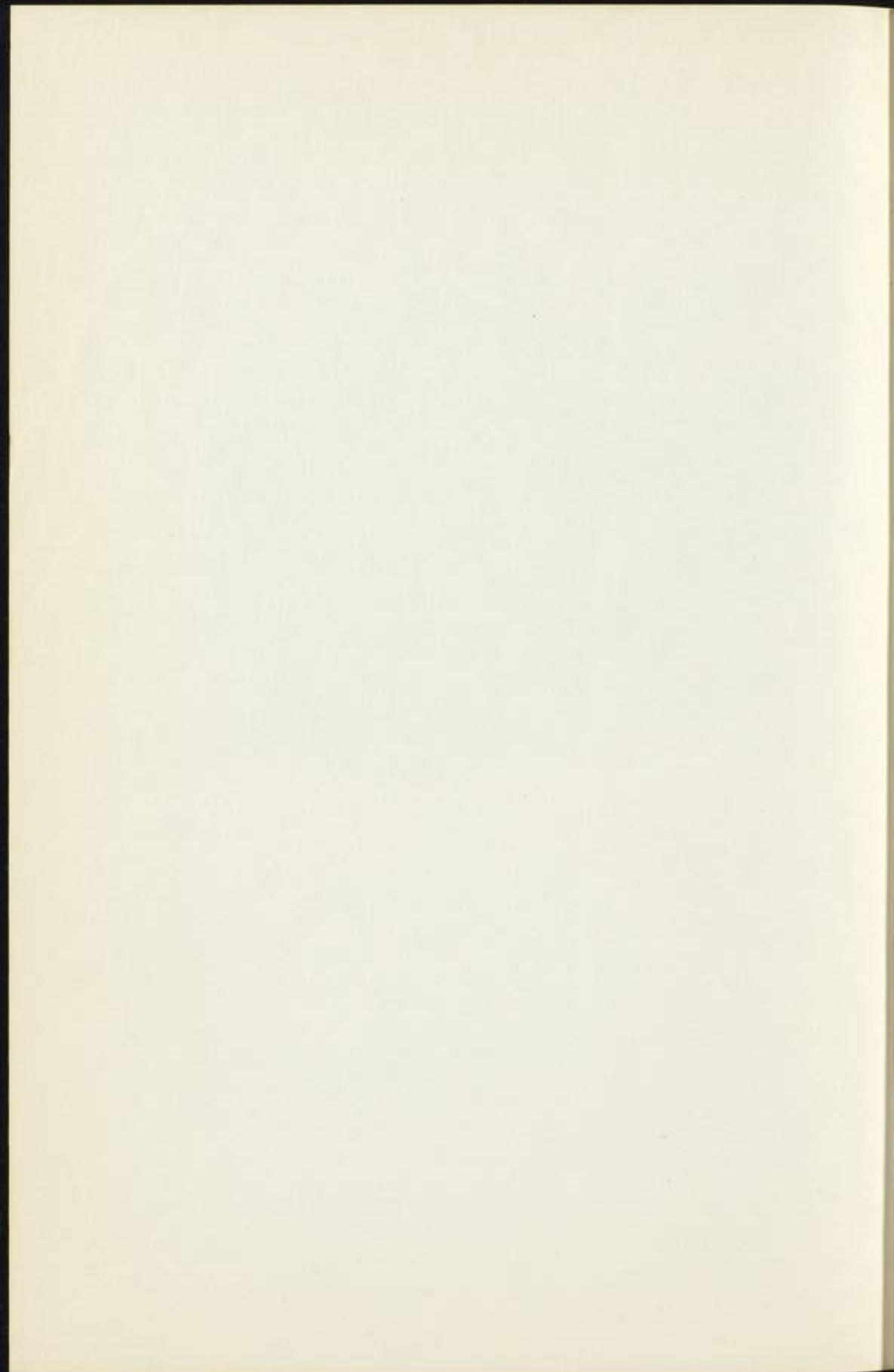
PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

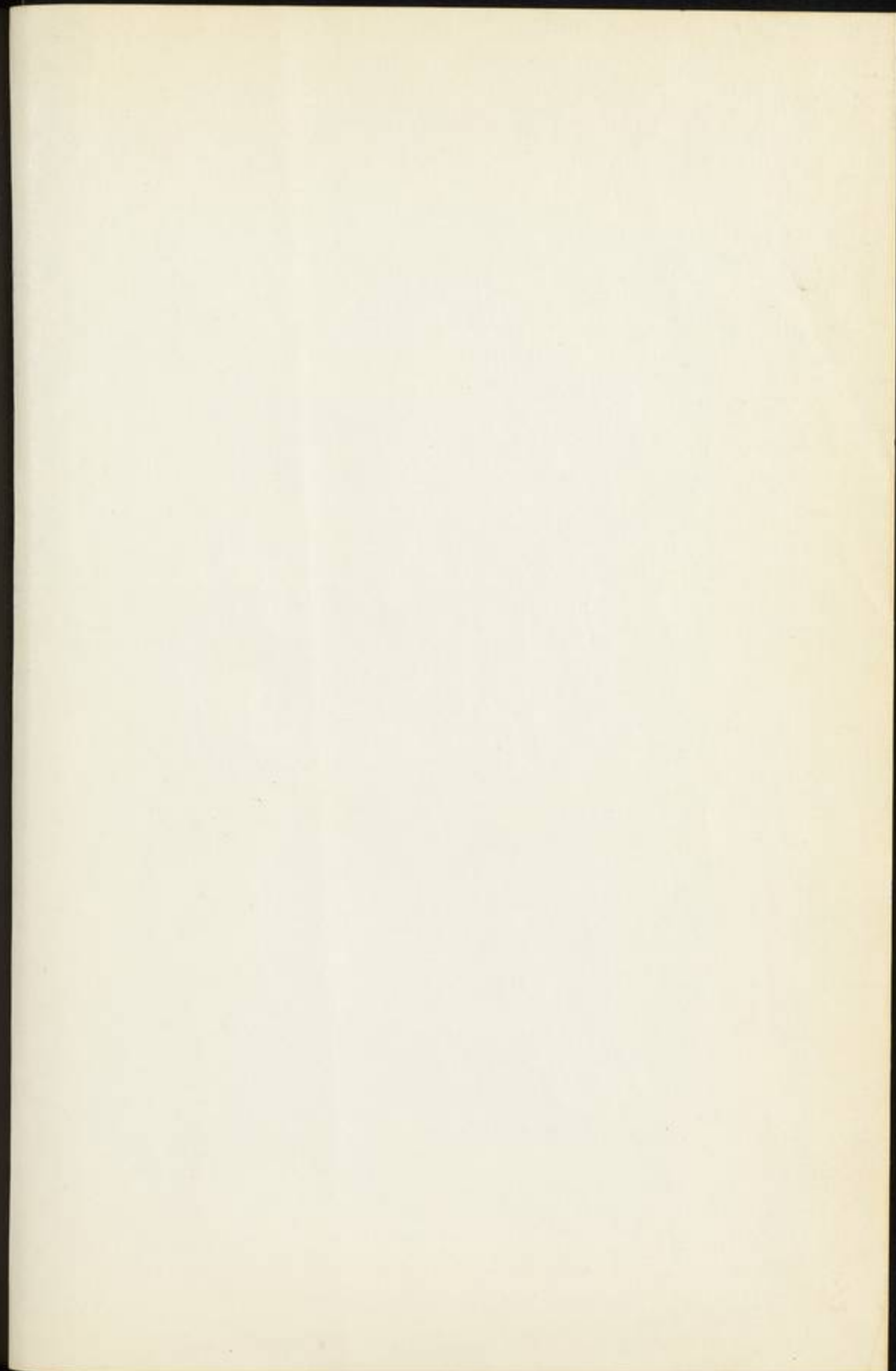
PAIR>



32101 028048914





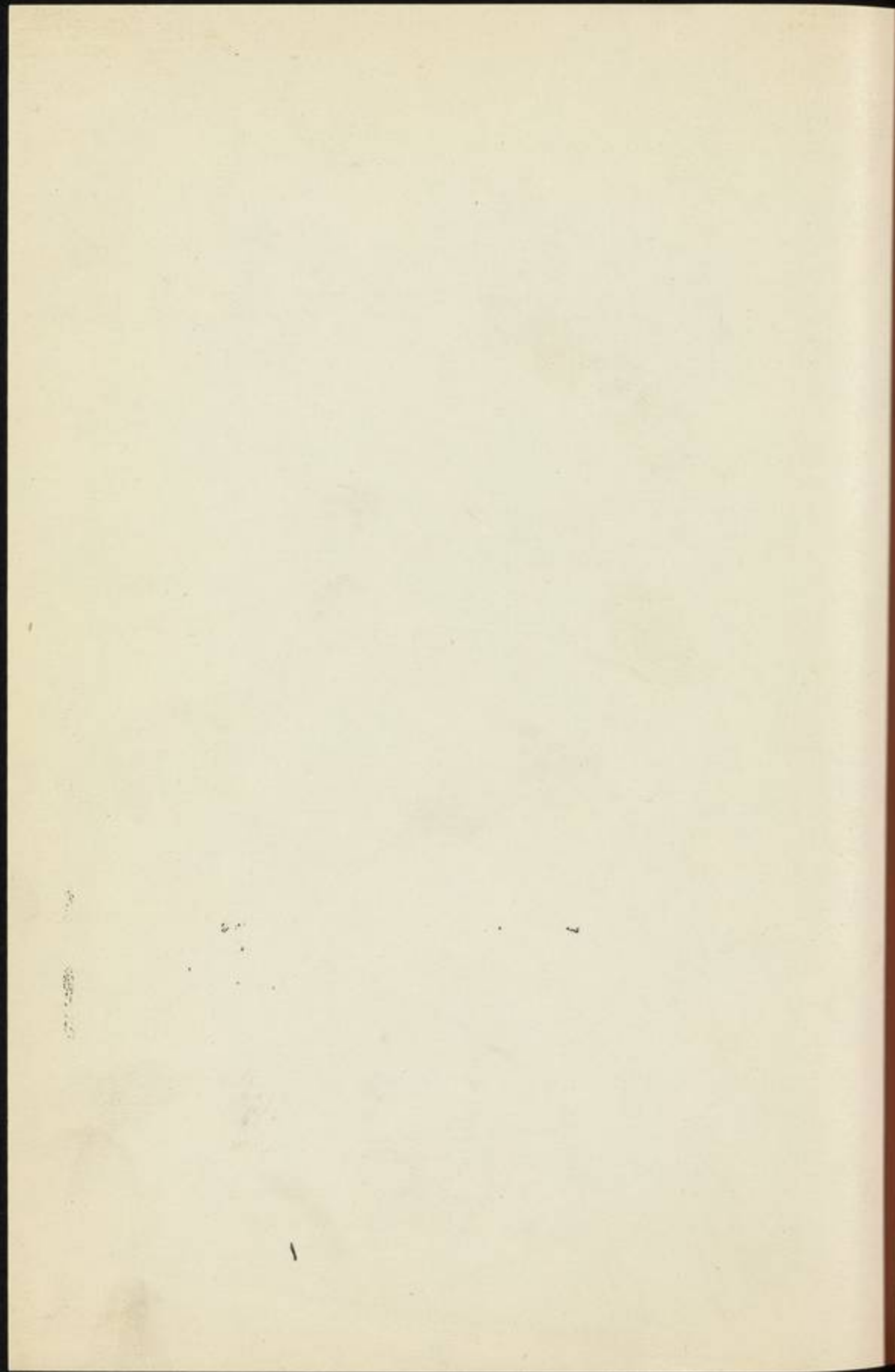


جبران خلیل جبران



مخانیل نعیمی

Wade la Syria



عربون ولاء وثقافة وفاء:

الى "الرشيح" ان عزالقلب الدكتور خوراد العقول

من احبهم

الكثير المازج

أهداه اليه الصديق الدكتور خوراد العقول

في يوم الجمعة ٢٤ يونيو ١٩٥٠

عزلي بوشادي

A. Z. Abushady

Naimy, Mikhail

Jubrān Khalīl

جبران خليل جبران

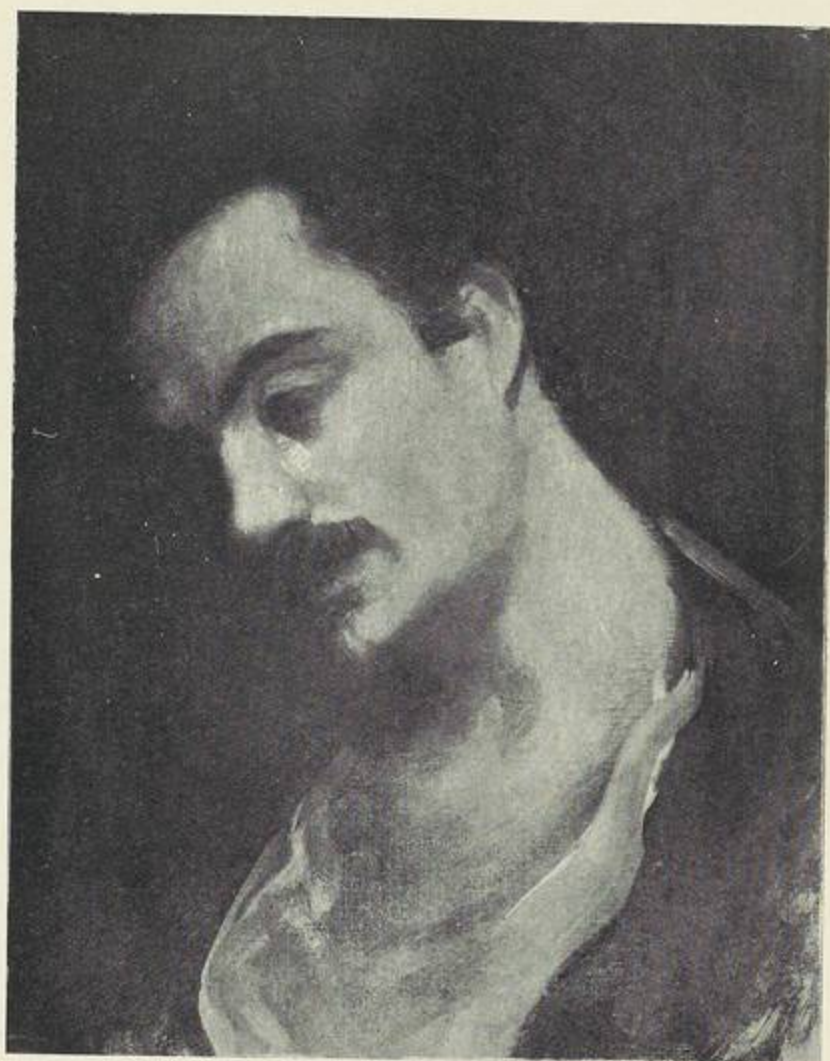
مباني • مؤلف • ادب • فن

تأليف

ميجائيل نعيمة

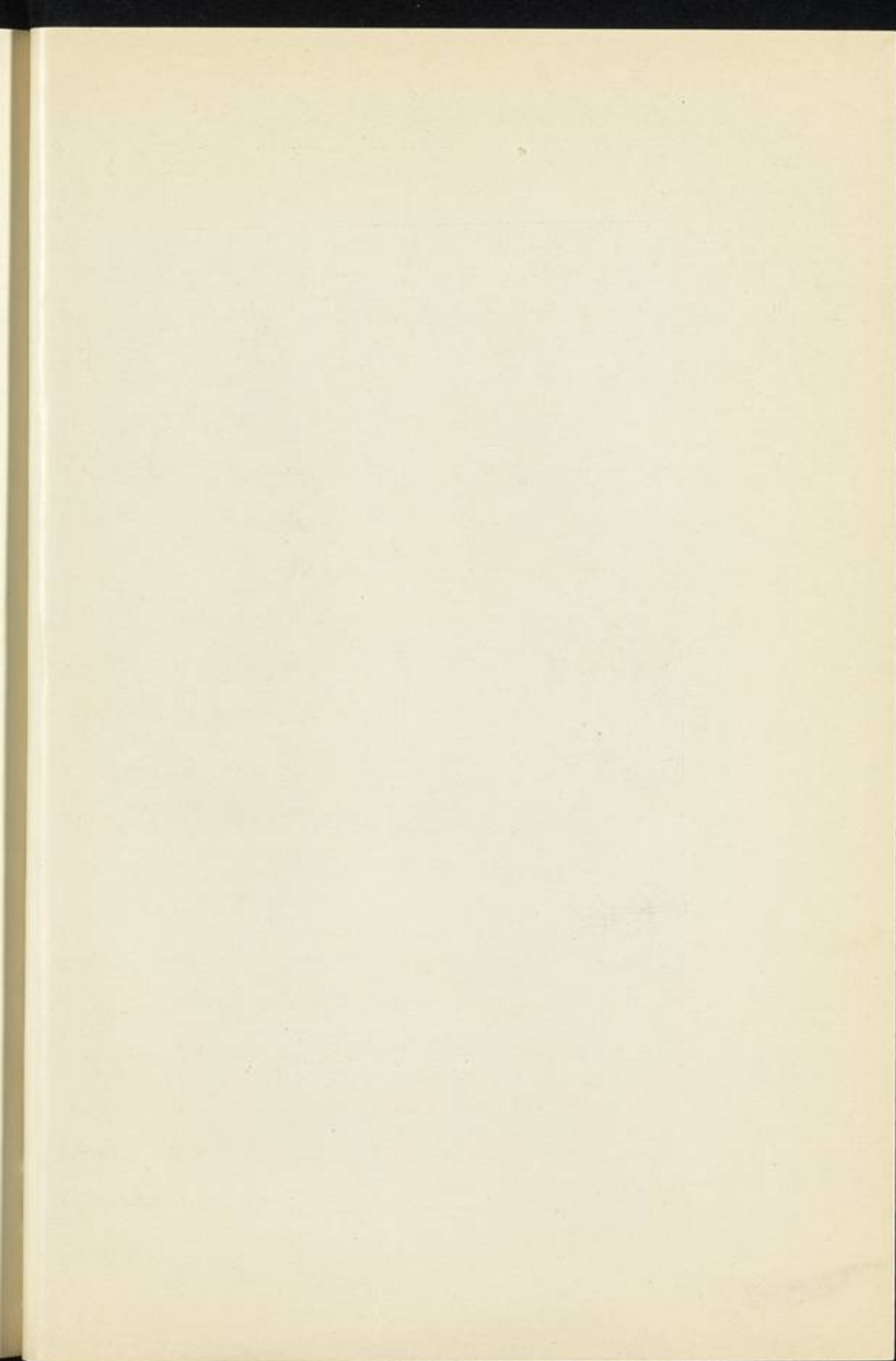
مقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف

مطبعة « لسان الحال » • بيروت • سنة ١٩٣٤



جبران في الثامنة والعشرين
عن صورة زيتية من شغل يوسف الحوبك

2269
'395
.838



اعتذار

ترددت كثيراً قبل ان اقدمت على وضع هذا الكتاب . لاني لست
او من بأن في الناس من يستطيع ان يصف من حياته حتى لحظة واحدة بكل
ما فيها من معانٍ مشتبكة بمعاني الحياة الكونية . فكيف بمن يحاول ان يحصر
بين دفتي كتاب حياة غير حياته ، سواء اكانت حياة عبقرى ام حياة بربرى ،
وسواء اكان نصيبه من فن الكتابة وفيراً ام يسيراً ؟ وعندى ان كل
ما يرويه الناس عن الناس باسم التاريخ ليس الا زغوة متطايرة فوق بحر
الحياة الانسانية . اما اعماق الانسان وآفاقه فابعد واوسع من ان يتناولها قلم
او يستوعبها بيان . فنحن حتى اليوم لم نكتب « تاريخ » انسان ولا « تاريخ »
شيء على الاطلاق . ولو اننا كتبنا تاريخ انسان واحد لقرأنا فيه تاريخ كل
الناس . ولو اننا دوننا تاريخ شيء واحد لاطالعنا فيه تاريخ كل شيء .

ثم ان في حياة كل انسان « اسراراً » يكتمها عن الناس . وانا قد
وقفت على البعض من اسرار جبران وفانني منها الكثير . فهل يليق بي ان
ابوح ولو ببعض البعض الذي اعرفه ؟ وان انا كتمته فما معنى الذي اكتبه ؟
أخون نفسي والقارىء وجبران بكتمان ما ليس مكتوماً في سجل الحياة
الكبرى — وان يكن مستوراً عن اعين الناس — فاصور صورة لا وزن بين
ظلالها وانوارها ، لارضى بعض من لا ذوق لهم في الفن ولا رأي لهم في
الحياة ، واجور على ذوقي وادفن رأيتي في التراب ؟ وان انا لم اكتبه فكيف

لي ان ابوح به من غير ان اظهر في عين القارىء كما لو كنت ادين اخي
بهفوات قد لا اكون بريئاً منها ؟

وبعد ذلك فكيف لي ان اكتب عن جبران من غير ان اذكر نفسي ،
وقد كان بيننا من القرابة ما كان ؟ وان انا لم اجد بدءاً من ذكر نفسي فهل
يفهم القارىء اني ما فعلت ذلك الا مضطراً واني اكره التحدث عن نفسي
لا سيما في كتاب احدث فيه عن سواي ؟

تلك بعض الاسباب التي دعيتني الى التردد في وضع هذا الكتاب .
لكنني عند ما عدت الى الشرق بعد عام لوفاة جبران وجدت صديقي يكاد
يكون اسطورة من الاساطير حتى في بلاده . فهو ليس جبران الذي رافقته
خمس عشرة سنة وخبرت احلامه وآلامه ، وبلوت قوته وضعفه ، ورقبت
جهاده العنيف مع نفسه والعالم ، وقاسمني اشواقه وافكاره وشاركنه في
افكاري واشواقي . ولكم سمعت ادباء ومثأدين يطالبونني بكتابة ما اعرفه
عنه . فمن قائل ان ذلك دين في عني . ومن قائل انه واجب عليّ للادب
ولا مناص لي من تأديته . ومن قائل ان سكوتي في مثل هذه الحالة ضرب
من الالتم .

فكان من ذلك كله اني تغلبت على التردد فأنت هذا الكتاب ، على
امل ان يطالع القارىء من خلال فصوله صورة جبران كما عرفته لا «تاريخ»
حياته الذي لا يعرفه احد . وان يقع فيه على دروس في الحياة اني يشترك
فيها كل الناس بالسواء . وها انا ارسله في سبيله عالماً حق العلم ان ما فيه من
صراحة سيرضي البعض ويغضب البعض ويدهش الكثير ممن لم يعرفوا جبران
الا في ما قرأوه من ادبه واطلمعوا عليه من فنه . لكنها صراحة لست لا تخلى
عنها . فلولاها لما كان الكتاب اهلاً للنشر . ولولاها لانطمس اجمل ما في

حياة جبران . وهو صراعه المستتب مع نفسه لينقيها من كل شائبة ويجعلها
جميلة كالجمال الذي لمح به بخياله وبثه بسخاء في رسومه وسطوره . فالقن مهما
تسامى في نظر صاحبه ونظر الناس ليس من الاهمية على شيء ما لم يترجمه
صاحبه والناس الى قوة تنشط بهم من عقالات المعيشة المحدودة الى حرية
الحياة التي لا تحد - من الانسان في الله الى الله في الانسان . والادب ، مهما
جمل ، لا معنى له الا على قدر ما يكشف معنى الحياة الذي هو اثبت من
الارض وابقى من السماء .

ميخائيل نعيمة

بسكنتا ، لبنان ، في ١٥ حزيران (يونيو) سنة ١٩٣٤

١

الشفق

=====

=====

=====

الاحتضار

حشرة الموت !

كم سمعت بها قبل ان اسمعها . اما منذ تلك الليلة - ليلة العاشر من نيسان (ابريل) سنة ١٩٣١ - فاني اكاد لا اسمع غيرها . اسمعها في دقائق قلبي وفي انفاسي . اسمعها في صوتي وفي كل صوت . اسمعها في همس النسائم وحفيف الاوراق . اسمعها في سكون الليل وجلبة النهار .
الابتار كت حياة تلثي الآزال والآباد في لحظة منها . فيندمج النقيض بالنقيض ، وتستوي الاضداد كالانداد . تباركت لانك تهزأين بمقاييس البشر . وفي هزئك قساوة . وفي قساوتك عدل . فلا تخجلين من ان تجمعي بين العرض والجوهر ، بين الهزل والجد ، بين المتاجر والمقابر ، بين حشرة الموت وقرقة التلفون !

النهار الجمعة . والساعة نحو الخامسة والنصف . انا أستعد للانصراف من محل أنخر فيه كل يوم ساعات بكارى من حياتي لعدد محدود من مومسات الريالات ، وقلم اسمع حديثاً الا عن البيع والشراء ، عن الربح والخسارة ، عن سوق تصعد وسوق تهبط . يقرع جرس التلفون فيطلبونني اليه . اهو احد الزبائن يرغب في بضاعة او يشكو بضاعة او يعتذر عن عدم مقدرته على دفع ما عليه ؟

« هلو ... نعم . انا هو . مرحباً . مرحباً ... ما ذا نقول ؟ جبران

في المستشفى ؟ »

« في مستشفى القديس فنسنت . وهو في غيبوبة . والطبيب لا يقدر
انه يعيش حتى منتصف الليل . وليس حواله احد من رفاقه وخلائه . فأريت
من واجبي ان اخبرك لعلني انك اقرب الناس اليه »

« تاكسي ! مستشفى القديس فنسنت . — اسرع ايها السائق ، اسرع »
وكيف لهذا المسكين ان يسرع في شوارع مكتظة بالبشرية المسرعة على
اقدامها وعلى دواليبها ؟ والى اين يسرع هؤلاء الناس ؟ — كل الى مستشفى
ومستشفى الكل واحد .

ومن هو هذا القديس فنسنت وبماذا تقدس حتى يُقدّس ؟ ليس يني
وبين مستشفى غير ميل واقل من ميل . لكنه اطول ما قطعته في حياتي من
المسافات . جبران على فراش الموت . أدركه حياً ؟ اسرع ايها
السائق ، اسرع

« انا اليوم رجل صحيح يا ميسا »^(١) هذه آخر كلمات سمعتها منه وقد
خاطبته بالتلفون قبل ذاك بايام مستفحاً عن صحته . فتواعدنا ان نلتقي فنتعشى
معاً في احد المطاعم ونقضي السهرة عندي . وها انا ذاهب لأتناول واياه العشاء
على مائدة الموت في مطعم القديس فنسنت !

« انا اليوم رجل صحيح يا ميسا — انا غريب في هذا العالم يا ميسا —
انا احب هذا العالم يا ميسا » — الصحة والعلة . والموت والحياة . والوطن
والغربة — ألا من يريني ما بينها من الفروق ؟
اسرع ايها السائق . اسرع

(١) هو الاسم الذي كنت اعرف به عند اصحابي الاخصاء في نيويورك . وهو صيغة التصغير
والتعجب بالروسية من اسم ميخائيل .

« في اية غرفة خليل جبران ؟ » — سؤال اوجهه الى رجل جالس الى مكتب قريب من الباب داخل المستشفى . فيندفع بفحص تحت حرف « الجيم » في قوائمه المنظمة كأنه يفتش عن كلمة في قاموس غير مبال ان صوت الرجل الذي يخاطبه يتهدج بصوت الموت

« ليس عندنا عليل بهذا الاسم يا سيدي . » واذا اوكد له ان عندهم عيلاً اسمه جبران يحيلني الى رجل آخر عند مدخل المستشفى من شارع آخر فاخرج من حيث دخلت واسرع الى المدخل الذي ردني اليه . وهناك اعرف ان جبران في غرفة كذا في الطبقة الثالثة من تلك البناية المتعددة الطبقات . فاصعد سلالم كثيرة . وادور في منحرجات كثيرة . وانفحص ابواباً كثيرة قبل ان اهتدي الى الباب الذي اطلبه . ووراء كل باب اقترب منه جسد يشكو بالالوجاع . وروح تحارب القدر . رباه . رباه . رباه ! هوذا جانب من خايعتك التي تطلب جابراً لما تكسر من عظامها . ورائقاً لما تفتق من جلودها . وجامعاً لما نقت من اكبادها . فلا تحصل الا على عقاقير ثم عقاقير . فأين دواؤك ؟ ام هو الالم مصهر الحبة — محبتك التي لا توصف . وسبيل الخلاص — خلاصك الذي لا يثمن ؟

راهبات يمررن بي وامر بهن كأنهن خيالات من عالم لا اعرفه . وفي سواد اثوابهن ما يسود القلب . وممرضات يدخلن من باب ويخرجن من باب وفي بياض البسطن ما يجرح العين

« اين الغرفة كذا يا اختاه ؟ — الى اليمين ؟ اشكرك . »

امام باب الغرفة رجل تحيط به نسوة ثلاث . واذا اقترب نفردن الثلاث واحدة طويلة القامة ، عظيمة الهيكل ، زعفرانية اللون ، حادة الانف ، غارقة العينين . فتخطو نحوي مادة يمناها الي . هي شاعرة امير كية في النصف الاول

من عقدها السادس . عرفت جبران منذ سبع سنوات فقربت منه وكانت تساعده في نسخ مؤلفاته . وقد النقيتها مرة عنده . واذا ضع يدي في يدها نتهد ونقول :

« اشكر الله . اشكر الله لانك ههنا . »

في قلبي وفي عيني وعلى وجهي سوءال واحد يتردد لساني في طرحه فتجيني عليه هذه السيدة قبل ان تسمعه من في :

« لم يبق من امل . لم يبق من امل »

« اخبريني ماذا جرى »

« كنت البارحة عنده فوجدته يعاني آلاماً لم يعان مثلها من قبل . دعونا الطبيب وسألناه اذا كان من ضرورة لنقله الى المستشفى في الحال . فاجاب ان لا بأس لو بات ليلته في بيته . ولم اشأ ان اتركه وحده فقضيت الليل عنده . وفي الصباح - صباح اليوم - الجمعة - اشتد عليه الوجع فجئنا به الى هنا بين الساعة العاشرة والحادية عشرة »

« ولماذا لم تخبريني امس . او اليوم باكراً ؟ »

« امس كنا نظن انه عارض ويزول . واليوم عند ما جئنا به الى هنا كنت اول من خطر ببالي . غير اني اجهل رقم تلفونك . فبقيت افكر بواسطة اتوصل بها اليك الى ان خطري - وكان ذلك الهاماً ربانياً - ان اتلفن الى ادارة مجلة « العالم السوري » لتطلعك على الامر . وهكذا كان والان اشكر الله لانك اتيت . »

« كيف هو الآن ؟ »

« غاب عن الوعي بعد الظهر بقليل ولا يزال في غيبوبة . »

« هل عرض عليه احد ان يعترف ويتناول ؟ »

« سألته الراهبة — هل انت كاثوليكي ؟ فاجابها بنبرة قوية « كلا ! »
فتركته وانصرفت . وبعد ان انتقل الى حالة الغيبوبة جاءه كاهن سوري
— هو رجل قصير لعلك تعرفه — واخذ يناديه باعلى صوته : جبران —
جبران . جبران ! وجبران لا يعي . ولقد بلغ استيائي من ذلك الكاهن
وخشونته حدًا تمنيت معه لو كانت لي القوة الكافية لطرحه من النافذة . »
« هل فعل الكاهن شيئًا ؟ »

« هذا كل ما فعله . »

« واين الطبيب ؟ »

« ها هو » مشيرة الى الرجل الواقف امام الباب .
« ما هي علته ايها الطبيب ؟ اليس من امل . . . بالطب — بالجراحة ؟ »
« سرطان في الكبد^(١) . لا اظنه يعيش حتى منتصف الليل . هو الان
في غيبوبة ولا اخاله يفيق منها . » — كلمات تلفظ بها كأنه يحدث عن الطقس .
ولا عجب فليست هذه اولى مقابلاته للموت . ترى ايقابل موته بالبرودة عينها
التي يقابل بها موت سواه ؟

الطب . الطب . الطب ! اله العالم المتوجع ووجعه الاكبر .
« اسمح لي بالدخول على المريض ايها الطبيب ؟ »
« لا مانع على الاطلاق »

غرْ — غرْ . . . غرْ — غرْ . . . غرْ — غرْ . . . غرْ — غرْ . . .
صوت غريب يفاجئ اذني حالما افتح الباب واغلقه بهدوء ورهبة فاشعر
عندما اجتاز عتبة كافي قد اجتزت من عالم لا سر فيه الى عالم كله اسرار .

(١) لقد اثبت الكشف الطبي بعد الوفاة تحجراً في الكبد مع بناية سل في احدى الرئتين

وانسى ان هذا العالم في ذاك . وذلك في هذا . وان لا ابواب بين الاثنين ولا
عتبات سوى الابواب والعتبات التي يقيمها جهلي وتبصرها عيني الكليّة من
خلال اغشية الحواس المحدودة

ادنو من السرير الابيض الصغير القائم خلف الباب فلا ابصر لاول
وهلة معاون الطبيب الواقف عند رأسه ، اذ تسمر عيناى بوجه عرفته من
زمان فاجتته ، والان تكادان لا تعرفانه . فقد كان بلون الرمل يسقيه دم
الحياة . فاصبح رملاً يعلوه رماد المنية .

ها هو الانف المستقيم الارنبه ، الممتلئ المخربن قد انتصب نحو السقف
الباهت القاسى ، وليس فيه من الدم الا بقية ضئيلة تنهزم لحظةً فلحظةً من
وجه عساكر الانحلال . فهو يكاد لا يتنفس كأن به زكاماً من انفاس
الارض والسماء . وكأن الطبيب الأكبر - الموت - يداويه بنفحات من
سما غير سمائنا وارض غير ارضنا .

ها هما العينان اللتان كانتا تبوحان باسرارهما . فكم رأيت فيهما من
بريق الهام ومن حرقه شوق ومن نور بهجة . كم رأيتهما تغسلان بالدمع .
وتلتهبان بالضحك . وتغلغلان في وجوه الناس والطبيعة لتستجليا معانيها .
واحياناً تذهلان عن كل ما حواليهما كأنهما تطلعان الى ما وراء
الستار او تداعبان طيوف افكار وعواطف لاتجول في ازقة الناس ومساكنهم
ومعابدهم . والآل لست ارى فيهما لارعة ولا ومضة . فهما مطبقتان
تحت حاجبيهما المقوسين وقد اسدلنا اهدابهما الطويلة حتى الوجنتين فلا
تبوحان بما اغلقتا عليه من اسرار . وقد يكون خلف اجفانهما وميض بروق
كثيرة . فمن يدري ما في غيوبة الموت من ظلمات وانوار ؟

ها هما الشفتان الحسّاستان وقد كانتا بلون القرمز فاصبحتا بلون الرماد .

كم انفرجتا من قبل عن بسمه ، وكم تكمشتا بآلم . كم قبلتكما ام واخت
وحبيبة ، وكم من الشفاء تشاقيهما حتى الساعة ! وتلك الشفة العليا كم ارتجفت
بغضب شديد او بفرح قوي او بحزن عميق . اما الآن فهي قد التصقت
بأختها السفلى في خط كأنه خاتم الحكمة الصامته او الحد الفاصل بين ما يمكن
وبين ما لا يمكن التلفظ به . ولا نفصل عن أختها الا لتفتح الباب لأنة هي
أشبه بزفرة مذبوح منها بانه مريض .

ها هي الجبهة العالية التي تقهر عنها الشعر فزادها ارتفاعاً . وايضاً عن
جانبيها فزادها جمالاً . وجعدتها السنون تجاعيد لطيفة فأكسبتها جلالاً .
هي الجبهة التي كنت اذا نظرت اليها أكاد المس وابصر ما خلفها من الاشباح
والرئوس والمقاصد والمتاعب . اما الآن فهي أبعد من مجال بصري ولمسي .
ها هو الشعر الكستنائي ، وقد عبث المشط بنصفه ، ويض الشيب
نصف ما تبقى منه ، يغطي الآن جانباً من الوسادة و كأنه ، بعد ان هربت منه
الحياة ، خصل من صوف لا لمعان فيها ولا تجاذب .

« بلى » - تقول لي عيني - « بلى . هذا هو رفيق أحلامك .
وصديق أفكارك . وشقيق روحك . هذا جبران . وهو الآن يحتضر .
فاعلم أنك في حضرة الموت »

« جبران ! » - يناديه قلبي وئناديه كل جوارحي . اما لساني فلا
يتحرك وشفتي لا تفتحان . لانني عند ما احدث في وجهه ، وقد أمسكت
بعضلاته اصابع الآلم القاسية . وعندما اسمع تلك الغرغرة الهائلة في حلقه ،
والزفرات المنقطعة الهاربة من صدره ، اقول في نفسي : « لعله ان ناديته
يسمعني فيتألم اذ لا مقدرة له على الجواب » . ثم اقول لعله يبصرني . واسمع في
داخلي صوتاً يقول - بل هو يبصرك . فارتاح هنيهة الى هذا الصوت ،

واهبط الى كرسي بجانب السرير فاصغي طويلاً الى غرفة تلك النارجيلة
الجهنمية في حلق اخي والى الزفرات التي تولدها فاهم ان اصيح به — الا انفلها
من فمك . ألا ثقياً ها . — جاهلاً انه ساعة يثقلها يثقل معها آخر انجابه .
وبعد ان استسلم الى القدر النافذ امام عيني اغرق في بحر من التأمل هو
ملجأ في كل شدة . واشعر كأن جبران يحدثني وكأنني احده . وكم
تحدثنا قبل ذلك بالصمت ! — فاطمئن بعض الاطمئنان لاعتقادي انه شاعر
بوجودي معه . عارف انه ليس وحده ، وان قلب صديق يشيعه في عبوره
من هذا الشاطئ الى ذاك .

ادبر طرفي في الغرفة فاناوول كل ما فيها . عرضها ثلاثة اذرع .
وطولها ستة . وعلوها اربعة . في جدارها المقابل الباب نافذة تطل على
الشارع . وفي النافذة طاقة من الازهار الداوية . الى جانب النافذة خزانة
صغيرة للثياب وبجانها طاولة صغيرة بيضاء عليها عقاقير وطلاسم طبية .
ووراء الطاولة السرير . وعند رأس السرير معاون الطبيب بسترته البيضاء
وقد اخذ بذراع المريض يحس نبضها بين الفينة والفينة ويحقنها بمخدرات
او منبهات هو ادرى بها .

« هل هو يشعر بلم يا حضرة المعاون ؟ »

« ولا بشيء . »

« كم تدوم هذه المعركة ؟ »

« لقد قاربت النهاية . »

وبنتهي حديثي مع المعاون . فاعود الى حديثي مع جبران . ومع

الموت . ومع نفسي . فاقول لجبران

والذين اسعدهم بحياته واشقاهم . او اسعدوه واشقوه ، وبينه وبينى — لماذا
تلاقينا وتأخينا في لحظة من الزمن لا في سواها ، وفي فسحة من المكان لا في
غيرها . ولماذا كتب له ان يموت بين يدي ، ولي ان اشيعه من هذه الديار ؟
فهل تراه يستقبلني في تلك ؟ او تراه يدرك ما هو فيه الآن ؟ كم تحدثنا عن
الموت فرأيناه ولادة اخرى . وكم دعونا والحياة توأمين . اتراه يقول
الآن ما كان يقوله امس ؟ وان كان لا يفكر الان لا بالارض ولا بالسما
ولا بالموت ولا بالحياة ، فماذا يفكر ؟ ام ترى غيوبة الاحتضار اعظم من
الفكر والحلم والخيال . فقد تكون اعتاقاً قصيراً من الحس بالوجود الى
الوجود الذي لا حس فيه . او تمهيداً الى الاعتاق الابدى من الوجود الادنى
للخطوى بالوجود الاسمى — باللا وجود ؟

لا اكاد افلت بخيالي من عالم الحس حتى تجذبني حشرة الموت اليه .
فتدفق عليّ من النافذة امواج حياة المدينة — اصواتها المبلبلية ، شهواتها
الملتهبة ، مطاعمها المناسبة كالافاعي ، افراحها الطاعنة واوجاعها المقيمة .
وتنسكب كلها في مقطعين صغيرين : « غر — غر . . . » ثم تنفجر جدران
الغرفة وتراجع الى وراء الافق . وينقلص سقفها كما لو كان سماعة من دخان
فادخل بيوت النائمين ، ومعابد المصلين ، ومخازن المتاجرين . واطلّ على
مخادع الحاملات ، ومضاجع العرائس ، واسرة المخضرين ، وعروش الملوك
وكهوف المتنسكين . وامشي مع الاسرى والمعتقلين ، واجلس مع القضاة
والمجرمين . اطوف الارض كلها واصبح الى اصواتها . واجوب الفضاء وما
فيه من عوالم محسوسة فاعود منها كلها بنغمة واحدة — « غر — غر . . . »
وتستقر هذه النغمة في اعماق كياني كأنها كانت هناك منذ الازل :
فاستغرب كيف لم اسمعها من قبل . ويخيل اليّ انها نغمة الحياة المثلى ولغتها

الوحيدة . وان كل ما تدور به النجوم ، وتلظى به الشمس ، وتغنى به
الارض ، ويتلفظ به الناس معناه « غر - غر . . . » وان ال « وَّعْوَءٌ »
التي يقذفها صدر الطفل عندما يطل على عالمنا هذا هي عين ال « غر - غر »
التي ننسل من صدر المحتضر عند ما يشرف على عالم غير هذا العالم

فياللات بشري

= ١ =

«وَعْ! وَعْ!»

الصوت خارج من ذات الحنجرة التي تخنقها الآن امامي غرغرة ولادة اخرى . غير ان القابلة التي تسمع ذلك الصوت لا تسمع فيه هذه الغرغرة فيبرق وجهها عند ما تلتفت الى الوالدة الملقية على فراش المخاض ونقول لها بصوت متهلل :

« صبي . صبي ! الحمد لله على خلاصك بخير يا روحي . »

وكما ننشأ اشعة القمر الناعمة في الغيوم ننشأ ابتسامة هادئة في تجاعيد الوجع الذي يمتنع وجه الوالدة . فنجيب القابلة بصوت يكاد لا يسمع : « الله يشكر حمدك يا اخي . » وبطرفة عين يمتلئ ذلك البيت الصغير بكلمة واحدة ترفرف في كل جوانبه كأنها عصفورة افلتت من قفص . فهي على السنة القربيات والجارات الجالسات حول الموقد بالقرب من فراش الوالدة . وهي في الجدران العمياء من كل بصر الا الباب . وهي في السقف الذي جعل الدخان اخشابته بلون القير . وهي في الريح الصرصر خارجاً - ريح كانون الاول تذر قلبه الابيض في اعماق وادي قاديشا ، وعلى ذوائب بنات وحفيدات ارز سليمان ، وعلى رأس فم الميزاب - « صبي ! صبي ! » ويهني

النسوةُ الوالدةُ وبعضهنَّ بعضاً كأنَّ المولودَ مولودُ كلِّ واحدةٍ منهنَّ :

« مبارك ما جانا . مبارك ما جانا ! »

بين وعوذة الطفل ، ونهيدات الوالدة ، وتمتعة القابلة ، ولعظ الجارات والقرربات ينفث الباب فتدلق من الخارج موجة من انفاس كانون الباردة وبقى الباب مفتوحاً وفيه رجل ربع القامة ، اشقر البشرة ، ازرق العينين ، كستنائي الشاربين ، حسن تقاطيع الوجه ، قوي العضل ، دون الاربعين بقليل ، فتصيح به القابلة :

« قبرتك امك . اغلق الباب . فانت تكاد تيمتنا وتميت الصبي برداً . »
عندئذ يغلق الرجل الباب بعنف وبوثبة او وثبتين يدرك فراش الوالدة فيقف هنيهة بجانبه حابساً انفاسه . وجأة تشرق اسرته فيمسد شاريه ويهتف :

« صبي ! صبي ! »

فتجيبه القابلة بين المزح والجد :

« يا لضياعه فيك . »

« لا يا ام حنا . لا ! خليل جبران يستاهل اكثر من ذلك . صحيح اني مسكران لكن خوف الله بقلبي . كامله ! - مخاطباً زوجته الملقاة على الفراش - كامله ! والله لا غسلن رجلك واشرب ماءهما . مبارك ما جانا .
تعرفين ماذا سندسميه ؟ جبران - جد العائلة . ارّخي يا امرأة ارّخي .
كم اليوم من الشهر ؟ ستة ؟ ارّخي - ولد جبران خليل جبران ليلة السادس من كانون الاول سنة ١٨٨٣ في قصبة بشراي من اعمال لبنان . »
ثململ الوالدة في فراشها وتبتل حذقتها الواسعتان الوديعتان بدمعتين تجمدان عند اطراف الاهداب . وتطفو على وجهها الاسمر النخيل سخابة من الكآبة تغطي ما لمع فيه من اشعة البهجة قبل ذلك بقليل .

« كامله ! كامله ! يا للعيب . انت تبكين ؟ اذا لم اسكر في مثل هذه الليلة فمتى ؟ »

« هنيئاً لمن رآك صاحباً ولو مرة واحدة . » — هذا من القابلة .
« ام حنا . ام حنا . الزمي حدودك . مهنتك سحب الاطفال من بطون
الامهات ، لا سحب الرجال من بطون الأذن . كامله . كامله ! يا للعيب !
مليح . مليح . تركنا الكلس . وحياة جبران وبشرف هذين الشارين »
ويمسك خليل جبران بشاربه الايمن ويلمح الطرف يقفز الى خزانة صغيرة
في زاوية البيت فيتناول منها كمية من الزبيب والجوز واللوز ويأخذ بفرقها
على النسوة اللواتي في البيت .

« كلوا . كلوا . هذه « حلوية » جبران . »
النسوة يأخذن ويأكلن ويدفعن ثمن ما يأكلنه طلبات من اجل
الوالدة والمولود — « ان شاء الله يكون من اولاد السلامة . الحمد لله على
خلاصك بخير . »

وبعد قليل يشعلن مصايحهن وينطلقن في دجّة كانون الاول كل
واحدة الى بيتها . ما خلا القابلة التي لا تترك الوالدة ولا الطفل .
ومع النسوة العائدات الى بيوتهن ، وعلى انوار مصايحهن ، تدرج
في الارض حياة لا يعرفن من اسرارها سوى انها صبي . ولا يسمعن من
اصواتها الا « وع . وع »

= ٢ =

ننام الوالدة ليلتها وبجانها كتلة اللحم والدم التي انحدرت عنها والتي
تدعوها ابنها ولا تعرف من شأنها اكثر مما يعرف ميزاب العين من شأن

= ١٦ =

المياه المنحدرة عنه — من اين جاءت ، والى اين تمضي ، وما غابتها من الارض
وغاية الارض منها

ولو كان لكامله جبران ان تبصر الصلة التي بين فراشها في بشري
وبين السرير الابيض الصغير في مستشفى القديس فنسنت في نيويورك ،
لو كان لها ان ترى قطرات الحياة التي انبثقت من رحمها تلك الليلة تغور بعد
ثمان واربعين سنة في رحم الزمان ، وفي بلاد قصية ، لتحولت بهجتها الى رعدة
ولعادت الى قلبها ومفاصلها آلام المخاض دون آماله . ولو كان لها ان تلمس
اسلاك الروح الخفية التي تربط طفلها برجال ونساء واطفال كثيرين في
العالم ، وبارواح ما برحت خلف الستار تعد لها الاقدار معداتها لتبرزها الى
مسرح هذا الوجود — ومنها روح كاتب هذه السطور — لو كان لكامله
جبران ان تلمس تلك الاسلاك لتكهربت من شدة الدهشة ووقفت انباضها .
غير ان الحياة التي هي أم كل أم تشفق على بناتها وابنائها . فلا تضع
في حديقتي مخلوق من نورها اكثر مما يحتاجه ذلك المخلوق ليستدل على طريقه .
ولا تودع ساقيه من قوتها اكثر مما يلزمه لقطع المسافة التي تخطها له .

= ٣ =

لا بطلع الفجر في بشري حتى يكون الخبر قد تمشى من باب الى باب
بان كامله ابنة الخوري اسطفان رحمه وزوجة خليل جبران قد وضعت صبياً
فتعيد جارة بيت جبران على زوجها ما قالته له الليلة السابقة ، ولا فاصل بينهما
وبين جيرانهما سوى جدار مشترك بين البيتين :

« صدقني ، كامله تستحق . لماذا الجدال ؟ امرأة عندها من الآدمية
ما يفيض عنها . ليس ارجح من عقلها ، ولا احسن من اطباعها ، ولا ادفاً
من لسانها . تمشي فلا تحس بها الارض . لكن ربنا — سبحانه في ملكه —

= ١٧ =

لم يوفقها بالرجال . تزوجت حنا عبد السلام رحمه ، وكان رجلاً طيباً ،
فأخذها الى البرازيل ومات هناك بعد ان وضعت له بطرس . والان اخذت
هذا السكر - خليل جبران - اترأها تقبره كذلك بعد ان جاءته بهذا
الصبي ؟ يا لضياعها معه . خنصرها يسواه .»

«لماذا لا تقولين يا لضياعه معها ؟ اخذها ارملة وعندها صبي .»
«وان تكن ارملة - اليست بعد في مقبل العمر ؟ فهي لا تزيد على
الخمس والعشرين .»

«بل تخجلين ان تقولي الخمس والثلاثين . ان تكن هي صبية فهو
ليس عجوزاً .»

«عجوز وزيادة . عنده اربعون وما فوق .»

«ولا رأى الست والثلاثين . مع ذلك اخبريني بماذا هي احسن منه ؟
بسببها ؟ ام بوجهها الاسمر الهزيل ؟ ان طلبته للرجولية فقليل هم الذين
يرفعون اثقالاً كالتى يرفعها . وان طلبته للكلام فلست اعرف كثيرين
يفوقونه بذلاقة اللسان . وان طلبته للصورة فكم تعرفين في بشري من هم
احسن منه صورة ؟ وان طلبته للبسط والعشرة فليس اطيب من عشرته
واقرب من بسطه .»

«من حيث البسط - الحق معك . متى حضر القدح فتغرب الدنيا
ألا دعني منك ومنه ومن كل الرجال الذين على شاكلته . وانت منهم !»

= ٤ =

يفيق بيت خليل جبران على وعوة المولود الجديد . فينهض من فراشه
في الزاوية صبي في السادسة من سنه . وللحال يلتقفه خليل بين ذراعيه ويقبل

وجنتيه المتوردتين وعينه الواسعتين الناعستين ثم يضعه من يديه ضاحكاً
وقائلاً :

« بطرس ! اعرفت ان امك جاءتك باخ ؟ انجب ان تراه ؟ تقدم
يا روجي تقدم » فیدنو بطرس من فراش امه بخطوات مترددة ، وقلب
خافق ، ووجه يحاول ان يخفي الفرح الطاف عليه . ويحثو بقرب الفراش
فوق امه التي تمد يدها الي شعره الحريري وتحنى اليها رأسه الجميل وترسم قبة
حنوناً على جبينه النير وتقول له بصوت هادئ كله محبة :

« ما ذا تريد ان تسمي اخاك ؟ »

« عنتر ! »

« فتضحك الوالدة ويقهقه الوالد قهقهة يسمعها الجيران ، ويأخذ وجه
بطرس بين يديه ويضغط على خديه :

« جبران اسمه . جبران . — جد العائلة . جبران احسن من عنتر »

في تلك الساعة ينتصف الليل في مدينة تدعى كولومبيا من ولاية
سوث كارولينا ، من اعمال الولايات المتحدة ، فجلس في سريرها فتاة
اميركية اسمها ماري ، لها من العمر عشر سنوات ، وتفرك عينيها بشدة
كانها تحاول ان ترى في ظلمة اليقظة ما رأت في نور المنام .

فقد حلت انها ذاهبة الى المدرسة وان كلاباً كثيرة انبرت من جانبي
الطريق تنبح عليها وتكشر عن انيابها . فاخذت تستغيث برفيقاتها ،
ورفيقاتها يقهقن ساخرات بها وقائلات : « افنحي فمك الجميل يا ماري تهرب
الكلاب ! » فاجهشت بالبكاء وطفقت تعدو بكل ما في رجليها الصغيرتين
من السرعة الى ان دخلت غابة من الادغال الشائكة . فوقفت هناك لتستعيد

انفاسها ، واذا بها وحدها ولا كلاب ولا رفيقات ولا طريق . فامتلك عليها
الجزع كل حواسها وما درت الا وهي على ركبتيها تصلي .

وبينما هي تصلي شعرت بقوة تجذبها الى الامام حتى كادت تهوي على
وجهها . فالتفت واذا بخيط من الحرير الابيض قد شد على وسطها ظفته لاول
وهلة خيط عنكبوت . واذا حاولت ان تقطعه وجدته امتن من حبل قنب
ورأت انه يمتد في الغابة كأنه شعاع من نور في ظلة . فنسبت في الحال كل
ما بها من جزع وراحت تلثم الخيط وتتبعه لافقة اياه على يدها ، وقد اصبح
شاغلها الا كبر ان تصل الى طرفه الاخر لتعرف بماذا شد ويد من تشدّها به
وما فتئت تمشي مع الخيط الى ان بلغت شاطئ بحر عجاج . فالتفت واذا
بالخيط يمتد فوق الامواج الى ما وراء الأفق . عندئذ جلست على الرمل تفكر
في بهلوان رآته يوماً في ملعب يمشي على سلك واحد ونقول في نفسها « ليتني
بهلوانة » وظل هذا الفكر يساورها الى ان نهضت وبعرزها ان تفعل كالبهلوان
فما وضعت رجلها على الخيط حتى افاقت من نومها وقلبها الصغير ينبض كقلب
خشف بطارده ذئب . فاخذت تلمس وسطها ويديها عليها تجد اثر الخيط .
واذ لم تقع له على اثر عادت فغرقت في فراشها ، وشدت اللحاف الى فوق
رأسها ، وانغمست في نوم عميق .



كانت ليلة الخميس من سبّة الآلام . وكانت كامله جبران جالسة على
حصير في بيتها ، وعلى صدرها طفلتها سلطنة ، وعمرها سنة ، والى جانبها
مريانا ، التي سبقت اختها سلطنة الى هذا العالم بسنتين ، وقد اقلت برأسها
على نخذامها ونامت نوماً هنيئاً ، وامام الام بكرها من زوجها الثاني وهو

شاخص اليها ومصغى الى كلامها بكل ما في سنيه الخمس واشهره الاربعة من الشوق الى استماع الحكايات .

في تلك الليلة نام جبران وخلف اجفانه تتسابق خيالات غريبة :
أكمة عليها صليب . وعلى الصليب رجل بلحية شقراء وشعر اشقر مسترسل
وقد ستر يديه ورجليه ، ولا ذنب له الا انه نزل من السماء ليحمل الناس كلهم
صالحين ، ومن حواليه جماهير يبدون تارة اقزاماً بلا شعور ، وطوراً عمالقة
بلحي سوداء تكاد تلمس الارض . وفي ايديهم حراب يطعنون بها الذي على
الصليب باصتين في وجهه ومتهمين عليه . واسمهم اليهود . وفي « السماء »
كرسي كبير مرتكز على اربعة نجوم ، وعلى الكرسي « الرب » وقد
ندلت لحيته العظيمة البيضاء الى الارض وهو يقول : « هذا هو ابني الوحيد »
ثم ينفخ في نار ليصبها من فوق على رؤوس اليهود . وعند اسفل الصليب
امرأة اسمها العذراء تنتحب وتصيح — يا ابني ! يا ولدي !

افاق جبران مع فجر الجمعة « الحزينة » فرأى في الباب اخاه بطرس
وزمرة من رفاقه ، وكلهم حفاة وعلى اهبة الخروج من البيت . واذ سأل
اخاه الى اين ؟ اجابه بانهم صاعدون الى الجبل « ليتعذبوا » مع المسيح ويأتوا
بازهار يضعونها على محله في حفلة جنازه في الكنيسة . فتوسل اليه ان يأخذه
معه . ومال بطرس الى ذلك لانه كان يحب اخاه من امه محبة حمة . لكن
رفاقه شدوه من كمه وخرجوا به في الحال قائلين ان لا وقت لهم « لمدادة »
الاطفال وتمسيح دموعهم .

بكى جبران وانتحب طويلاً ولم تستطع امه ان تعزبه لا بالزبيب ولا
بالوعود . ولم يزد ضرب ابيه ، الذي كان يدخن سيكارته ويمتص قهوته
المرّة ، والخصام الذي ادى اليه الضرب بين والديه ، الا عويلاً ودموعاً .

فما كان من ابيه الا ان دفعه الى خارج البيت واغلق الباب قائلاً : « حرمتي
لذة قهوتي وسيكارتى . انقذف من وجهي . »

مضى الظهر ، وحان وقت الجناز ، وجبران لم يرجع . فقالت امه لعله
ذهب مع بعض ابناء الجيران الى الكنيسة . وانطلقت مع زوجها وجاراتها
وجيرانها الى الكنيسة . فرأت هناك بطرس ورفاقه وقد جاؤوا بالكثير من
الازهار . اما جبران فلم تر له اثرأ . وانتهت الحفلة فسألت بطرس عن اخيه
فاجابها انه لم يره كل ذلك النهار . فقالت لعله عاد الى البيت . لكنها عندما
رجعت الى البيت لم تجده هناك . فاضطربت افكارها وانهالت على زوجها
توبخه وتلقي المسؤولية عليه اذا — لا سمح الله — حل بابنهما سوء . واخيراً
اخذت بطرس وبعض رفاقه وراحت تفتش معهم عن جبران . فوجدوه قبيل
الغروب في المقبرة خلف الكنيسة وفي يده طاقة صغيرة من « بخور مريم »
وعندما اقبلت عليه لتؤنّب به على فعلته تحول كل غضبها الى حنان ومحبة بعد ان
سمعت من فمه كيف انه ذهب الى البرية وحده « ليتعذب » مع المسيح .
وكيف جاء بازهار ليضعها على محمله في الكنيسة فوجد الكنيسة مقفلة .
وعندئذ قصد المقبرة ليفتش ما بين القبور عن قبر المسيح فيضع ازهاره
عليه .

= ٦ =

ذات يوم عاد جبران من مدرسة القرية دامي الفم . مهشم الاذنين ،
مزق القمباز . وعندما استنطقته امه عن السبب اجابها ، والدموع في
عينه ، بان احد رفاقه دعاه « سهيان وبكاء » ، فلم يقبل الاهانة وردها
بلكمة . غير ان رفيقه كان اقوى منه ، لانه اكبر منه سنأ ، فرد له اللكمة
لكمات . ولو لم يكن اكبر منه لكان « قبرة » ولكنه سيكبر ويقبره

= ٢٢ =

بعد . فالقت عليه امه موعظة في حسن السلوك وتجنب الشر . اما ابوه فدعاه
جباناً وزاد في لكماته لكتين .

= ٧ =

وفي يوم آخر عاد بطرس من المدرسة الى البيت عند الظهر ، وخلافاً
لعادته ، لم يكن معه اخوه جبران . واذا سأله امه عن السبب اخبرها بان
الخوري «زرب» اخاه لامين : اولاً لانه لم يحسن قراءة مثالته السريانية
وثانياً لان الخوري فرض عليه كتابة المثالة عشر مرات . وعند ما جاء بفحص
دفتره وجد انه بدلاً من كتابة المثالة قد صور في الدفتر شبه حمارٍ نائم وعلى
رأسه قلنسوة سوداء ، وفي اذنه الواحدة قد علق كتاب وفي الاخرى مخللة
وكان قبل ذلك بايام قد دخل ابو جبران البيت فوجد ابنه وفي يده فحمة
يرسم بها على الحائط اشكالاً لم يفهم الوالد لها معنى — كانها بيت وليست
بيتاً ، وكان امام البيت فتاة كئيبة وليست فتاة كئيبة . فضربه وعنفه
قائلاً ان خير له ان يدرس مثالته السريانية من ان يسود الحائط . لذلك عند
ما سمع بما فعله به معلمه الخوري قال من كل قلبه : « يستاهل . »

= ٨ =

كان جبران يلعب خلف البيت عند ما رأى رجلاً غريباً يسوق بغلاً
عليه قربتان وينادي « الزيت الحلو » . فأطلت من باب بيتها عجوز في يدها
سجعة طويلة وسألت الرجل ان يذيقها زيته ففعل . وبعد جدال عنيف انفقت
واياه على السعر ثم دخلت البيت وعادت بزجاجة فارغة وقالت لبائع الزيت
ان يكيل لها ثلاث اواق فكلها . وقبل ان يفرغها في الزجاجة سأله العجوز
عن دينه فاجابها انه روم . فادارت في الحال ظهرها عنه وعادت بزجاجة

الفارغة الى بيتها واقفلت الباب وراءها بعنف وهي ترسم علامة الصليب وتتمتع
كلمات مبهمه .

بعد قليل كان جبران بجانب امه يسألها :

« ما هو ديننا يا امي ؟ »

« نحن موارنة يا ابني »

« ومن هم الروم ؟ »

« هم نصارى مثلنا . »

« ولماذا اسمهم روم واسمنا موارنة ؟ »

« عليك ان تسأل الخوري يا ابني فهو ينبئك احسن مني »

« وهل يخفنا الرب اذا اشترينا زيتاً من رجل روم ؟ »

« كلاً يا ابني . »

وما ان اتم الولد سوءاً لانه حتى دخل ابوه البيت ونادى بزوجه ان تأتية
بزجاجة فارغة ليبتاع زيتاً . فاطل جبران من الباب ورأى بائع الزيت الذي
التقاء سابقاً . ورأى اياه يأخذ منه زيتاً وينقده الثمن وبلع عليه بتناول
العشاء معهم وتمضية الليلة عندهم . فكاد يرقص فرحاً . لكنه بكى عندما
انصرف الزيات في سبيله شاكراً لايه لطفه وكرمه .

= ٩ =

« نويت السفر في الغد ، من غير شر ؟ »

« نويت »

« ودبرت فرساً ؟ »

« دبرت اثنين ! »

« ولن الثاني ؟ »

= ٢٤ =

« لجبران . »

« لجبران ؟ لقد فقدت عقلك اذا كنت لا تمزح . »

« لا . لست امزح . »

« وكيف لولد عمره احدى عشرة سنة ان يتجول في وعور هذه الجبال على ظهر فرس وان ينام في خيام البدو وبين الماعز والاغنام ومع القمل والبراغيث ؟ ام انت تريد ان تدربه منذ الآن في الطريق التي سلكتها بالتزام عدد الاغنام والماعز ، وتظلم اصحابها ورعاتها ، ليشبع سنة ويجوع اثنتين ، ويقضي حياته فقيراً كما نحن فقراء ؟ »

« بل اريد ان اعلمه منذ الآن ان قرصة البرغوث والقملة لدغدة لطيفة بالنسبة لقرصات لسان امه . وان يعر الماعز والغنم لاطهر من جواهر الناس . وخيمة البدوي لأشرف من قصورهم . وبعد ذلك ، ان كنت تعرفين له طريقاً أكثر كسباً وسهولة من طريق ابيه فدلّيه عليها . »

وادی الجدال الى خصام بين الوالدين اشترك فيه الاولاد . فاخذ بطرس جانب امه والابنتان الصغيرتان جانب والدهما . وبقي جبران على الحياد لانه كان يجب امه حتى العبادة ، ولم يشأ ان يغضب اياه خوفاً من ان يحرم السفر معه في الغد . وانتهى الامر بان العشاء الذي كانوا قد جلسوا يتناولونه على صينية مستديرة محوكة من قش الحنطة ظل كما كان . فعاد الحبز الى « المعجن » والطحين الى القدر . وبرزت الفية العرق من مخدعها فنقل ابو جبران بعض ما في جوفها الى جوفه - ولم يسافر في الغد

= ١٠ =

عاد بطرس الى البيت عصر ذات يوم فوجد امه وحدها ودموعها تترقق على خديها . وقبل ان يفوه بكلمة بادرت به بقولها :

= ٢٥ =

« لا تخف يا بني ، لا تخف . هو القلب يضيق به الصدر في بعض
 الاحايين فيهرب من العينين . ومتى كان الصدر صدر ام فيا ويل قلبها ،
 ويا ويل عينيها . انت مصرّ على السفر الى امير كما منذ سنين ، وانا وقفت في
 سبيلك حتى الآن . اما اليوم فقد فكرت طويلاً وصلت لربي طويلاً .
 وعرفت انك مصيب في عزمك . فلا حياة ولا مستقبل لك هنا . وها انت
 بلغت سن الرشد . فانا اقول لك « بحفظ الله . » انما استطأ رجلي ظهر الباخرة
 قبل رجلك . وسيكون اخوك جبران واختاك مريانا وسلطانة معنا .
 اما هو - هو يبق هنا . وسنفعل كل ما في طاقنا لنجعل حياته هنيئة وسهلة .
 فهو ، كما تعرف ، تهمة سيكارته وقهوته وكأسه اكثر من كل شيء . »
 « اذا وفقني الرب يا امي فسيكارته لن تنطفيء وقهوته لن تنقطع
 وقده لن يفرغ . فانا أحبه بالرغم من كل ما سببه لك من الم . وسينال
 جبران قسطه من العلم . ومثله مريانا وسلطانة . وستكونين انت معزة
 مكرمة . وسندفن الفقر باذن الله . »

« وفقك الله يا ابني . وفقنا الله جميعنا . ان قلبي يثقت عليه . فهو
 سيقى هنا كوتدٍ ولا اطناب مشدودة به . ولكن ما العمل ؟ ما الحيلة وقد
 هرب مني الصبر ؟ انني اخشى هذه السفرة يا بطرس من يدري متى نعود ؟
 وقد لا نعود الى بلادنا . داخل البحر مفقود ، والخارج منه مولود . لقد
 انكلت على الله يا ابني . فاتكل عليه معي . »

« لا تخافي يا امي . ففي بوسطن حيث نحن ذاهبون عدد غير قليل
 من ابناء بشرتي . نحن نعرفهم وهم يعرفوننا . وسيسهلون لنا السبيل في
 بادى الامر . »

وجف دمع الوالدة وتوشع وجهها النحيل بسحابة من آلام ما كان ومخاوف

ما سيكون . اما بطرس فمشت في عروقه عزيمة سنيه الثماني عشرة . ونفشت
في وجهه الناعم حمرة الشباب العذر . وانقادت عيناه الواسعتان بنور الأمل
المكتم . وراقه ان اصبح في عين امه رجلاً تلقى عليه مسؤولية الرجال . ولم
يخطر له ولا لأمه ببال انهما ، حتى ولو شاءا ، لما تمكنا من ان يجيدا عن
الخطئة التي رسماها قيد شعرة . وان ما ندعوه « قضاء » ليس الا ما تقضيه
على انفسنا ، كل حسب اعماله في هذه الحياة وما سبقها . وانهما في ما اخطأه
لنفسيهما كانا بتمان مشيئات عديدة غير مشيئتهما ، وكلها مقنع ومكتوم .
ومنها مشيئة الحياة التي لم يبصرا منها حتى ذلك الحين الا اثنتي عشرة سنة
برموزها المبهمة ، وانوارها المتحجبة ، واظلالها المتنقلة - وهي حياة جبران

خيالات بوسطن

لبوسطن «روح» تمتاز بها عن كل مدن الولايات المتحدة . فهي اذا نُسبت الى بعض مدن العالم القديمة ، مثل دمشق واورشليم ورومة ، كانت طفلة بنت يوم ، بل بنت ساعة . غير انها بين مدن الولايات المتحدة من اقدمها وهي تباهي كل المباهاة بقدمها . حتى اذا عيرها احد بازقتها الضيقة الملتوية دلته في الحال على ما فيها من آثار تاريخية تعود الى الثورة وما قبلها وبعدها واذا نافستها مدينة جديدة بعدد سكانها اشارت الى عدد كبير من ابنائها الذين كان لهم بعد اثر في تحرير البلاد ، وتوجيه سياستها ، وتدريب حياتها الداخلية والخارجية . وهي تفاخر بلقبها «مدينة العلم» ففيها من المعاهد العلمية والفنية ما ليس في سواها . وقد انجبت نفراً من خيرة الكتاب والشعراء والفلاسفة في اميركا . وهي ضنيّة بسمعتها ، شديدة الحرص على ثقافتها . وقد بلغ بها حرصها هذا حدّاً اصبح معه حياتها خليطاً من التقاليد المتحجرة والكبرياء الفارغة . فمن اكبر مفاخرها ان فيها دماً انجلوسكسونياً اكثر مما في سواها من مدن اميركا . وانها لم تمزج هذا الدم بدم اجنبي الى حد ما فعلته اخواتها . فمدينة كنيويورك او شيكاغو ليست اميركية في نظرها ، وان تكن في اميركا . فالاميركيون في عرفها انواع ثلاثة : — اصلاء وشبه اصلاء ودخلاء . اما الاصلاء فهم سلالة الذين نزحوا اولاً من بلاد الانكليز — وهولاندة — الى اميركا الشمالية . وفي مقدمتهم «الحجاج» الذين قطعوا المحيط الاطلنطيكي على مركب شراعي يدعى «مايفلور»

واستعمروا مقاطعة « انكلترا الجديدة » (نيوانكلند) في الشمال الشرقي من البلاد التي أصبحت فيما بعد الولايات المتحدة . حتى ان اعظم شرف تدعيه عائلة امير كية اليوم هو رد نسبها الى احد اولئك الحجاج . وقد تضخم عدد هؤلاء « الاشراف » - وبالاخص في بوسطن وجوارها - الى حد ان الاسطول الانكليزي بمجموعه يكاد لا يقل في عام ١٩٣٤ ما اقله ذلك المركب الشراعي في عام ١٦٩٢ من اسلاف « شرفاء » اميركا اليوم - اذا صدق ادعاء كل المدعين !

وشبه الاصلاء هم الذين نزحوا قبيل الثورة وبعدها من اوربا الشمالية بما فيه المانيا والدانمرك واسوج ونروج . اما الدخلاء فهم المهاجرون الذين اخذت جيوشهم ثدق على الولايات منذ منتصف القرن الماضي ما بين يهود وايتاليان ومجر وسلاف وسورين وسواهم . وهم محنقون جداً في نظر الاصلاء واكل احتقاراً في نظر شبه الاصلاء .

في بوسطن احياء مختلفة لمختلف الاميركيين الدخلاء . وكلها حقير وقذر . واحقرها واقدرها حي الصينيين . مرت فيه يوماً في صيف سنة ١٩٢٥ فكدت اضع منديلاً على انفي لشدة الروائح المتصاعدة من كوم الاقدار الملقية في الشوارع وفيها قشور البطيخ والليمون والموز وفضلات المطابخ السابجة في بحيرات صغيرة من السوائل القاذرة . وللذباب عليها اعراس ومهرجانات . وللكلاب فيها صيد وفير . وعن جانبيها بيوت كالحة الجدران عابسة المداخل تطل عليك من بعض نوافذها قمصان وكسونات وكسبات تثشف في الهواء ان عزت الشمس . وامامها صبية وبنات من صينيين وسورين وارلنديين يلعبون ويتشائمون ويتشاجرون

ذلك هو الحي الذي اختاره في بدء هجرتهم اكثر السورين الذين

قصدا بوسطن للارتزاق . فجاورت فيه نارجيله التنباك نارجيله الافيون ،
وكان بينهما ما يكون بين الجيران . ولك ان تصور لنفسك هذا الحي كيف
كان في عام ١٨٩٥ حين حلت فيه كامله رحمه جبران مع اولادها الاربعة .

= 1 =

« جبران . قم يا ولدي ، قم . كفاك درساً »

« وماذا تطبخين لنا عشاء يا امي ؟ »

« مجدّره ، يا روح امك . انت تحب المجدرة . »

« كل ما تطبخينه يا امي لذيد . وكل ما تصنعينه حسن . سلم

الله يدبك . »

« ما كان ابوك يقول كذلك . واخوتك كثيراً ما يتذمرون من

طبخي . »

« مالك ولأبي واخوتي . عندك جبران وكفى . »

« ما بالك تنسى اخاك بطرس ؟ »

« وعندك بطرس وهو سيمع لنا مالاً كثيراً . كنت في مخزنه بعد

انصرافي من المدرسة فباع وانا هناك قيصاً بدولار وبرنيطة بدولارين .

بطرس سيكون غنياً . وسعود الى بشرّي فبنيت بيتاً كبيراً . وسنجملك

سيندة ونأتيك بخدم كثيرين . »

« ادامكم الله لي يا بني . فاننا راضية ما زلتم معافين . العافية خير من المال . »

« وسأكتب انا روايات كالتي اقرأها الان . »

« وماذا تقرأ الآن ؟ »

« كوخ العم طام »

« بالانكليزية ؟ »

« أبالعربية اذن ؟ طبعاً بالانكليزية »

« ليكن الصليب سياجك يا ابني . افي سنتين حفظت الانكليزية الى ان اصبحت قادراً على قراءة كتاب كبير كهذا الكتاب ؟ »

« معلتي الانكليزية تحبني كثيراً . وهي التي تسميني « خليل » لانها تستهجن ان يكون اسمي الاول كاسمي الاخير . وقد اعطتني اليوم هذه الرواية . ما ابشع الناس يا ابي واظلمهم . ويا ليت لك ان تقرأ حكاية العم طام وكم ذاق من ظلم الناس . ساقصها عليك عند ما انتهي منها . »

« لقد غيرت الحديث وانسيتني ما كان بخاطري ان اقله لك . وهو ان نترك كتابك وتخرج فتلعب قليلاً . من الكتاب في المدرسة الى الكتاب في البيت . ستهلك صحتك . »

« ومع من العب ؟ مع اولاد الصينيين ام الارلنديين ام السوربين ؟ ما اكثر السفهاء والاشقياء بينهم يا ابي - حتى بين البنات . وما اجمل اللسان النظيف والقلب النظيف . اني لا احسن حالاً في معتزل عنهم مع كتي ودفاتري واقلامي الرصاصية . فهي نقية طاهرة . »

« مع ذلك لا بأس لو خرجت وتمشيت ولو نصف ساعة . »

« او ما اخبرتك بما فعلته معلمة التصوير ؟ جاءت اليوم برجل قالت انه مصور - بصور بيده يا ابي لا بالآلة - وأرته بعض رسومي . فقال لي « انت فرخ مصور » ودعاني لزيارته في الغد . »

« وهل انت ذاهب ؟ »

« طبعاً »

« أو ما كان الافضل لك ولنا يا ابني لو ترددت في اوقات فراغك على مخزن اخيك ودرست تجارته لتصبح في المستقبل عوناً له بدلاً من ان تصرف وقتك في التصوير ومطالعة الروايات ؟ »

« يا للعيب ! أم جبران نقول هذا القول ؟ خنصر مصوّر يسوى الف تاجر يا امي . — ما عدا بطرس . وصفيحة من الشعر اثن من كل ما في المخازن من الانسجة . »

« لكننا في حاجة الى المال . »

« وسأتيك بالمال . لا تخافي . اذا قصر بطرس لن يقصر جبران . »

« ليحفظكم لي الرب يا ابني . »

= ٢ =

ما صدق جبران ان انتهت الصفوف بعد ظهر اليوم التالي جتى راح يفتش عن العنوان الذي اخذه امس من المصور . كان يمشي ولا يبصر الازقة وما فيها ومن فيها ، كانه محمول على سحابة ، وكأن خلف الباب الذي يقصده عالماً مملوءاً اسراراً ، والرجل الذي سيفتحه له سيكشف له السثار عن سر تلو الآخر . أولم يقرأ ويسمع كيف ان بعض مشاهير الفنانين ابتدأت شهرتهم الفنية عن يد انسان مجهول ساقته اليهم المقادير او ساقتهم المقادير اليه ؟ ولا شك في ان هذا المصور هو الرجل المقدور لجبران خليل جبران — هو ملاكه الحارس الذي سيفتح له ابواب الارض والسماء .

كان جبران يؤلف في فكره الحديث الذي سيدور بينه وبين المصور وابدأ ينتهي بان يترك المصور مشدوهاً بفزارة مواهبه ، وجميل منطقته ، وحسن مظهره ، وطيب اخلاقه ، هائفاً : « من كان مثلك حرام ان تضيع مواهبه بين اناس لا يعرفون لها قيمة . اني سأهتم بترييتك الفنية . وستكون

مصوراً عظيماً .» وكان خياله الفتي الخصب بورق ويزهر ويثمر برسوم مستقبل زاهر عند ما قرع الباب .

رحب المصور بزائره واخذ يده وقاده الى سيدة جالسة في كرسي على دكة خشبية صغيرة وقال لها : « هوذا الشاب السوري الذي اخبرتك عنه . وقد رأيت في رسومه قوة خيال غريبة وذوقاً فنياً دقيقاً .»

مدت السيدة يدها الى جبران فاخذها يده واحس بدمه يصعد الى وجهه ثم يهرب منه . وبرعشة تمشي في كل عروقه فتربط لسانه وتضغط على حلقومه . ونكس عينيه الى الارض لكيلا يرى صدر السيدة المكشوف حتى الثديين وذراعيها العاريتين حتى الكتفين .

« انت خجول يا مستر جبران . تقدم . تقدم واسمح لي ان اصابعي في شعرك الكستنائي الناعم . شعرك طويل كشعور الفنانين . اذن انت فنان منذ الآن . دعني اقبلك على جبهتك الجميلة — هكذا ، هكذا . بظني ان بلادك جميلة وكل اهلها اصحاب فنون . اليس كذلك ؟ انا احب الفن . لكن شغلي فيه حتى الآن لم يتعد جلوسني في هذا الكرسي لأصوّر لا لأصوّر . ما قولك في صورتي هذه ؟ انها لما تكتمل بعد . وقد اوشكت ان تكتمل .» — اشارت السيدة الى خامة على المنصب لا يزال دهانها رطباً .

عند ذاك رفع جبران عينيه الى الخامة وقال وكأنه بما قاله شاء ان ينقم من محدثته لانها عاملته كما لو كان صبيّاً صغيراً لا رجلاً مدرّكاً :

« لا تكتمل الصورة حتى من بعد ان يتركها المصور . نحن لا نصور الا بدايات او مقدمات . اما الصورة الكاملة فلا يبدعها الا الله .»
« كلامك اكبر من سنك . فكم عمرك يا مستر جبران ؟»

« اربع عشرة سنة . »

« لا غير ؟ »

« وشهران . »

« انت لم تعطني بعد رأيك في صورتي . قل رأيك بالتام . وانا اكفل ان صديقنا المصور لن يفتاظ ابداً . »

اخذ جبران ينقل عينيه من السيدة الى الخامة ومن الخامة الى السيدة وهو يكاد لا يبصر لا تلك ولا هذه ، لانه ظلّ حائقاً على نفسه كيف انقاد للسيدة فتر كها تداعب شعره وتقبله على جبينه . ولو انه كان الرجل الذي يعتقد لما تجرأت السيدة ان تفعل به ما فعلت . لقد كان من الواجب ان يريها بتصرفه وحديثه انه ليس صبيّاً بعد ، وها هي تسأله رأيه في صورتها فهل يجيبها ام لا ؟ الافضل الا يجيبها لتعلم انه ليس طوع بناتها وانه — كرجل — له الحق ان يتمرد . و كفتان — ان يحتفظ برأيه لنفسه . ولكن ، اليس من الانسب ان يعطيها جواباً يدهشها ويدهش المصور فيبرهن لهما انه ليس الصبي الذي يعتقدان . وانه ، على حداثة سنه ، ذو قدم راسخة في الفن ؟ غير انه لم يهتد الى جواب يرضيه لانه كان يفكر بالسيدة التي امامه : ترى كم عمرها ؟ خمس وعشرون ؟ اكثر . ثلاثون ؟ هي اقرب الى الثلاثين منها الى الخمس والعشرين . لكنها فتاة وما اجل الالفه الفنية بين ثوبها الخمي الارجواني وبشرتها المشربة بالدم والمائلة الى السمرة .

« انا بانتظار جوابك يا مستر جبران . »

يسمع جبران في صوتها لهجة الكبير يداعب الصغير او يتلطف معه . فيزداد حنقاً على نفسه وعلى السيدة . لكن لسانه يتحرك بغير ارادته فيجيبها بمجد :

« سأقول رأيي عند ما تكتمل الصورة . »
 « حسن جداً . ستكون الصورة عندي غداً . فهلاً تكرمتم عليّ
 بزيارة ؟ تعال من كل بد . سانتظرك عند الساعة الرابعة بعد الظهر .
 واليك عنواني . »

= ٣ =

خرج جبران من عند المصور وفي جيبه ورقة عليها اسم السيدة وعنوانها
 وفي يده رزمة من اقلام الرصاص الملونة اهداها اليه المصور « تذكاراً
 لزيارته » . وفي رأسه خيالات غير التي رافقته من المدرسة الى الباب المجهول
 فقد تبين له ان المصور ليس ملاك الحارس أفلا يمكن ان تكون السيدة
 التي لاقاها عنده ذلك الملاك ؟ لكنها اظهرت شيئاً من « السماجة » في بدء
 حديثها معه . كيفما كان الامر ، هناك باب جديد بطرقه في الغد . ولعله
 الباب المؤدي الى فردوس احلامه .

في تلك الليلة ، وهم يتناولون العشاء ، قص جبران على اهل بيته ما كان
 له عند المصور .

« المصور لا بأس به كمصور . وكرجل هو لطيف للغاية . لقد دعاني
 ان اجلس له . . . »

« ان تجلس له ؟ وما معنى ذلك يا ابني ؟ »

« معنى ذلك يا امي ان اجلس امامه مثلاً يريدني ان اجلس ليصورني
 مثلاً يريد ان يصورني . »

« يصورك ؟ ما لنا وللصور يا ابني . ومن اين نأتي بالمال لن دفع

ثمن الصور ؟ »

« لا يا امي . لا . انت لا تفهمين من التصوير اكثر مما افهم من التزكيات . »

المصور يحتاج الى رجال ونساء من كل الاعمار والاشكال ليستعين بهم على تصوير ما في خاطره . مثلاً : لو اردت ان اصور مريم العذراء - وانا قط لم ار مريم العذراء - فقد اصورك ، لكن بالثياب التي اختارها . وقد اصورك واقفة او جالسة ، او منحنية - باسمه او باكية - وقد اختار ان اصور على ذراعيك طفلاً - حسبما يوحيه خيالي . افهمت الآن ؟ »

« ليتني لا اعيش لافهم . »

« وهكذا فسأجلس انا لهذا المصور عندما يدعوني . وقد وعد ان

يعطيني ادهاناً زيتية بديلاً من الاجر . »

« ليته يعطيك نقداً . »

« فاشترى بالنقد ادهاناً . وهكذا اظل حيث انا . »

« اهذا كل ما فعلته في غيبتك الطويلة ؟ » - السؤال من بطرس .

« لم اخبركم عن الالم بعد . والالم هو اني النقيت هناك سيدة هي من

اشرف اشراف بوسطن ومن الامير كيين الاصلاء الاصلاء . وهي بلاشك

من اكبر الاغنياء . وقد احبت ان تطلع على رسومي . فدعنتني لزيارتها في

الغد . »

هنا انتهت السؤالات على جبران بغير انتظام ومن كل واحد من افراد

العائلة :

مريانا - اصبية هي ام عجوز ؟

« تقارب الثلاثين . »

الأم - امتزوجة ام عازبة ؟

« لا اعرف ولا يهمني ان اعرف . »

سلطانة - اجيلة هي ؟

« جميلة جداً »

مريانا — وما اسمها ؟

« ذاك سر »

بطرس وامه معاً — أو ذاهب انت لعلها غداً ؟

« طبعاً »

وهبطت على الكل سكينه عميقة احس معها جبران بمرارة لتفشي في
دمه . فنهض عن كرسيه وضرب الطاولة يده قائلاً : « حتى متى ننظرون
الى نظر كم الى صبي جاهل ؟ انا اليوم رجل ولي الحق ان افعل ما اشاء واذهب
حيث اشاء . اتظنون اني قاصر عن الدفاع عن نفسي واني لا اعرف الصلاح
من الطلاح ؟ »

فقالت امه بصوت حنون مخنوق :

« وقانا الله يا ابني ساعة التجربة »

« انا اكبر من التجربة . وقد اخطأت عندما اخبرتكم ما اخبرتكم عن

هذه السيدة »

ولو كان لغريب ان يراه ويسمعه في تلك الحالة لعجب لجل صغير يقلد

بثغائه زأر الاسد

= ٤ =

« اهلاً وسهلاً بصدقي اللبناني . لقد جئت — ولا بأس . ولو كنت

اعرف رقم تلفونك لتلفت لك ان ترجي زيارتك الى الغد . لانني نهضت

اليوم بصداع اليم في رأسي . فلزمت فراشي طول النهار . لذلك تراني كما

انا — في قميص النوم والكيمونا . فاعذري . واعذري اذا ما استقبلتك في

مخدعي ، لاني اكون اكثر ارتياحاً اذا اتكأت في فراشي . وانت لا شك

= ٣٧ =

تريد لي الراحة . ومن ثم فالصورة - صورتي - معلقة على جدار مخدعي .
ففعال معي وقل لي لماذا لم تعطني رأيك فيها البارحة . ولعلك تفعل اليوم
ما لم تفعله امس »

وقادت صاحبة البيت زائرها الى مخدعها واجلسته في كرسي كبير من
الحرير . وهو يهم بالاعتذار والانصراف .
« قد يكون من الافضل يا سيدتي لو تركتك الآن وعدت
في الغد . »

« لا . لا . انت هنا الآن . ولعل صداعي يذهب بوجودك معي . فقد
بدأ يخف . وبيننا حديث طويل . فانت شرقي وانا احب الشرق وما فيه من
سحر ابدي . فكيف به اذا اتحد ذلك السحر بسحر الفن ؟ وها انا ، اكراماً
لقدومك ، ساحرق لك بخوراً شرقياً . »

وجاءت بمجمرة من الفضة في شكل ثنين ورشت فيها مسحوقاً من خشب
الصندل واشعلته بثقاب . فتصاعد دخانه الابيض العطري وامتزج بما في الغرفة
من عطور . ثم وثبت الى سريرها وانكأت بكوعها على وسادتها سائدة
رأسها بيدها ، وقد استرسل شعرها الاسود اللامع ، بعضه على صدرها
والبعض على زندها العارية . واشرق في عينيها السوداوين الواسعتين نور لم
يره زائرها من قبل .

« اعذر ما بدا مني البارحة . فانا لن العب اليوم بشعرك ، ولن اقبلك
على جبهتك . وهات قل رأيك في الصورة قبل كل شيء . »

« تمنيت لو قام ليوناردو من قبره ليصورك . اذن لما اعطاك عيني نجمة
قريبة ، بل عيني نسر جريح . ولما اطبق شفتيك على بسملة الورد للشمس ،
وفي قلبها قطرة من اجفان الفجر . بل على بسملة الورد وقد طارت من قلبها

لؤلؤة الصباح . اني لارى في وجهك حزناً ليس في الصورة . وقناعاً من
من الغبطة الكاذبة يبدو في الصورة حقيقة راهنة .»

« انك لشاعر وفنان وساحر في وقت واحد . فمن اطلعك على اسرار
حياتي . ومن انباك ان اهلي زوجوني من تاجر جلود طمعاً بماله فافلس بعد
زواجنا بشهرين . وانه يزيدي سنّاً باكثير من عشرين سنة . وانه لا يعرف
من العالم الا جلود البقر والماعز والغنم . واني قد قضيت في بيته عشر سنوات
هي عشرة دهور من الالم والمرارة ؟ هنيئاً لمن يقع في هذه الدنيا على قلب
يفهم قلبه . انها لا كبر غبطة يا صديقي . واراك ، بالرغم من سنك ،
صاحب قلب فهم . صدق ان هذا البيت لقبر لي . اقترب مني قليلاً .
اقترب . ودعني اضع يدي في يدك لعلي اكتب من شعرك وفنك
وسحرك ما ينسيني الذي انا فيه .»

« او يحور زوجك عليك كثيراً ؟ »

« يعاملني كما لو كنت حظية عنده اشتراها بماله . وانا في الواقع حظية
وقد ابتاعني بماله . ولو كان بإمكانه لما سمح لي بالخروج من البيت . ولكن
دعنا منه . وهات حدثني عنك وعن شرقك الجميل .»

« واين زوجك الآن ؟ »

« لقد جدد تجارته منذ عامين وهو الآن في مكتبه وعنده الليلة امور
وجلسات هامة لن يتخلص منها قبل نصف الليل . حاولت كثيراً ان ألبسه
جلد انسان بدلاً من جلد ثور ، وان الين من اطباعه الشرسة ، فلم ينلني من
ذلك سوى الوجع المبرح - وجع الجسم ووجع الروح . وما صداعي اليوم
الا نتيجة معركة جرت بيني وبينه في هذا الصباح .»

« وهل خف صداعك الآن ؟ »

« لقد كدتَ تزيله بما لقيته فيك من جميل الحس وطيب الادراك .
ولعلك لو وضعت يدك على جبتي لزال ما تبقى في رأسي من وجع . اقترب
مني قليلاً . اقترب . »

وارتفع صدر السيدة بشهدة عميقة ، ولمعت في عينيها دمعتان . وللحال
اجابتهما عينا جليسا بالمثل . وكان سكوت .

« لست اهلاً لدمعة من دموعك يا صديقي . وقد كان الاولى بي ان
الجم لساني وابقي الي دفيناً في قلبي مثلاً كان كل هذه الاعوام . فاعذرني . »
« منذ اليوم اصبح أملك ألي . »

« ما احنَّ قلبك واجل روحك - وما اضعف النساء ! اني لاشعر
بثقل على صدري ، وضغط في خنجرتي ، ودوخة في رأسي - اقترب مني
قليلاً اقترب »



ودّع جبران « ملاكه الحارس » نحو الساعة الحادية عشرة من الليل
ومعها ودّع صباه وغفة الصبا وطهارته . واحس عند خروجه من ذلك البيت
كانه خارج من أتون . وكأن كل قطرة من دمه قد تحولت الى جرة
ملتهبة ، وهو لا بدري كيف يهرب منها وبماذا يبرّدها . لكنه ما مشى
بضع خطوات في الشارع حتى تحول اللهب في داخله الى قشعريرة اشمئزاز
وندم . وراح يؤنب نفسه تأنيباً موجعاً . وتذكر كلمات امه « وقانا الله
ساعة التجربة » وجوابه لها انه اكبر من التجربة . « بلى . انا اكبر من
التجربة . ولن اقترب من امرأة فيما بعد الا التي اختارها زوجة لي . وسأخبرها
بزلتي هذه . - التجربة . الزلة . - ما هي التجربة ؟ ما هي الزلة ؟ الزلة هي ان
تسمع استغاثة قلب ولا تغيثه . والتجربة ان يدعوك الحب لتقدم نفسك محرقة

على مذبحه فلا تقدمها . أأتركها فريسة لتاجر الجلود ؟ لله ما أجملها ! ولقد
اختارتني من بين كل ما في بوسطن - بل في العالم - من رجال . فما
أسعدني ! » وعادت النار تشب في داخله فلا تلبث ان تنقلب الى قشعريرة
وهكذا بين اللهب والقشعريرة بلغ بيته ، وبخطوات كأنها خطوات خيال
صعد السلم الخشبي اللولبي المظلم الى الطبقة الرابعة - وهي الاخيرة - حيث
كان يسكن مع عائلته . وكان كلما صعد درجة يردد كلمات امه « وقانا الله
ساعة التجربة . »

كان من في البيت قد ناموا - الا امه . فهي كانت تنتظره في ردهة
الاستقبال الصغيرة التي كانت غرفة مائدة كذلك . وما احسّت بوطأته على
الدرج حتى هبت الى الباب ففتحته . وما وقع نظرها على ابنها حتى شعرت
بغربة تقصيصها عنه ما شعرت قط بمثلها من قبل .

« جبران . اطلت غيبتك عنا هذه المرة اكثر من كل مرة يا ابني .
انتظرناك للعشاء حتى الثامنة . وقد طبخت لك طبخة تحبها . شغلت بالنا كثيراً
كثيراً . هل تعشيت يا روجي ؟ »

« ما معنى شغل البال يا امي ؟ هل انا طفل ؟ انني رجل واكره ان اقدم
حساباً لاحد - حتى لامي - عن كل خطوة اخطوها . »

« هل آتيك بالعشاء يا روح امك ؟ »

« لا فقد تعشيت . »

« عندها ؟ »

« نعم . عندها . »

« كنت واياها لا غير ؟ »

« بل كان رهط من عليّة القوم واشهر الفنانين في بوسطن . »

« وزوجها كذلك ؟ »

« لم ار زوجها . ولا اعرف اذا كان لها زوج . »

« اهي جميلة جداً ؟ »

« اذا كان لك حديث عن غيرها يا امي فهاتي نتحدث . والا فالنوم

افضل . »

« قم الى فراشك يا عين امك . واجتهد ان لا توقظ اخاك بطرس .

فهو - واولداه - تعبان . وقد نام باكراً ولم يأكل غير لقمة او لقمتين . »

= ٦ =

مرَّ عام مزدحم بالزيارات السريَّة الى البيت السري . وباللذة واللام .

فقد ظن جبران في بادئ الامر - عندما قطف الثمرة المحرَّمة - ان بإمكانه

ان يأكل حلالها دون حرامها ، وان يتذوق حلاوتها دون مرارتها . ولعله

لم يفكر في حلالها وحرامها على الاطلاق . بل كان يربّت نفسه لتوصله -

في سنه - الى ما يشتهيهِ الكثير من الرجال ولا يدركونه . غير انه عندما

شعر بالمرارة واحب ان يطرح الثمرة من يده وجد بذورها في كل نقطة من

دمه ، ووجد انه اذا طرحها سي طرح معها قلبه . فازداد تعلقاً بها واعتقاداً بان

المرارة ليست فيها بل في الذين حرموها . وبكل ما في فكره الفتي من حماسة

وفي خياله من هيب ، راح يعالج في نفسه شرائع البشر وقوانينهم ، وبالاخص

ما تعلق منها بالزواج . فيراها زردات من فولاذ قاس ، لا قلب لها ولا خيال

وقد حبك الجهل منها شبكة هائلة لكل من له خيال نخياله وقلب كقلبه .

لكن التكتّم اصبح جراباً من الحيات والعقارب يتوسده في نومه فيعكر

عليه احلامه . ولماذا التكتّم ؟ خوفاً من الفضيحة . واني المهرب من الفضيحة ؟

بالتكتّم . انها لدائرة مسحورة ومن الواجب تحطيم حلقاتها كيما يتحرر الناس

من سحرها وهو سيكرس حياته لذلك الواجب حباً بالانسانية المتألّمة . ولكن
في التّسكّم لذّة الجهاد . فلا يتسكّم الا من في قلبه سر عميق . ولا يحمل في
قلبه سرّاً عميقاً الا من كان رجلاً كبيراً . وها هو - جبران - يحمل في
قلبه سرّاً عميقاً والعالم كله يحاول انتزاعه منه . فهل يقوى عليه العالم ؟ معاذ الله
انه لا يقوى من العالم .

على وقع هذه الافكار وامثالها كانت خطوات جبران تتسارع في
اول الليل الى البيت السري . وما ان ادرك الباب ورفع يده ليكبس زر
الجرس الكهربائي حتى رأى خلفه - على ضوء مصباح الشارع - رجلاً
طويل القامة ممثلياً ، حليق الوجه ، لطيف المعاني ، لا يزيد عمره على الخمسة
والثلاثين . وقد تأبط محفظة جميلة من الجلد الاسود

« ساريحك يا سيدي من دق الجرس » - واخرج الرجل مفتاحاً من
جيبه وفتح الباب وقال لجبران بصوت كله لطف وتأدّب :
« نفضل يا سيدي وادخل »

دخل جبران متردداً ، مضطرباً ، ودخل وراءه الرجل ونادى صاحبة
البيت باسمها فكانت امامه بلحظة . وارتمت على عنقه قبله ، وقد امنّعت لونها
وهي تحاول ان تستر رعشتها ودهشتها :

« ماذا جرى يا عزيزي - ماذا جرى ؟ »

« لا تجزعي . لقد نسيت محفظة الدراهم . فعدت في الحال من المحطة .

امرعي اليّ بها قبل ان يفوتني القطار . »

بخاءته بها وقالت وهي تناوله اياها :

« لقد اصبحت كثير النسيان في هذه الايام يا عزيزي . وقد تسربت

العدوى منك اليّ . فقد انسيتني بلهفتك وشرعتك ان اسلم على المستر جبران .

وان اعرفك اليه . فهو فنان شرقي النقيته امس عند بعض الاصدقاء . وقد
تلطف الليلة وجاء يحدثني عن فنه . هذا زوجي يا مستر جبران .
« اني لسعيد بمعرفتك يا مستر جبران . وكنت اتمنى لو لم اكن مضطراً
الى السفر لاعرفك افضل من هذه المعرفة القصيرة . فاعذرني ، والى اللقاء
القريب ان شاء الله . »

وقبل الرجل زوجته وانصرف .

= V =

بعد شهر من تلك الليلة كان دخان الصندل يتصاعد من فم التين الفضي
فيتكاثف لحظة ثم يكاد يتقلص ، ويلتوي هنا ، ثم يستقيم هناك ، وجبران
يرقب رقصته الهادئة وينفخ فيه بين الفترة والفترة من دخان سيكارته
فتكون من مزيج الاثنين الوان وخيالات غريبة . وكان في الغرفة
صمت عميق .

« الى م تعذبني يا خليل ؟ »

« لا تسميني فيما بعد « خليل » اسمي المستر جبران . »

« ما كنت اظنك حقوداً قاسياً الى هذا الحد . ألا في قلت في صورتي
الزيتية ، التي كانت سبب تعارفنا ، انها اجمل من صورتي التي رسمتها انت
بقلم رصاص ، تمزق ما رسمت وتنفعل بي ما فعلت ؟ »

« لم افعل جزءاً من مائة مما كان من الواجب ان افعل . انت لا تفهمين
من الفن شيئاً ولا تميزين بين رأسه وذنبه . لقد صورتك شفافة كروح ،
جميلة كخيال ، بعيدة كحلم . صورتك مثلاً اراك بعين حبي . فاستغربت الصورة
لأنك من تراب ولا تبصرين نفسك الابعين من تراب . ومن كان من
تراب لا يعرف العذاب . فبأي لسان نقولين اني اعذبك ؟ اما صديقك الذي

صوّر هذه الصورة ، والذي تفاخرين بصداقته وتعظيم فيه ، فهو لا يفهم
من الفن أكثر مما نفهمين . فالحقي به ودعيني وشأني .»

« عيب عليك ان تقول ذلك . وللرجل مقامه وشهرته في عالم الفن .
ولعلك متى بلغت سنه ، وحويت اختباره ، تكون اعظم منه . اما الآن
فانت ما تزال في اول عمرك . . . »

« في بنصري من الفن أكثر مما في كل رأسه . ومن ثم فاعلمي انني
أكبر منك ومنه . وانك ان كنت لا تزالين تحسبيني صبياً فبقدرتي ان
اريك كيف تستغني الرجال عن النساء .»

« اما انا فاريك كيف لا تستغني النساء عن الرجال .»
ومد « الملاك الحارس » جناحيه وغمر بهما « محروسه » . وكان
سكوت ، تلتله دموع . وكان عتاب ، تلاه انقلاب .
« لقد انسيتني المهم المهم ، وهو سفرك الى لبنان . افلا مردّ لما
اقرّه اهلك ؟ »

« قلت لك ان رأي اهل رأبي . ولولا ذلك لما اقدمت على السفر .
فانا اكاد لا اعرف من لغة اجدادي الا ألفها وباءها . ولا اعرف من بلادي
غير مسقط رأسي . ومن الضروري لي ان ادخل مدرسة في بيروت لا تعلم
لغتي في الاقل . واتعرف الى بلادي .»

« قد يكون قصد اهلك من ذلك اقضاءك عني . لقد نجحوا . لقد
نجحوا . فستنسائي يا خليل . ستنسائي .»

« ان نسيتك فلتنسني يميني »

« لقد اعطيتني زهرة شبابك يا خليل — لقد اعطيتني رجولتك .»

« بل لقد اعطيتني رجولتي .»

هدية الموت

في شمس نيسان سحر ليس تعرفه بقية الشهور، لا سيما في المدن المكتظة بالسكان مثل نيويورك ولندن وباريس، حيث يقضي الناس الشتاء وكأنهم في حصار. اما العدو المحاصر فهو البرد. واما عساكره فالعواصف والثلوج والامطار والغيوم العابسة الغضوبة. وهو عدو لا يكف عن المهاجمة ولا تصدّه الجدران الغليظة. بل يدخل على الناس في منازلهم ومعابدهم ومصانعهم والابواب مقفلة والنوافذ مغلقة. وحيثما است اصابه الحفية اجسادهم تقهر الدم او تجمد. لذلك يكافونه بالنار والبخار والاحفّة الدافئة. واذا ما النقوه خارجاً نازلوه وعليهم دروع ثقيلة من الاكسية الكثيفة، وفي ارجلهم احذية من الجلد والمطاط تكاد تكون اغلالاً. وتراه، مع ذلك، يسد بالزكام انوفهم ويفتك في صدورهم وظهورهم ومفاصلهم. لكنهم عند ما تطل عليهم شمس نيسان يشعرون ان بجانبهم حليفة لا تقهر، وانهم سينالون الفرج عن يدها. فيفتحون لها نوافذهم، ويخرجون للاقاتها جليدين، ويطربون عند ما تغتسل وجوههم بذوب طاهر من اشعتها الدافئة. واذا ما احسوا فيها بلذعة برد قالوا هو عدونا ينقهر عنا ويعضنا عضته الاخيرة. لكنه قد شاخ ولا قوة بعد في انيابه.

كان الرابع من نيسان عام ١٩٠٢ وكانت الشمس تدغدغ مويجات نهر السين وتسكب على باريس سيولاً من النور الدافئ، فتبدو المدينة كلها، بيناياتها الكالحة المنخوقة بانفاس الشتاء، وشوارعها المنكشة

من ملابس البرد كأنها سجين أطلق سراحه ، او جبار كان في صدره
غصة وزالت . فالتاس من باريسين وغرباء ، كانوا يسرون في الشوارع
انهرأ وجداول ، تلاقى ، فتمتزج ، فنفتق . وفي سيرها خفة وسهولة . كأن
اغراضها المتضاربة اندغمت في غرض واحد . ومجاريها المتشعبة تحولت الى
مجرى واحد .

وعلى مقعد منفرد بالقرب من كائدرائية «نوتردام» كان شاب غريب
كأنه في خضم البشرية الباريسية نقطة من الزيت في بحر من الزئبق . عليه
ثياب تكاد تكون ثياب فقير لولا ما فيها من نظافة وهندام . ومن تحت قبعته
البنية قد تدلت خصل من شعره الكستنائي الطويل . وعيناه الثقيلتان
بالأهداب قد أطبقتا حتى نصفيهما كأن بهما نعاساً . وفي وجهه النضر كآبة
من يبصر غير ما يشتهي . او يشتهي غير ما يبصر . وكان يحدث
نفسه صامتاً :

« زحمتك السنون يا جبران . وهي مصيبة في ما تقول :— من كان
بطيء الخطى فليتنح من طريقنا .— وانت بطيء الخطى . فماذا فعلت حتى
اليوم ؟ وراءك عشرون عاماً — انها مقدمة طويلة للاشيء . كفالك تفرجاً مع
المتفرجين وآن لك ان تكون بين من يفرج عليهم المتفرجون . ليوناردو
لم يكن متفرجاً . ولا ميكلانجلو ولا بوتيتشيلي ولا تيتسيان ولا رمبراندت
ولا روبنس ولا فيلا كس . هوذا اللوفر — يأموه بالملايين من المشارق
والمغارب ليتفرجوا على من فيه من رجال الفن المعدودين . لكن من فيه
لا يهشون ولا يبشون . ولا يخرجون الى ازقة الناس ليتفرجوا على الناس ،
لانهم اعظم من الناس . لله ميكلانجلو ! يا ليثك ولدت في زمانه . اذن
لتوسلت اليه ان يسمح لك بالتلذذ عليه . ما كان اجمل الفن واسهل التقرب

من الفنانين في ذلك الزمان . وما أكثر العقبات في طريق من يرغب فيه
اليوم .

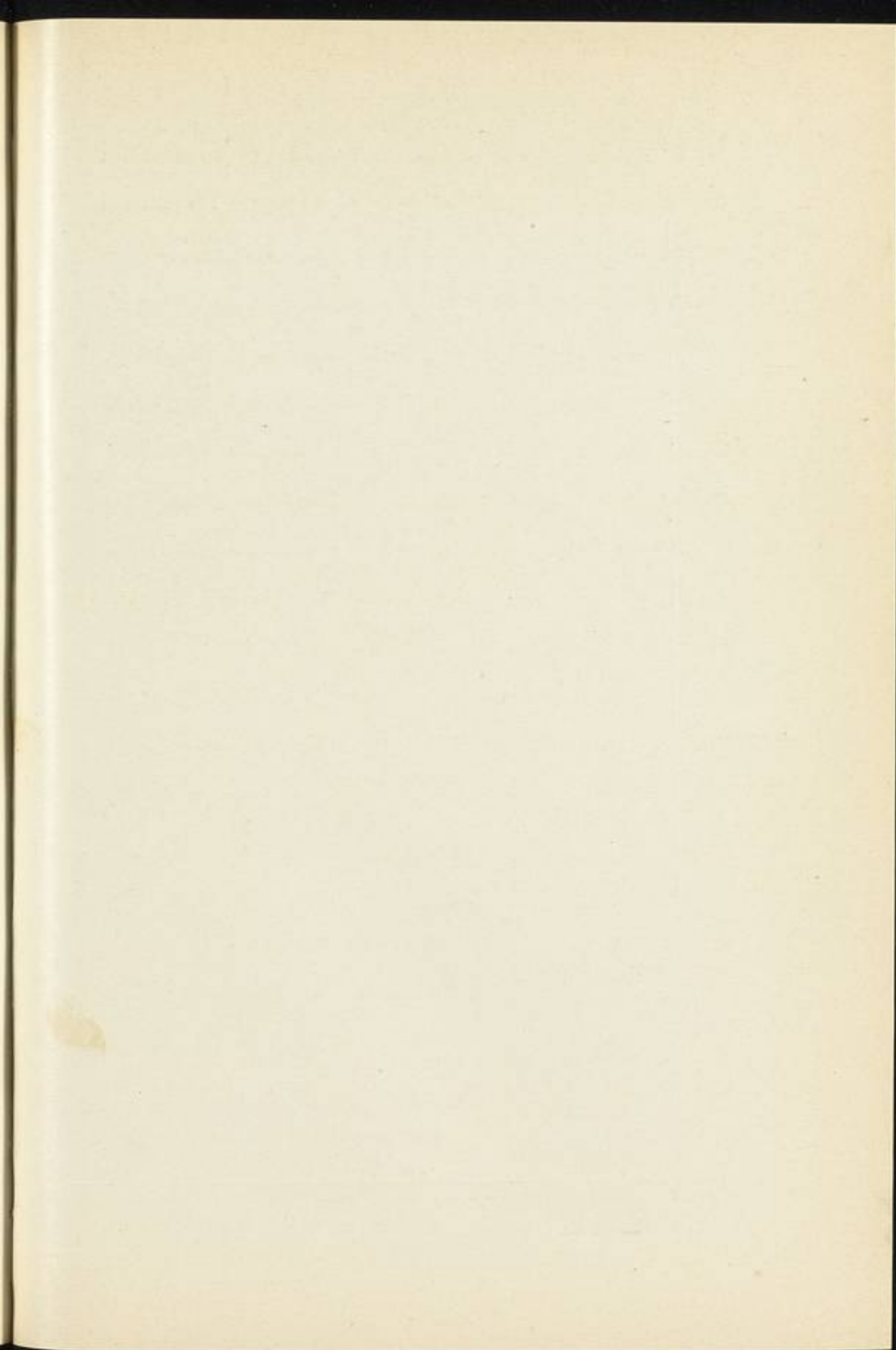
انت كثير الاحلام يا جبران . من اين تأتي بلال لندرس الفن كما
تشاء ان تدرسه ، وانت ما تزال عالة على سواك بدلاً من أن تعول سواك ؟
امك تشتغل ، واخوك يشتغل ، واختاك تشتغلان ليقوموا باودهم وأودك
واودايك . وابوك سلم ذقنه لشريك محتال فاضاع كل ما كان لديه من
قليل رزق ومال . وهو ، مع ذلك ، لا يفارق قهوته وسيكراته وقدحه .
مسكين ابوك ما اسلم نيته ، واقل تديره ، واطيب معشره . وما احسنه
رفيقاً في السفر — بعلبك . الهرمل . حمص حماه وسهولها وعاصيمها .
وصرود لبنان الشمالي وقراه . لولاه لما عرفت شيئاً من جمالها . وتلك الليلة
التي قضيتها واياه على « ظهر القضيبي » في خيمة رعاة الغنم ، والبدر والنجوم
من فوقك ، والاغنام الآمنة ، والتلال البيضاء من حوايك ، — والبحر تحت
قدميك — لله كم كان فيها من روعة ومن سحر !

فم الميزاب وبرج ايفل . نهر ابي علي والسين . نوتردام وديزمارسركيس
شوارع باريس ووادي قاديشا . اللوفر ومغارة قاديشا . الارز وغابات
بولونيا . بيروت وباريس . مدرسة الحكمة والسوربون ، — ما اغرب
هذه المقابلات !

اربع سنوات على مقاعد مدرسة الحكمة — ماذا نفعتك ؟ اشكر ربك
فقد نجوت من الصرف والنحو والمعاني والبيان والعروض والقوافي . وانك ،
وان فائتك قواعدها ، لم يفتك جوهرها . واشكر ربك فقد نجوت من
الصلوات في الصباح والمساء . وقد صليت في اربع سنوات ما يكفيك حتى
آخر حياتك . فانت لن تدخل كنيسة منذ الآن . لان يسوع الذي



جبران في مدرسة الحكمة



تجبه لن تجده في كنيسة قط . ما اكثر المعابد واقل المتعبدين . وما اوفر
الصلوات واقل المصلين !

هي كانت تعرف معنى الصلاة والعبادة . وهي كانت تعبد « بالحق
والروح » لانها كانت تعبد بقلبها ، وان كان عقلها في حوزة الكاهن .
آه ما اظلم الموت . وما اقسى تقاليد الناس ! يا ليتها بجانبك الآن . فقد كان
لك في كل بسمه من بسماتها النقية بلسم لكل جرح . وفي كل امسه من
اناملها الناعمة الطاهرة جناح لكل فكر . لقد وقاك الله « ساعة التجربة »
معها ، فصنت عفتها وعفتك ولم تُدنس سنواتها الست عشرة بشهوة .
ما اجل الحب اذا كان نظيفاً ! وما اعظم الفرق بينها وبين « الملاك الحارس »
ماذا نقول غداً « لملاك الحارس » اذا لاقيتها في بوسطن ؟ وماذا
عساها نقول فيك اذا عرفت انك هجرتها من اجل سواها ؟ لنقل ما تشاء ،
فهي ليست الملاك الحارس الذي كنت تحلم به . وهي من التراب وفي التراب
وللتراب ، وليس في استطاعتها ان تفهم حلاًماً من احلامك او تلبس شوقاً من
اشواقك .

ومن ذاتهم احلامك واشواقك يا جبران ؟ لا بد من ان يكون لك
ملاك حارس يفهمها فيقودك اليها . من هو ؟ من هي ؟ بلى . ففي قلب امك
الساذج محبة تفهم بالاشارة . وفي صدر اخيك بطرس ورأسه احلام وافكار
تكاد ترافق احلامك وافكارك . غير انه يسترها عن اعين الناس ، حتى
عن عينيه وعينيك ، كيما ينفرد بتحصيل الرزق لك ولذويه وذويك . اذا لم
يكن لك غير امك واخيك يا جبران لكفاك . لكن لك كذلك اختين
نبيهتين ، ومجتهدتين . فريانا تحصل مالاً من ثقب ابرتها . وسلطانة ؟ —
لقد تركتها فتاة في اول صباها وهي اليوم عروس في السادسة عشرة من

عمرها . ترى هل تعرفها عند ما تقابلها غداً في بوسطن وهل تعرفك ؟ بل هل يعرفك الباقون من اهل بيتك وجيرانك ؟ لقد تغيرت كثيراً في هذه السنوات الاربع التي قضيتها في لبنان . وقد اشتد بك الشوق الى اهلك . فانت لا تصدق متى تضمهم اليك ويضمونك اليهم . وانت عيب عليك ان تعود اليهم فارغ اليد . في جيبك كمية قليلة من المال اذا انت اقتصدت في نفقاتك فاض لديك منها نحو اربعة ريالات . فانهمض وابتع بها هدايا لاهلك ولتكن اجمل هدية لسلطانك .»

واخرج جبران محفظة صغيرة من جيبه وعدّ ما فيها من الدراهم . ثم نهض ومشى وهو لا يعرف اين يقصد وماذا يبتاع . وبجانبه مشى الموت حاملاً على ذراعيه روح اخته سلطانه التي كان قد تقبلها في تلك الساعة ، وراء المحيط ، هدية من يد الحياة . غير ان جبران لم يكن يبصر لرفيقه وجهاً ، ولا يسمع لقدميه وقعاً . بل كان يفكر في ما سيبتاعه هدية لاخته الصغيرة المحبوبة .

خيالات بوسطن

= ٨ =

دقت الساعة الثانية بعد نصف الليل والظلمة المخيمة في غرفة بطرس رحمه
واخيه جبران لم تسمع للنوم نفساً ولا حفيف جناح . وكان كلا الاخوين
اذا ما ثقل في سريره من جانب الى جانب فعل ذلك بهدوء وتحفظ خشية
ان يوقظ اخاه النائم على بعد ذراعين منه . واخيراً سمع بطرس نبهة بليلة
خارجة من تحت لحاف اخيه . فغاطبه همساً :

« جبران - يا اخي - يا روحي - انبكي حتى في مثل هذه الساعة من
الليل ، وانت منهوك من سفر البحر وفي حاجة الى النوم ؟ ثم ولو قليلاً . »
« الدموع لا تعرف الساعات يا بطرس . لقد ذرفت حصتك منها
فدعني اذرف حصتي . لست ابكي سلطانه وانما ابكي الله . فقد مات الله اذ
ماتت سلطانه . وقد نهشت رثيته مكروبات السل مثلما نهشت رثيتها .
وما ذاك غير الحق . فمن يمت بالنسل يمت بالسل . كما يؤخذ بالسيف من
ياخذ بالسيف . لقد كان لي رب وكان مصدوراً . وكنت ادأويه بعقاقير
الكنيسة وتعاويز اللاهوتين . واليوم قضى . ولن ينشر حتى في يوم النشر
بلى . بلى . لقد مات ربي عند ما امات سلطانه . فكيف احيا بعد اليوم
بغير رب ؟ »

« جبران — انت محبوم يا اخي ، انت سكران من الحزن والشعب .
لا نذكر كل ما تجهله »

« السل . السل . — جيوش خفية جرارة — جيوش الله الخفي
القدير يرسلها لتحتل صدر مخلوق من مخالقه ولتسترد منه في سنة او سنتين
نفساً نفخه فيه باقل من طرفة عين . ولتهدم في طرفة عين هيكلاً ظل
بنيه سنين . ماذا جنت سلطانه الطاهرة ليشن الله عليها مثل هذه الغارة ؟
ولماذا اختارها من بيننا ، وهي اقنانا ، وهي زنبقة مكمة ما يزال اريجها في
قلبها ؟ »

« قد لا يكون الموت قصاصاً يا اخي . وقد تكون في غفوة الموت
احلام اجمل من كل ما في صموة الحياة . من يدري ؟ »
« ولماذا اختار لها هذه الميتة من بين كل اصناف الموت ؟ »
« ستعرف طرق الله عند ما تصبح الها . »

« ولماذا جاء بها من احضان الارز النيرة الرحبة ليميتها في غرفة ضيقة
مظلمة — من بشرتي الى بوسطن — من بيت على كتف الوادي المقدس الى
بيت في حي الصينيين في بوسطن ؟ »

« لا بد من سر في كل ذلك . غير اني لا اعرفه ولا اعرف من يعرفه . »
« ولماذا جعلها اختاً لي وجعلني اخاً لها ؟ ولماذا اماتها في هذه السن ،
وفي هذه السنة ، لا في سواهما . وفي الرابع من نيسان لا في الخامس
من ايار ؟ »

« دعك من « لماذا » يا اخي . فقد حرقت قلوباً كثيرة قبل قلبك . »
« آه — بطرس ، بطرس . في رأسي الآن الف لماذا ولماذا . وهي
تصارعني بالف سيف وسيف . فأمأ تصرعني فتدفعني مع ربي في الحد واحد

واما اصرعها فانهمض وبنهض ربي معي قوياً ، عادلاً ، جيلاً ، سرمدياً .
 « خلنا الآن من ذلك يا جبران . وما زال النوم بعيداً عن اجفانك
 واجفاني ، فهات اخبرني شيئاً عن بشري . كم مرة دخلت المغارة ، وتسلفت
 جبل الارز ، وانحدرت الى الوادي المقدس ؟ وهل كنت ننهض مع الفجر
 ونترقب مواكب النور صاعدة من البحر لتلاقي الشمس عندما تطل من
 وراء ظهر القضيبي ؟ وهل قلت للشمس المشرقة - ولو مرة - بطرس
 يسلم عليك ؟ وهل زرت دير مار سر كيس واصلت في معبده الحجري
 المهجور ، او سرقت من كرمته عنباً واكلت ، ولو حبة واحدة ، عن اخيك
 بطرس ؟ ما كان اجهلنا يا جبران ، وما اسوأ الساعة التي ابتعدنا فيها عن
 خير شلال قاديشا واطلال واديه المقدس . انها لساعة سوداء . ولعلنا ،
 لو رضينا ببلادنا ، لرضي الله عنا وما اخذ سلطانه منا . والآب - ست
 سنوات - سبع سنوات - وماذا فعلنا ؟ لا علم ولا مال . بلى . فانت
 قد تعلمت . وانت شكفر عن كل قصورنا . لقد كنت اقرأ رسائلك
 بلذة فائقة ، واشعر كافي اقراً فضولاً من سفر ايوب او من مزامير داود او
 من نشيد سليمان . فما عدت اعرف - هل انت في التصوير اقدر منك في
 الكتابة ، ام في الكتابة اقدر منك في التصوير . ولعلك ستكون كاتباً
 ومصوراً معاً . »

« لقد نسي الناس فن الكتابة يا بطرس وانشغلوا عنه بصناعة رصف
 الكلام . فلا روح ولا جمال في ما يكتبون . ولو عادوا الى سفر ايوب
 والمزامير ونشيد الاناشيد لعرفوا ان العواطف اذا ما فارت والافكار اذا
 ما ثارت ضاقت دونها القوالب المحدودة وغصت بها المجاري المألوفة .
 لكنهم لا عواطف فيهم تفور ، وينظمون كما لو كانت لهم عواطف . ولا

افكارهم ثور ، وينثرون كما لو كانوا ذوي افكار . فهم اموات في
ما ينظمون وينثرون .»

« ترى اعود الى لبنان بعد ؟ هيهات . هيهات . انا اعرف انني لن
أبصر تلك القمم النظيفة . واصلي من اجلك لكي تراها عني وعنك .
هيهات . هيهات . . . »

واخذت بطرس نوبة من السعال ارتجت لها الظلمة بما فيها من دموع
وحزن وحرقة .

= ٩ =

« الحق الحق اقول لكم ان حبة الخنطة التي تقع في الارض ان لم تمت
فانها تبقى وحدها ، وان ماتت انت بثمر كثير .»

كانت سماء كانون الثاني تنثر من دموعها البيض على بوسطن ، وكان
جبران بطالع في الانجيل . فوقع على هذه الآية في الفصل الثاني عشر من
يوحنا ، ومع انه قرأها وسمعها مراراً عديدة من قبل ، شعر كأنه يقرأها
للمرة الاولى . وكأن ستاراً أزيح عن عينيه . فرفعهما عن الكتاب وغرق
في بحر من التأمل : — كل شيء يموت لكي يبعث . الصخرة تموت لتلد حجارة
لبناء الهيكل . والشمعة تموت لتتحول نوراً . والخشبة تموت ليظهر ما فيها من
نار . والثمرة تموت لتنتب الشجرة . والشجرة تموت لتعطي الثمرة . كل شيء
يموت ليعود الى مصدره . الحياة ذهاب والموت إياب . والحياة كساء
والموت عري . والحياة فكرة بارزة والموت فكرة خفية . والله هو الموت
والحياة معاً .

وللحال اخذ جبران دفتر الرسم وقلم رصاص وبدأ يرسم في اعلى الورقة
خطوطاً ودوائر ونصف دوائر . وما هي الا دقائق حتى برز من تلك

= ٥٤ =

الخطوط المبهمة شكل رأسٍ منحني إلى الامام . واليد التي تمسك القلم تحس كأن يداً خفية تحرّكها ، والقلم ينقل بسرعة من جانب في الرأس إلى جانب وحيثما انقل ترك اثراً بيننا معنى من معاني الوجه — هنا حاجباً ، وهناك شبه فم او انف ، وهناك موجة من الشعر . وكانت السبابة تارة وطوراً الوسطى تساعدان القلم في بعض وثباته ، فتزيدان من ظل او تخففان من ظل وكان جبران ، كلما انتهى من حركة ، يبتعد عن الورقة قليلاً ويزورها بعينه لحظة ثم يعود اليها عودة العاشق إلى معشوقه او العابد إلى معبوده . وقد نسي سيكارة كان قد اشعلها فاحترقت من تلقاء ذاتها حتى آخرها . ولم يقف ليشعل ثانية حتى انتهى من العينين وقد احتار هنيهة ما بين ان يجعلهما مفتوحتين او مطبقتين .

باقل من ساعتين برز الوجه بحبيته المغسولة اعاليها بنورٍ علوي ، والمظلة ما بين الحاجبين وخلفهما باضلالٍ ناعمة ، دافئة ، خفيفة . وباجفانه المنفرجة بعضها عن بعض قيد شعرة او شعرتين ، كأنها تخشى ، لو تدفّق كل ما خلفها من سرٍّ وسحرٍ ومجبة دفعة واحدة ، ان تُغرق الناظر اليها بدلاً من ان ترفعه ، وبفمه المفتوح نصف فتحة وكأن فيه كل بركات النعيم وجماله . اما الشعر فقد امتدّ في موجات جميلة ذات اليمين وذات اليسار ثم تدلى إلى اسفل في شكلٍ مستدير ، وتقارب طرفاه تحت الذقن ، دون ان يلتقيا ، كأنهما جناحان منعكفان واحدهما نحو الآخر دون ان تتلامس قوادمهما . ومن اسفل الورقة قد ارتفع لبيبٌ من نار في شكل جسم بشري عاري ، لكنه خفيف كالنسيم ، شفاف كالنور ، وقد ادار ظهره إلى الناظر . له نقاطيع جسم بشري انما دون اللحم والعظم والدم . اذا ما نظرت اليه لم تره خطوطاً جامدة على ورقة جامدة . بل تخيلته يرتفع إلى فوق ، دونما اقل تعب او

جهد على الاطلاق ، حتى تلامس قمة رأسه شفة الوجه السفلى ، وكتفاه
طرفي الشعر . فيبدو الشعر كأنه ذراعا أمّ اطلّت على طفلها من فوق
فانتشلتها اليها لتضمه الى صدرها وتباركه بقبلة المحبة .

« عادت سلطانه من حيث انت - الى الله . ينبثق الشعاع من الشمس
ويعود اليها . والشجرة من الارض وتعود اليها . والروح من الروح فتعود
اليها . هي عودة لا بد منها . »

ونظر جبران الى صنع يديه فرآه جميلاً . لكنه ما كاد يرفع القلم
ليوقع اسمه باسفل الصورة حتى دخل عليه اخوه بطرس وكأنه محمول على
ذراعي الموت :

« اسرع وراء الطبيب يا جبران . اسرع ما تمكنت . ولا ترجع الى
هذا البيت . فهو ينهار علينا بسقفه وكل جدرانها . وارضه تهرب من تحت
ارجلنا . فانج انت في الاقل من بيننا . . . امك في خطر . واخوك بطرس
على اهبة السفر . اسرع ! »

= ١٠ =

خرج الطبيب من البيت تاركاً في اذن جبران كلمة سوداء ما برحت
ان تغلغل في سقف البيت فتدلت منه نعاين وافاعي . وفي الجدران فاطلت
منها عقارب وانياباً محدّدة . ووقفت في الابواب والنوافذ تنانين
فاغرة افواهها .

« السل . السل . - جيوش خفية جرارة - جيوش الله الخفي القدير
وفي الدرجة الثالثة ! اين انت يا ربي ، اين انت ؟ كنت دفتك ودفت
نفسي معك . وامس ظننتني وجدتك ، فاقمتك من الموت وقت معك .
او انت تسخر بي ام تراني اسخر بنفسي ؟ امس اخذت اخي الحبيبة سلطانه

= ٥٦ =

واليوم ترسل جيوشك الخفية الجراحة لتسلمني امي واخي - وهما اعز ما في الكون لدي . فما بالك لا تستردني اذ تستردهما ؟ وما بالك بتركني مغلول اليدين والرجلين ، مقنّع العينين ، قصيص الجناح ، فارغ القلب والجيب ؟ الطبيب يأمر بنقل اخي وامي الى المستشفى . فمن اين آتي بلال ؟ ان لم يداوِ الناس جراحي بعقاقيرهم الا اذا داويت جيوبهم بالفلوس ، فهاذا عساني اداويك لتداويني ؟ ربي والهي . ربي والهي . ربي والهي ! لا تتركني ، ولا تقتص من جهلي . لعل جيوشك الخفية الجراحة معسكرة الآن في صدري كذلك وفي صدر اختي مريانا مثلاً هي في صدر امي واخي بطرس . . . »

عند هذا الفكر انتفض جبران بقشعريرة اشد من قشعريرة البرد . وضاق عليه انفاسه اذ خيل اليه ان كل نسمة يتنشقها من الهواء حوالية تحمل فيلقاً من « الجيوش الخفية الجراحة » ورأى نفسه كسمكة في شبكة . غير انه ما عثم ان عاد يقوّي نفسه بنفسه :

« عيب عليك يا جبران . أوّ ثقب الموت لاختك واخيك وامك ولا تقبله لنفسك ؟ قل لتكن مشيئة الله . بلى . مشيئة الله . ماذا قادك من بلادك الى هذه البلاد ؟ - مشيئة الله . ماذا سلبك اختك سلطانه ؟ - مشيئة الله . ماذا نقل مرض اختك الى امك واخيك ؟ - مشيئة الله . ولكن لماذا شاء الله ما شاء ، ونشاء ما يشاء ؟ ! لماذا ، لماذا ، لماذا ؟ - لانك دأبت روحك بالفسق ، وبالغش ، وبالكذب ، يا جبران . لانك استدفأت فراش الشهوات وهو بارد . واستنعمت لحاف الملذات ، وفيه مناخس ، لانك خاطيء يا جبران . وهل يجازي الله الأم بخطيئة ابنها ، والاخ والاخت بذنب اخيهما ؟ وما هي الخطيئة ؟ - « اما انا فاقول لكم ان كل من نظر الى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه . » - الحق

الحق اقول لكم ان حبة الحنطة التي تقع في الارض ٠٠٠ ان مانت انت بثمر
كثير ٠»

ولكن ما العلاقة بين حبة الحنطة والسل في الدرجة الثالثة ؟ وبين التنين
الفضي الصغير الذي كان يشنفس بروح الصندل وهذا التنين الواقف بالباب
والقاذف من جوفه حمماً ونقماً ؟ وما العلاقة بين « الملاك الحارس » - آه لو
تعرف بما انت فيه الآن يا جبران ٠ بل خير لها الا تعرف ٠ وحسنًا فعلت
عند ما النقيتها امس في الشارع فلم ترد تحيتها ٠ هي عابرة طريق في حياتك
وانت عابر طريق في حياتها ٠ اما تلك التي تركتها في بيروت ؟ ٠٠٠ هي
كذلك قد عادت الى ربها مثلما عادت سلطانه ٠

حقاً ان ما صورته اليوم لجليل - عودة الروح الى الله ٠ واجمل منها
شكون « رقصة الافكار » التي ما برحت تعذب خيالك منذ ايام ٠ اين
قلم الرصاص ؟ هذا ميزان الحرارة ٠٠٠ - قلم الرصاص والترمومتر ٠
رقصة الافكار ورقصة الموت ٠ المتحف والمستشفى ٠ نداء الالهة الفن وسعال
الامل المصدور ٠ الجيب الملتهب والثلج المنهمر ٠

واذ ذكر الثلج فرَّ جبران من البيت وهو يشعر كأنه مقذوف من فوهة
بركان ٠ وما ان احس بلذعة الهواء خارجاً ، وبالثلج يفرش بساطاً ناعماً لقدميه
ويتسابق لتبريد عينيه ووجنتيه ، حتى راح يهيم على وجهه ٠ مردداً مع كل
خطوة او خطوتين : « اين انت يا الهي ، اين ؟ »

= ١١ =

« مريانا ٠ ستهلكين عينيك يا اختي بهذا الحيط وهذه الابرة ، وعلى
نور الغاز ٠ »

« وماذا نعمل ، وهذه الابرة وخيطها يدفعان اجرة البيت وثن الغاز

وبقيشان جسدنا وبكسوانهما . أو نستعطي قوتنا و كساءنا من الناس ؟ »
« مريانا . مريانا . ان ابرتك تُثمل عيني ، وخطك يشد على عني . »
« مالك يا جبران ؟ اكاد لا اقول كلمة الا جرت دموعك . فهل
جرحتك يا روح اختك بما قلت ؟ »

« لا تخافي من دموعي يا اختي . فالمحبة ان بلغت اعماق القلب اترعت
المدامع . وابرتك وخطها محبة صافية . مع ذلك يشق عليّ ان اراك تدفين
اياك ولياليك في ثقب ابرة لتعوليني بدلاً من ان اعولك . وان تصرفي نور
عينيك ليبقى في عيني نور . »

« دعك من عيني فلا خوف عليهما . وما بالك تنسى عينيك ؟ فانت
تصور طول النهار وتكتب حتى اواخر الليل . وان اعترضتك في ذلك
زعلت مني . »

« هي محنة يا اختي لا مهنة . ولولا محنتي لكنت اليوم مع امي وبطرس
وسلطانه . اتعرفين ما يقول الناس ؟ يقولون - اليس من الغبن ان يموت
بطرس ويبقى جبران ؟ اتعرفين ما قاله ابي في بشرّي ؟ قال - كنت اوثر
لو مات وحيد وبقي بطرس . ولكن ما يتوجب في نظر الناس لا يتوجب
في نظر الله . لو كان الموت قصاصاً لكان من الحق ان امضي وبقي بطرس
وتبقى امي وسلطانه . وقد تكون الحياة عقاباً ، ويكون الموت ثواباً
يا مريانا . وعقابنا ان نذوق مرارة اليتم - يتم الام والاخ والاخت . لكن
في عقابنا ثواباً - فقد عرفنا احنّ الامهات ، واحب الاخوات ، واطهر
الاخوات . ويظهر ان نسيج حياتك وحياتي لما يكتمل بعد ، وان فيه
خيوطاً تربطنا بنسيج حياة اناس آخرين على الارض نعرف اليوم بعضهم
ونجهل الآخر . لكننا سنعرفهم كلهم قبل ان نبرح هذه الديار . ان نسيج

حياة امنا واخينا واختنا قد اكتمل . والسر هو في انه لم يكتمل الا في بوسطن
وان الاصابع التي لملت خيوط سداه ولحمته كانت اصابع السل . هنالك سر
كذلك في زمان اكتماله ومكانه : سلطانه في البيت في ٤ نيسان سنة ١٩٠٢ ،
بطرس في البيت في ١٢ آذار سنة ١٩٠٣ ، امي في المستشفى في ٢٨ حزيران
سنة ١٩٠٣ . وهما نحن في سنة ١٩٠٤ وقد لا ندرك نهايتها . لقد ذهبتم امي
وفي قلبها حسرة كبيرة . وهي انها كانت في المستشفى فلم تربطرس في
ساعة وفاته . وفي ذلك سرٌ ايضاً يا مريانا »

« ما القصد من هذا الكلام يا اخي ؟ أَلتبكي وتبكييني ؟ اولا تعرف ان
دمعة في عينك تولد دمعتين في عيني ؟ »

« ويل لمن يصاخب الموت بيد ملوثة بالآثام ، مغلوطة بالشهوات يا مريانا
ذاك يجذب الموت ابرد من الجليد ، واقسى من الحديد . »

« غداً علينا ان ندفع اجرة البيت عن شهر وثمان الغاز عن شهرين . »
« وهنئاً لمن مات بموت عزيز عليه قبل ان يموت . فانا قد متُّ ثلاثاً
يا مريانا وما ازال حياً . »

« لقد تركت لك الكمية اللازمة من المال على الطاولة في غرفتك . »
« العالم اخرس اصمٌ يا مريانا . والويل لمن تحرجه العازة على مخاطبة
العالم . »

« ولا ننس ان تشتري لك برنيطة في الغد . فقد اصبحت انجل من ان
اراك بين الناس في برنيطتك الحالية . »

« وللحياة دفتر تقيد فيه لكل انسان حساباته يا مريانا . وهي تصفها
في كل ثانية . وما نحن فيه الآن هو رصيد حسابنا منذ الازل حتى الان . »
« قم يا اخي الى فراشك ، حلفتك برحمة امك واخيك واختك . »

« بل برحمة امي واخي واختي اعدّي لي ركوة من القهوة واذهبي الى فراشك واتركيني انهي بعض اشياء لا بد من انهاءها الليلة . فقد اخبرتك انني انوي عرض صوري عما قريب ، واني قد توفقت الى محل اعرضها فيه وهو في قاعة صغيرة عند مصور فوتوغرافي اسمه « داي » . اما المعارض المعروفة فلا تقبلني لانني مجهول ، وان قبلتني فبشروط لا طاقة لي عليها . وعليّ ان ابدأ باعداد الصور ونميرها وتسميتها والاهتمام باطاراتها منذ الليلة »
« اراك قد ورثت سيكارة ابيك وقهونه قبل مماته . رجوتك بحبائك يا اخي ، واكراماً لي ، ان تقلل من تلك وهذه فانت اخشى منها على صحتك واخشى كذلك ان توث القدح . فقد بدأت تشرب قليلاً »

« الحق عليك . فقهوتك طيبة . وهذا البيت الذي نقلتنا اليه يطيب لي فيه السهر اكثر من البيت الذي كنا فيه سابقاً - ولو انه ، مثل سلفه ، في حي الصينيين . ومن ثم فان انت طلقتني السيكارة والقهوة فاحذري من ان تزوجيني من النارجيلة - لا سيما نارجيلة جيراننا واخواننا الصينيين »
« لا . لا ! الف سيكارة وفنجان قهوة ونارجيلة سورية ، ولا مصّة واحدة من نارجيلة صينية »

بقي جبران يحسو القهوة ويدخن السيكارة تلو السيكارة حتى الساعة الثالثة بعد نصف الليل . وبينما هو يفتش عن صورة في محفظة من محافظه عثر على مقال كان قد كتبه في العام السابق بعنوان « الموسيقى » . وهو باكورة جهوده الادبية الجديدة . فأخذ يقرأ ساكناً مغيراً كلمة هنا وعبارة هناك ، الى ان وصل حيث يخاطب الموسيقى . فرفع اذ ذاك صوته الى ما فوق الهمس كأنه يترنخ بما يقرأ ولا يصدق انه هو الذي كتب ما يقرأه

« يا ابنة النفس والمحبة . يا اناء مرارة الغرام وحلاوته . يا خيالات القلب البشري . يا ثمرة الحزن وزهرة الفرح . يا رائحة متصاعدة من طاقة زهور الشعائر المضمومة . يا لسان المحبين ومذبة انصرار العاشقين . يا صائغة الدموع من العواطف المكنونة . يا موجية الشعراء ومنظمة عقود الاوزان يا موحدة الافكار مع تُنف الكلام ومولفة الشواعر من مؤثرات الجمال »
 — هنا وقف جبران يفتش عن كلمة غير « مؤثرات » يكون بينها وبين « الجمال » من التجانس مثلما بين « تنف الكلام » و « الافكار » . واذ لم يهتد اليها راح يتابع القراءة :

« يا خمرة القلوب الرافعة شاربيها الى اعالي عالم الخيالات . يا مشجعة الجنود ومطهرة نفوس العابدين . . . » وظل يصحح بعض العبارات ، ويربّت نفسه على بعضها ، الى ان اذن الديك بالفجر . فانطلق جبران الى فراشه قائلاً في نفسه : « يجب ان اصدر هذا المقال في شكل كراس . فهو جدير بالنشر على حدة . وسيقرأه الناس معجبين متسائلين — من هو هذا جبران خليل جبران »

= ١٢ =

بين النجاح والفشل ، مثلما بين الموت والحياة وكل المتناقضات ، خط من الظل المتنقل ننظر اليه في لحظة معلومة من الزمن فلا يصعب عليك ان نقول في هذا الامر انه ناجح وفي ذاك انه فاشل . ثم ينقل الظل فتتغير واذا بالنجاح فشل ، وبالفشل نجاح .

مضى على معرض جبران بضعة ايام ولم تذكره الصحف الا تنوياً ، ولا ازدحم فيه المتفرجون كما كان يتوهم صاحبه انهم سيزدحمون ، ولا بيع من رسومه رسم واحد . هو الفشل بعينه ، والفشل الذي ما بعده فشل .

كان جبران جالساً في زاوية من زوايا معرضه الصغير يحدق في مجلة بيده دون ان يرى حرفاً من حروفها . وكان يسلي نفسه بنفسه فيذكر بعض الذين زاروا المعرض وكيف كانوا يمرون بالصور كأنهم يمرون بطلاسم فيقولون :

« هذه جهود ولد صغير ومن العيب ان تعرض على الجمهور كاثار فنية » وبالاخص ذكر جبران رجلاً جاء برفقته نساء ثلاث . ثم اخذ يتحدث عن الفن كأنه يلقي عليهن محاضرة . وكان كلما اقترب من صورة على الحائط يبين لرفيقاته ما فيها من ضعف وخلل وثنافر . فقال فيه جبران : « ياله من حمار ! » على عكس امرأة جاءت برفقة رجال ثلاثة وكانت تقودهم من صورة الى صورة فتتففت هتاف إعجاب عند معنى عميق ، او ظل دقيق ، وتختتم كلامها كل مرة « يا للخيال . يا للخيال ! » وفيها قال جبران : « انها نفهم ما نقول » . وبينما جبران يفكر في صورته تفكير الام بيناتها الحسان اللواتي لم يتوقفن الى ازواج ، ويهوتن فشله على نفسه ، اذ دخلت القاعة سيدة فجدقها جبران بطرف عينه ثم عاد الى المجلة في يده كأنه يبتهم كل حرف من حروفها التهاماً . وقد شاء بذلك ان يرى السيدة قلة اكترائه للزائرين كأنه ملأ ازدحامهم وضوضاءهم . وكأنه اكبر بكثير من ان يأبه لما يقولون ، او يهتم بما يجوبون او يكرهون ، ويشترون او لا يشترون . الا انه عاد يسرق لحظات من الزائرة الغربية فرآها تدرس الصور درس من يرغب في التوصل الى اسرارها . وذكرا ابرة اخته مريانا وخطها فقال في نفسه : لعل هذه السيدة تبتاع صورة . فنهض عن كرسيه ومسد يده شعره الطويل الى الوراء وبابتسامة تقطر لطفًا واحتشامًا تقدم من السيدة وخاطبها :

« هل تريد سيدتي ان افسر لها بعض هذه الصور ؟ »

« اني اكون ممتنة لك يا سيدي جداً . ولا انكر عليك انني بحاجة الى من يفسر لي مثل هذه الصور . فهي ليست من المؤلف في الفن . وانا ، وان كنت من عشاق الفن ، (هنا قال جبران في قلبه : ما اكثرهم في هذه البلاد وما اكذبهم ! العلك منهم ؟) لست من الفنانين . فهل انت يا سيدي احدهم ؟ »

« لي الشرف ان اتني اليهم . »
« وهل تعرف صاحب هذه الصور ؟ »
« انا هو يا سيدي . »

« اني سعيدة بمعرفتك يا مستر جبران . اسمي ماري هاسكل . وانا رئيسة مدرسة « ميس هاسكل » للبنات في هذه المدينة — في شارع مارلبورو ولعلك سمعت بها . المدرسة اسستها اختي . واشتربتها منها في العام الماضي عند ما تركت اختي عائلتها الكبيرة لتؤسس عائلة صغيرة — لتتزوج . »
« بلى . سمعت بمدرستك يا سيدي . وهي من احسن مدارس البنات في هذه المدينة . صدقي اني سعيد جداً بالتعرف اليك يا ميس هاسكل . »
« اعذرنني اذا ما سألتك من اي بلاد انت . فانت تلوح لي افرنسياً او ايتالياً . »

« بل انا من لبنان . »

« لبنان ؟ لبنان الارز المقدس ونشيد الاناشيد الجميل ؟ »
« نعم . لبنان الارز ونشيد الاناشيد . وقد ولدت عند اقدام ارز الرب على كتف الوادي المقدس ، في بلدة تدعى بشري . »
« لعلك درست الفن في باريس . »

« درستُه على نفسي وعلى بعض المصورين في بوسطن . »

« حقاً انك قد احرزت منه قسطاً كبيراً وانت لا تزال في مقتبل

عمرك »

« تفضلي واجلسي يا مس هاسكل »

« لا . لا . ما جئت لاجلس بل لادرس . افلا تفضلت وفسرت لي

هذه الصورة ؟ » وأشارت الى صورة على الحائط .

« لقد دعوت هذه الصورة « عودة الروح الى الله » . لعلك تعتقدين

اعتقادي ان كل ما في الكون من محسوس ليس الا رموزاً للحياة غير المحسوسة .

وان القصد من الفن ليس تقليد الرموز بل تفسيرها برموز جديدة . الوجه

الذي تربنه في اعلى الصورة هو وجه الله . انا اعلم ، كما تعلمين ، ان الله لم يره

احد بعين حسية . اما بالخيال فقد رآه كثيرون . ولو كنا كلنا اخيلة لما

احتجنا الى رموز . لكننا في عالم الحس . والخيال يتعذر عليه ان ينقل ذاته

الى الحواس ما لم يتخذ لذاته جسماً محسوساً . والان لك ان ننظري في هذا

الوجه ونترجمه من المحسوس الى غير المحسوس . ولعلك اذ ذاك تبصرين

ما حاولت ان اودعه من معاني الالهة . او اكثر منه . ولعلك اذ ذاك

تنظرين الى الخيال الناري الصاعد من اسفل الورقة نحو الوجه فترين فيه روحاً

انبثقت من الله وبعد الموت عادت اليه . الفن يجب ان يكون خطاباً من

خيال الفنان الى خيال الناظر . لذلك اتحاشى في تصويري ان أشغل حواس

الناظر دون خياله . ومن ثم فالتقالب الذي يتخذها الفن يجب ان تكون جميلة

وخاضعة لنواميس الجمال . وللجمال نواميس اذا تعداها الفن لم يكن فناً »

« كلامك جميل يا مستر جبران ومعقول . وحتى الان لم يكلمني بمثله

فنان . وماذا تقول لي في هذه الصورة وقد استوقفتني طويلاً واشكلت

علي معانيها ؟ »

« وماذا استوقفك فيها لأول وهلة ؟ »

« استوقفني هذه الاجسام العارية المتأسكة بعضها ببعض وكأن قوة
تقذفها الى فوق قذف عمود من الماء ثم تهوي بها الى تحت وتبعثرها كقطرات
فوّارة اذ تهبط الى الحوض . »

« او لم تحسي بشيء وانت تُنظرين الى هذه الاجسام ونقاطيعها والمعاني
التي تبدو لك في وجوهها ؟ »
« هي اجسام متألمة ووجوه متألمة . »

« اذن لست بحاجة الى تفسير . فقد دعوت الصورة « فوّارة الالم »
وقد شئت ان امثل بها القوة التي تعصر من النفس كل زوائدها فلا تبقي الا
على عصارتها الخالصة . والالم افعل في النفس من اللذة . وما الحياة كلها الا
فوّارة من الالم . »

« ولماذا تكثر من الاجساد العارية ؟ »

« لان الحياة عارية . والجسم العاري هو اقرب واجمل رمز للحياة
فاذا ما صوّرت جبلاً في شكل كومة من الاجسام العارية ، او شلاًّ لا في
هيئة سلسلة من الاجسام العارية الهاوية من فوق الى تحت ، فلا في ارى الجبل
كومة من كوام الحياة والشلال مجرى من مجاري الحياة . »

« اراك كذلك تكثر من رموز الموت والألم . فهل في ذلك معنى غير
معنى الموت والالم ؟ »

« لان الموت والالم كانا نصيبي الاكبر من الحياة حتى اليوم . فبين
الرابع من نيسان سنة ١٩٠٢ والثامن والعشرين من حزيران سنة ١٩٠٣
فقدت اختي الصغرى ثم اخي الاكبر ثم امي . وكلهم اعز ما في الكون عندي
يا مس هاسكل . »

« انني افهم حزنك يا مستر جبران . والدمعة التي اراها الان في عينك
نفهمها دمة في قلبي . فانا ، مثلك ، قد فقدت امي حديثاً . وكانت اعز
انسان لدي . لقد وجدنا بيننا قرابتين . قرابة الفن وقرابة الالم . »

« قرابة الالم ابقي من قرابة الفرح واقوى من قرابة الدم . »
« لقد كنت لطيفاً معي لدرجة قصوى يا مستر جبران . ولست ادري
بأية كلمات اشكر لك لطفك . افلا تفضلت وزرتني قريباً في المدرسة لعل
القرابة التي وجدناها بيننا لا تنتهي هنا . وبالتك تدري كم انا ممتنة لصديق
لي . فهو الذي اخبرني اليوم عن معرضك والح عليّ بالحيي قائلاً انه من
المعارض القليلة التي يجب على كل من يحب الفن ان يزورها . ولولاه لما أتيت
لي ان اعرفك واعرف فنك الجميل . قل لي اناجح معرضك ؟ »

« من حيث كثرة الزائرين - نعم ، فقد غصت هذه القاعة غير مرة
بالجماهير . اما من حيث المبيع - لا . كثيرٌ هم الذين اظهروا رغبة في ابتلاع
بعض الصور . لكنهم لم يدفعوا الاثمان التي اطلبها . انما عندي وعود كثيرة
اتأمل ان تُثمر . »

« هي ثمرة باذن الله . استودعك الله يا مستر جبران . واتمنى ان اراك
عما قريب في مدرستي . واشكر لك لطفك مرة ثانية فقد سقيتني كأساً
طالحةً بخمرة الفن . »

« كأس الفن طالحة ابدأ . ولكن الشاربين قليل . الى اللقاء يا مس
هاسكل . »

عادت ماري هاسكل الى مدرستها وهي لاتذكر الخيط الابيض الحريري
الذي حملت به منذ اثنتين وعشرين سنة في مدينة كولومبيا من ولاية سوث
كارولينا . ولا تشعر انها في ذلك المعرض الصغير قد لمست يدها . ويدها

شدته على خصرها . بل كانت تُفكر في الصديق الذي هداها الى المعرض
وفي الكلمات التي ستعبر بها عن امتنانها له وعن بعض ما شهدته من لطف
الشاب البناني وغزارة مواهبه الفنية . وقد عجبت في سرها كيف ان الله
لا يراعي العدل في تفريق هباته على مخلوقاته .

وعاد جبران الى بيته وهو لا يعرف انه بلمسه ليد الزائرة الغريبة قد لمس
جناح الملاك الحارس الذي كان يفتش عنه منذ سنين . بل كان يقول في
نفسه : « ياليت ربي زاد في قامتي قيراطين حتى اذا وقفت بجانب امرأة كمس
ها سكل ما شعرت بنفسي صغيراً مثلما شعرت اليوم . »

ولم يخطر لجبران ولا لما ري هاسكل ببال ان الحائك الاكبر قد انقبط
بمكوكه العظيم خيطي حياتهما من جديد ليتابع حياكة النسيج الذي بدأ به
منذ الازل على منواله السرمدى .

= ١٣ =

كانت ماري هاسكل تسكب الشاي وتناولوه لضيوفها موجهة اكثر
كلامها وعنايتها الى الشاب الجالس عن يمينها :

« حقاً انك اوليتنا جيلاً كبيراً يا مستر جبران عند ما لييت دعوتنا
ورضيت ان تعرض صورتك الجميلة في مدرستنا . والفضل في ذلك راجع الى
الانسة الجالسة تجاهك . فهي من مساعداتي . وبعد ان سمعني احدث عما
رايت في معرضك قالت : « يا ليتك تطلبين اليه ان يعرض صورته في المدرسة »
وهكذا كان . وهانحن سعداء ان نراك ونرى صورتك عندنا . اهتي ببارك
يا ميشلين وقدمي له بعض اقراص الحلوى . جارتك عن يمينك يا مستر جبران
من معلمائنا . وهي افرنسية الاصل . واسمها ، كما ذكرته لك سابقاً ، ماديموازيل

اميلي ميشيل . غير اننا ندعوها تحبياً « ميشلين » فهي حبيبة الكل وملاك هذه المدرسة .»

« رئيساتنا يا مستر جبران نقيس كل الناس بذاتها . لذلك دعيتي ملاكاً اما نحن المعلمات والتلميذات فنندعوها « السنديانة » — جنورها في الارض ورأسها في السماء . وما نحن الاً عصافير نعشش في اغصانها ونستظل بظلها ونلجأ من العواصف اليها . نحن نضرب لامور كثيرة اما هي فهادئة ابدآ في كل يوم نأتيها بمشكل بل بمشاكل . اما هي فلا يشكل عليها امر . نبتقاض اليها في خصومات كبيرة او تافهة فلا نرتد من عندها الا راضيات . واذا ما طلبنا اليها ان تسن لنا قانوناً في امر من الامور قالت : « لتكن المحبة قانوننكن . فانتن ان لم تكن على وفاق مع انفسكن لن تكن على وفاق مع القانون .»

« ميشلين ، كفانا يا عزيزتي نتحدث عن انفسنا ونحن في حضرة كاهن من كهنة الجمال . ما هو نظرك في الجمال يا مستر جبران »
« الجمال هو ما نراه فنود ان نعطي لا ان نأخذ . هو ما نشعر عند ملقاه بابد ممدودة من اعماقنا لضمه الى اعماقنا . هو ما تحسبه الاجسام محنة والارواح منحة . هو الفة بين الحزن والفرح . هو ما نراه محبوباً ونعرفه مجهولاً ونسمعه صامتاً . هو قوة تبتدىء في قدس اقداسنا وتنتهي في ما وراء تخيلنا . الجمال هو المقرب قلوبنا من عرش المرأة . وعرش المرأة هو عرش الله . وباليات الذين جعلوا من الدين لهواً فآلفوا بين طمعهم بالمال وشغفهم بحسن المال بفقهم معنى الجمال . اذن لجعلوه معبوداً لهم .»

« لقد رفعت المرأة كثيراً يا مستر جبران عندما اجلستها على عرش الله »
« اكثر الاديان يتكلم عن الله بصيغة المذكر . وعندي ان الله أم »

مثلاً هو أب . بل هو أبٌ وأمٌّ معاً . والمرأة في نظري هي مثال الله الأم .
قد يدرك الله الأب بالعقل او بالخيال . اما السبيل الى الله الأم فهو الحب .
والحب هو الخمر التي تعصرها الآلهة من قلوبها لتسكبها في قلوب الناس .
وليس يشربها صافية الا الذين صفت قلوبهم من كل ادران الشهوات
الحيوانية . هؤلاء اذا ما ثملوا بالحب ثملوا بالله . اما الذين يمزجون مع خمرة
الحب خمرة معصورة من كرمة الارض في سكرهم عريضة الشياطين واجيج
نار الجحيم .»

انني اسمع في كلامك ما اراه في صورتك يا مستر جبران . وقد قلت لي
انك تكتب بلغتك العربية . فهل طرازك في الكتابة مثل طرازك في
التصوير ؟ ولماذا اخترت هذا الطراز ؟

« لعله اختارني ولم اختره . لقد وجدني ماشياً في هذه الطريق دون
علم او قصد مني . ولكل طريقه في ما يعمل . اذن هذه هي طريقي . عند
ما بدأت بالتصوير لم اقل لنفسي : - هوذا الطريق الكلاسيكية او الحديثة
او الرمزية او كثير سواها فاختر لك واحدة منها . - بل ماشرت الا
وقلي يرسم رموزاً لما يجول في خاطري من خيالات وافكار وعواطف .
يحسب البعض الفن في تقليد الطبيعة . والطبيعة اعظم من ان نُقلد . ومهما
تسامى الفن لا يأتي بمعجزة من معجزاتها . ومن ثم فما الحاجة الى تقليد الطبيعة
وهي محسوسة لكل ذي حس ؟ انما الفن ان تفهم الطبيعة ونوادي معانيها
للذين لا يفهمونها . الفن أن نوادي روح الشجرة لا ان تصور جذعاً وفروعاً
واغصاناً واوراقاً تشبه الشجرة . الفن ان تأتي بضرب البحر لا ان ترسم
امواجاً مزبدة او مياهاً زرقاء هادئة . الفن ان نرى في المؤلف ما ليس مألوفاً .
لذلك ابتعد في التصوير وفي الكتابة عن كل مألف لا توصل الى ما فيه من

معانٍ والوان غير مألوقة . وبل لعينٍ ألفت الشمس الى حد ان لا ترى فيها
غير وجاق يدفعها ومشعال يدلها على الطريق من بيتها الى مخزنها . انها لعمياء
وان ابصرت البرغشة على بعد ميل . ويل لاذن الفت تغريده البلب الى حد
ان لا تسمع فيها غير نوبات متتابعة . انها لصماء وان سمعت ديب النمل تحت
الارض . نعم . تلك هي طريقي . وهي تعرفني وانا اعرفها . حتى ليخيل الي في
بعض الاحاين اني سلكتها قبل ان وُلدت . فانا لا اكاد ابلغ عطفة فيها
حتى اشعر بما بعدها . ولا انحرف عنها قيد باع الا اعرف انني انحرفت قيد
باع . فاعود اليها .»

تمادى الحديث اكثر من ساعتين ، ومثل كل حديث يدور حول
فجنان الشاي ، كان ينتقل من الجليل الى الثافه — من الله الى الطقس ، ومن
الفن الى اسعار البيض ، ومن الادب الى اخبار آخر ساعة ، ومن ارز لبنان
الى حي الصينيين في بوسطن . وكان لجبران القسط الاوفر منه . فكان
يفيض في الكلام عن اسعار البيض إفاضته في الكلام عن تمثال الزهرة في
متحف اللوفر وعن ذراعيه المقطوعتين ، مفخماً كلامه ، مثباطاً بلفظه ، كأنه
يتلو آيات منزلات . وكان كلما قال كلمة فتش حافظه حتى اذا ما اهتدى الى
اخرى ابهج منها لوناً ، واعذب رنة ، واثقل وزناً ، واشد غموضاً ، استبدلها
بها ، والا تعداها الى سواها . وقد انس من قريحته فيضاً كان يزداد كلما
التفت الى النسوة جلساته فقرأ في وجوههن علامات الاستحسان والاعجاب .
ومع انه ، في الظاهر ، كان بوجه حديثه الى الكل ، لم يكن يخاطب في
باطنه الا اثنتين — رئيسة المدرسة عن يساره والمعلمة الافرنسية عن يمينه .
اما رئيسة المدرسة فكان يخاطب رأسها . واما ميشلين فقلبها . وكان ،
وهو يخاطبهما ، يقابل بينهما في فكره وفي وجدانه :

الرئيسة : — وجه اشقر مستطيل يغلب فيه الخول . جبهة منفرجة عالية
شعر مسرَّح الى الوراء ومعقود في مؤخر الرأس عقدة بسيطة . حاجبان ضن
الله عليهما الا بالقليل من الشعر . اجفان تكاد اهدابها لا ترى ، نطبق ثم
نفرج عن عينين زرقاوين مستديرتين غارقتين في حجاجيهما ، مغسولتين
بسائل ليس من بثر الدموع ولا من مستودع الضحك . انف مستطيل دقيق
قائم فوق شفتين رقيقتين تكاد اطرافهما تصل متوسط الحد الايمن بمتوسط
الحد الايسر . اذا تلاقنا كَوْنَتَا خطاً مستقيماً . او تباعدتا انكشف من
تحتيهما معظم اللثتين وما فيهما من اسنان ليست آية في الاتساق والانتظام .
صدر ضيق وكثفان عاليان تمتد منهما ذراعان طويلتان نتهيان بكفين يكاد
طولهما يكون ضعفي عرضهما ، واصابع عظمها اوفر من لجمها ، نخنت
عقدها ودقت رؤوسها وتباعدت كثيراً اوائلها عن اواخرها .

لباسها غاية في البساطة والنظافة وقلة الاكتراث بالازياء . ووجهها
يقسم ميمناً صادقة انه لا يعرف مساحيق العطارين . تكلم فلا تلوك الكلام
ولا تردده ، بل تخرج الكلمة من فمها تلو الكلمة دونما تراحم او ثنافر . اذا
ابدت فكراً جاءت عليه كله ، لا على ربه او نصفه ، وذلك بعبارات منقاة
صحيحة لا اثر فيها للتأنق والنقعر وتعمد الفصاحة والبلاغة . في منطقها وزن
بنم عن توازن في عقلها . وفي عقلها صراحة تكره التبطن بالمواربة والكذب
قد تُخدع لكنها لا تُخدع . تسوق ولا تُساق . وان ساقفت فبدون اسواط
ومناخس وشفرات حادة . وقد يهزأ بها ولكنها لا تهزأ . صراحة كأنها
سبيلٌ سوي — لا يلتوي بمنة ولا يسرة ، ولا يصعد هضبة او ينحدر الى
واد . يخيل الى سامعها وناظرها ان اعنة حياتها في حوزة عقلها . اذا عملت
خيراً فلأن عقلها يقول لها ان فعل الخير حسن . او ارتدَّت عن شرٍّ فلأن

عقلها يدلها ان تجنب الشر حسن . وان لم يكن في نفسها مخافى غضب ، او
مخالب حقد ، او مهام نيمة او حسد فلا ن عقلها يعظها ان الابتعاد عن الغضب
والحقد والحسد والنيمة حسن . اذا مشت فبخطوات واسعة لا رشاقة فيها .
وبقدم تحب الارض وثبات الارض .

في وجهها ما يشهد شهادة حقة انها لا تعرف شهوات الرجال . لكنه
يشهد كذلك ان ليس فيه ما يوحى قبلة يسيل معها القلب على الشفتين . او
يشير شهوة تشوي الروح والجسد معاً . هي سنديانة ، كما لقبها ثليذاتها
ومعلماتها - يستأنس الضعيف بقوتها ، والمسافر بظلالها ، والعين بطهارتها . اما
الجائع فيترند عنها جائعاً ، والعطشان عطشاناً . هي تلك السنديانة وليست
الشجرة المثقلة بالاثمار الغرارة التي انبتتها الله في وسط الجنة وانذر آدم ان
يأكل من كل شجر الجنة الا منها قائلاً « انك يوم تأكل منها تموت موتاً »
« ميشلين : - في شعرها الاسود لمعان يأسر العين ويكهرب اليدين
الى حد ان الناظر ، لولا قوانين الحشمة واللياقة ، لما تمالك من لمسه وتمسيده .
وفي عينيها العسليتين الواسعتين كحل من النور الذي يبرز بالنهار من احشاء
الليل ويستلّ الليل من بين اجفان النهار . وفي بشرة وجهها الصافية حمرة
الشقيق اذا نفشت في صفرة العاج . في ابتسامتها ضعة الطفل وطهارته . وفي
ضحكتها كركرة الجدول النقي الطروب . لكنها قلما تبسم وقلما تضعك .
كأن سنيتها العشرين علمتها ان في كثرة الهرج تهلكة للجمال . وفي الرزانة
امنع حصن له .

تتكلم احياناً فيقول السامع - انها لطفلة . وحياناً نفوه بما يحمل
السامع على القول - انها لشاعرة وحكيمة معاً . وتبشي فكأن في الارض
رفاساً تحت قدميها او كأن في رجليها اجنحة .

خيرها فيضان من قلبها وكذلك شرها . ولا دخل لعقلها في كليهما .
اذا عطف على طفل فبكل ما في كيانها من العطف دون ان تسأل ما اذا
كان يتيمًا او غير يتيم . فقيرًا او غنيًا . وما اذا كان حقيقًا بالعطف او غير
حقيق . وما اذا كان العطف عليه واجبًا او غير واجب . الواجب عندها
ما لا تطبق القعود عنه . والحق ما يستريح اليه قلبها بكليته . والحرام ما أنفت
عاطفتها التدنس به . تكره الالم لنفسها ولسواها . واذا امكنها ان تخفف
من ألم جارها او جاريتها لا تنهون لحظة ، وان كفها ذلك الماء ، ولا نقول في
نفسها : لقد عملت ما يرضي الله . — الله في حياتها ضباب . والجنة وجهنم
كلمتان على السنة الكهنة وفي الكتب المقدسة

اذا انست من جلسها لطفًا اطلت كالبزاقة من صدفتها . او خشونة
عادت الى صدفتها لتحمي نفسها من الخشونة . لكنها ابدًا متحفظة حريصة .
لا كبرياء فيها ولا ادعاء والذي يحسبه الناظر اليها كبرياء ليس الا برقعًا
تصون به عفة جمالها من رجاسة الشعاء وحة البداء .

هي جميلة وتعرف انها جميلة . ولكن اترها تعرف ، او تحب ان تعرف ،
ما فعلت بجبران ساعتان بالقرب منها ؟ شبهها جبران في فكره بالراديو
تُحرق ولا تحترق . اذا احس كأن في كرسية اسلاكاً كهربائية مشحونة
وكان كلما سرت الكهرباء في مجاري دمه ومسارح خياله يستر هزاتها العنيفة
بكل ما لديه من الحيل وقوة الارادة قائلاً في نفسه : لعل في كرسيتها مثلاً في
كرسي من الاسلاك المشحونة بالكهرباء . ولعلها تراني ، مثلاً اراها —
كالراديو أحرق ولا أحترق .

في تلك الليلة اهلك جبران كثيراً من القهوة والسيكارات والغاز

واتلف أوراقاً كثيرة حاول ان يرسم عليها بالكلام حرارة الجرة التي تركتها
 شفتا ميشلين بين شفثيه والاييب الذي اضرته انفاسها في قلبه وبين تلايف
 دماغه . وقبل بزوغ الفجر بقليل عائق وسادته وهو يشعر كأنه يعانق القدر
 الذي التقاه في شكل فتاة غريبة فتاة . ولا يصدق ان ما كان كان . وقلبه
 ولسانه يباركان الحياة الحلي بالمفاجآت والاسرار .

= ١٤ =

« بماذا جئتني اليوم يا حبيبي ويا خليلي ؟ ابدمة ام بابتسامة ؟ »
 « بل بابتسامة تستحق ابتسامة . يا ليتك تعرفين العربية يا ميشلين .
 اذن لقرأت لك قصائدي كما اقرها لنفسي . وما اضطرت ان اكون
 ترجماناً . اتعرفين ان القطع التي انشرها في الجريدة العربية في (نيويورك)
 بعنوان « دمة وابتسامة » نناقلمها الصحف العربية في كل اطراف العالم ؟ »
 « وذلك بالطبع يغيظك جداً . اني لاختشى ان اناشت في المستقبل
 ان ارى وجهي في عينيك الناعستين ان احتاج الى سلم كسلم يعقوب لارقي
 بها اليك . هات اقرأ لي ابتسامتك الجديدة . وامن بشفتيك شفثي فقد كادت
 نسيان الابتسام . »

احتضن جبران حبيبته وقبلها ثم اخرج من جيبه عدداً من جريدة
 « المهاجر » واخذ يترجم قطعة بعنوان « الرفيقة » :

« اول نظرة : — هي الدقيقة الفاصلة بين نشوة الحياة ويقظتها . هي
 الشعلة الاولى التي تنير خلايا النفس . هي اول رنة بحرية على اول وتر من
 قيثاره القلب البشري . هي آونة قصيرة تعيد على مسمع النفس اخبار الايام
 الغابرة ، وتكشف لبصرها اعمال الليالي ، وتبين لبصيرتها اعمال الوجدان في
 هذا العالم ، وتبيح سر الخلود في العالم الآتي . . . »

= ٢٥ =

« اول قبة : — هي الرشفة الاولى من كأس ملائتها الآلهة من كوثر الحب . هي الحد بين شك يراد القلب فيحزنه ويقين فيغمه فيغبطه . هي مطلع قصيدة الحياة الروحية والفصل الاول من رواية الانسان المعنوي . هي عروة توثق غرابة الماضي ببهاء الآتي وتجمع بين سكينه الشواعر واغانيتها . هي كلمة تقولها الشفاه الاربع معلنة صيرورة القلب عرشاً ، والحب مليكاً ، والوفاء تاجاً . . . هي بدء اهتزازات بحرية تفصل المحبين عن عالم المقاييس والكمية الى عالم الوحي والالهام . . . »

« القران . . — ههنا يبتدئ الحب ان ينظم نثر الحياة شعراً وينشيء من معاني العمر سوراً ترتلها الايام وتنعمها الليالي . ههنا يزيح الشوق ستائر الاشكال عن معميات السنين الماضية ويؤلف من نثف اللذات سعادة لا يفوقها غير سعادة النفس عند ما تعانق ربها . القران هو اتحاد الوهيتين على ايجاد الوهية ثالثة على الارض . هو تكاتف اثنين قويين بحبهما لمقاومة دهر ضعيف يبغيه . . . هو ثنافر روحين من التنافر واتحاد نفسيين مع الاتحاد . هو حلقة ذهبية من سلسلة اولها نظرة وآخرها اللانهاية . . . »

« ومن هي رفيقتك هذه المحظوظة يا خليل ؟ »

« ميشلين ، يا شريزة . انت تداعين حيث المداعبة اثم . عند ما يجلس القلب على عرشه فلتخر كل الحواس ساجدة . وتسبح بصوت واحد — قدوس . قدوس . قدوس . »

« قدوس . قدوس . قدوس . ومتى تقترن برفيقتك يا خليل ؟ »

« لقد اقترنت بها امام الله . لقد جعلت من جسمي وجسمها هيكلًا واحدًا طاهرًا لعبادة الحب الواحد الطاهر . وجعلت من روحها وروحي عرشاً ازلياً ابدياً للاله الازلي الابدي . قبل ان يقول الله للنور « كن » كنت واياها

في النور . ومن قبل ان يخلق الله آدم وحواء كنت واياها آدم وحواء في
جنة احلام الله . انت لا تعرفين من انت يا ميشلين . اما انا فاعرف . لقد
عرفتك قبل ان ولدتك امك . فقد كنت شوقاً هاجماً في اعماق كياني قبل
ان صرت كلمة مرتعشة بين شفتي الحياة . وقد كنت حياة في عروقي قبل
ان مشيت دماً سخيفاً في مفاصل الارض . وكنت دقة علوية في قلبي قبل
ان تكوني نبضاً راقصاً في ساعد المسكونة . ما فصلتنا الحياة يوماً الا لتجمعنا
ولا جمعتنا الا لتبصر نفسها كاملة بكاملنا ، واحدة بوجدنا ، ازلية كما نحن
ازليان ، ابدية كما نحن ابديان . منذ ولدت وانا افتش عنك . ومنذ ولدت
وانت تفتشين عني . كل صوت خرج من صدرك حتى ساعة النينا كان
معناه : — اين انت يا خليلي ، اين انت ؟ وكل خطوة خطوتها حتى اليوم
كانت لتدنيك مني . وما اهلك واهلي — من مات منهم ومن لا يزال في قيد
الحياة ، وما كل من عرفناهم من اعداء واصدقاء ، وما كل ما اتنا بنا من الم
ولذة ، ولا كل ما اكلناه وشربناه ، وحلناه واشتهيناه ، غير حروف وكلمات
تألف منها مقدمة السفر السري الذي هو حبنا .»

« قدوس . قدوس . قدوس . لقد اقترنت برفيقتك امام الله يا خليل .

فمتى تقترن بها امام الناس ؟ »

« ما اكثر ترابك واقل تبرك يا ميشلين . الناس . الناس . الناس !

ما همى بالناس وبما يقولون ويفعلون ؟ هل جمعوا مرة بين قلبين متحابين الا

ليفصلوها ؟ او ربطوا متناقضين الا ليقتلوهما برباطهم ؟ »

خليل ، حبيبي ، نور عيني ، حبة قلبي . — هبني كنت تراباً قبل ان

عرفتك . فقد حولني حبك تبراً . »

« لا ولن يحولك تبراً الف حب كحي . الناس . الناس . الناس . انا

أكره الناس وسبل الناس . وأكره من يحبهم ويسير في سبلهم . هم كالديجاج —
لهم اجنحة ولا يطايرون . والسنة ولا يغردون . ومخالب ولا يفقشون
بها الا عن الديدان والاقذار . هم لا يبيضون الا في اكناف ثقاليدهم
المظلمة وانظمتهم النتنه . اعطني ولو فرخ نسر واحد وخذي كل دجاج
الارض . »

« ولمن ترسم رسومك يا خليل — اليس للناس ؟ ولمن ننظم قصائدك
يا خليل — اليس للناس ؟ وباقلام من تكتب وترسم يا خليل — اليس
باقلام الناس ؟ وخبز من تأكل يا خليل — اليس خبز الناس ؟ ومجد من
تطلب يا خليل — اليس مجد الناس ؟ »

« انت منهم . انت كذلك ابنة الديدان والاكناف . وانا كالنسر
لا ارضى غير الفضاء ميداناً . ولا اطيق ان أشرف على الحياة الا من القمم
العالية . فسبحان من جمع بين النسر والديجاجة . »
« وانت لا تأنف من ان تغذي جسمك ببيوض الديجاج ولحومها
يا خليل . »

« جسي لا روحي . »

« اذن انا غذاء لجسمك لا اكثر ولا اقل . انا مطية لشهواتك . انا
العوبة في يديك . وحبنا ليس الا فرخ دجاجة ؟ يا ويل هذا الحب كم خدشته
مخالب انا نيتك السرية وهو ما يزال فرخاً . والآن اراك عازماً ان تقضي
عليه . انت لا تعرف الا نفسك ، ولا تهتم الا بنفسك ، ولا تؤمن الا بنفسك
اقول لك اني اصبحت مضغة في افواه بنات المدرسة ومعلماتها فتجيبني — الناس
الناس . الناس . واقول لك انني اخشى شاهداً ما يزال جنيماً ان يفصح
امرنا . فتجيبني — الناس . الناس . الناس . ثم تأمرني ان اكتب السر عن

كل الناس ، وبالاخص عن رئيسة المدرسة ، وان اقضي على الشاهد قبل ان
يحسن الشهادة . وتدير ظهرك وتصرف عني . نقرأ لي قصائدك ثم تؤنبي
اذ لم اهتف هتاف اعجاب لكل عبارة او مقطع . ونقول اني من تراب فلا
افهم جمال روحك السماوية . الا اجعلني رفيقة تحسن المشي في مسالك الارض
قبل ان تجعلني شاعرة تجوب رحاب الجو . الا اجعلني دجاجة سعيدة قبل ان
تجعلني نسرأ قويا . الا اجعلني انسانا راضيا قبل ان تجعلني الها كاملا . لقد
اشبعني شعرا حلوا وخصاما مرأا . اذا كان حبك قطرة من العسل في كأس
من العلقم فاني محطمة كأسي الآن . ولعل الاله الذي تؤمن به لا يهمني .
« ميشلين . لقد سئمت نفسي الخصام . فارحميني وارحمي نفسك .
واصفني عن مرارة في قلبي لا يزيلها الا حبك . انت رفيقتي منذ الازل
وستبقى رفيقتي الى الابد . وساقترن بك امام الناس حلما يتيسر لنا ما
نظهر به بين الناس . ميشلين ، قولي لي : هل تدري الرئيسة بشيء من
امرنا ؟ »

« لها عين ثالثة تبصر كل شيء . واطنّها تعرف لكنها تتجاهل . »
« اما المسألة الاخرى فتدبرها بحكمتك قبل فوات الوقت . وانت
حكيمه يا ميشلين . يا ليتك تعرفين بعلبك . لكن ستعرفينها ان شاء الله .
ستعرفين لبنان - لبناني . وستعرفين جلال بعلبك ، وهيبه تدمر ، وجمال
البحر المتوسط . أو تدريين ما يحول بخاطري ؟ - قصة خيالية اجعل بعلبك
مسرحها . ومحورها حب قديم بين ابن كاهن من كهنة عشتروت وفتاة
كميشلين . وكيف كان هذا الحب يتجدد على مر الاجيال . يموت الحبيبان
ويولدان في اجسام جديدة وظروف جديدة . لكنهما ابدأ يلتقيان ليكملا
انشودة الحب القدسية . خليل وميشلين . وقد اخترت لقصتي عنوانا

جَمِلاً — رَمَادُ الأَجْيَالِ وَالنَّارِ الْخَالِدَةِ . تَحْتَرِقُ الأَجْيَالُ وَتَمْسِي رَمَاداً أَمَّا نَارُ
الْحُبِّ فَتُسْتَعْرَةُ أَبَداً . مَا قَوْلُكَ ؟ »

= ١٥ =

« لَا تُقُولِي مَصَادِفَاتٍ يَا مَارِي . الْحَيَاةُ لَا تَعْرِفُ الْمَصَادِفَاتِ . فِي الْكَوْنِ
خَبُوطٌ لَا تَحْصَى يَتَأَلَّفُ مِنْهَا نَسِيجُ الْكَوْنِ الْوَاحِدِ . وَحَيَاتُكَ وَحَيَاتِي
خَيْطَانٌ فِي هَذَا النِّسِيجِ السَّرْمَدِيِّ — يَتَبَاعَدَانِ . ثُمَّ يَتَقَارِبَانِ ، ثُمَّ يَتَعَانِقَانِ ،
ثُمَّ يَتَبَاعَدَانِ وَيَتَقَارِبَانِ وَيَتَعَانِقَانِ مِنْ جَدِيدٍ . وَهَكَذَا إِلَى أَنْ يَتِمَّ النِّسِيجُ .
الْحَائِثُكَ الْجَالِسُ وَرَاءَ الْمَنَوَالِ يَعْرِفُ الْغَايَةَ مِنْ كُلِّ خَيْطٍ . لَكِنْ كُلُّ خَيْطٍ
لَا يَعْرِفُ غَايَةَ الْحَائِثُكَ . لَقَدْ مَاتَ أَخِي وَأَخْتِي وَأُمِّي لِأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْوُجُوبِ
أَنْ يَمُوتُوا فِي الْحَيْنِ الَّذِي مَاتُوا فِيهِ وَبِالْمِيتَةِ الَّتِي مَاتُوا فِيهَا . وَلَقَدْ احْتَرَقَتْ صُورِي
لِأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْوُجُوبِ أَنْ تَحْتَرِقَ فِي الْمَكَانِ وَالسَّاعَةِ الْمُحْتَمَوِينَ لِحَرِيقِهَا . وَقَدْ
يَكُونُ لِي فِي ذَلِكَ خَيْرٌ كَبِيرٌ »

« أُنْهَآ ، مَعَ ذَلِكَ ، لُخْسَارَةٌ جَسِيمَةٌ يَا خَلِيلَ . وَكَمْ أَنَا سَعِيدَةٌ لِأَنَّ اللَّهَ
الْمُهْمَنِي فَابْتَعَتْ مِنْ صُورِكَ اثْنَتَيْنِ — رَفِصَةً الْإِفْكَارِ وَفَوَازَةَ الْإِلْمِ . »
« لِكُلِّ شَيْءٍ غَايَةٌ يَتِمُّهَا وَيَمْضِي . وَيُظْهِرُ أَنَّ صُورِي قَدْ أَمَّتَ الْغَايَةَ الَّتِي
وُجِدَتْ مِنْ أَجْلِهَا . وَيَكْفِيهَا أَنَّهَا كَانَتْ وَاسِطَةً لِتَجْدِيدِ الْعِلَاقَاتِ بَيْنَنَا . »
(وَاضَافَ جَبْرَانُ فِي قَلْبِهِ — وَيَنِي وَيَيْنِ مِيشَلِينَ .)

« أَرَاكَ ، مِنْ بَعْدِ مَا اهْتَدَيْتَ إِلَى عَقِيدَةِ التَّنَاسُخِ ، تَرُدُّ كُلَّ شَيْءٍ إِلَيْهَا
حَتَّى احْتِرَاقَ صُورِكَ . اللَّهُ كَمْ تَغَيَّرَتْ فِي الْآرْبَعِ سَنَوَاتِ الَّتِي عَرَفْتُكَ فِي
غَضُونِهَا . »

« لَقَدْ كُنْتُ ضَائِعاً بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ . وَكُنْتُ كَلِمَةً فَكَّرْتُ فِي
الْعِلَاقَاتِ الْبَشَرِيَّةِ أَشْعَرَ كَافِي فِي سِرَادِيبِ مِنَ الطَّلَاسِمِ . أَمَّا فِي التَّنَاسُخِ

فقد وجدت مفتاح الحياة والموت ومصباحاً ينير لي سراديب العلاقات
بين الناس .

تأمل يا ماري كم خطوة خطوناها قبل ان نلتقي . وكل خطوة كانت
نتيجة للتي قبلها وسبباً للتي بعدها . وضعتك امك في الشهر الثامن فكنت ،
كما نقولين ، رأساً وعينين وفماً — لا يزيد وزنك على الخمس اواق ، ولا
احد يؤمل لك بالحياة . وبالرغم عن ذلك خبيت بين خمس اخوات واربعة
اخوان . وتغلبت على نقص الولادة وعراقيل الفاقة . فانهيت مدرسة عالية
من مدارس البنات في هذه البلاد . وكنت تعصرين الدولارات لدفع
الرواتب المدرسية من خرقه غسل الصحون ومن فوهة الفرن حيث كنت
تخزين عدداً معلوماً من الارغفة في النهار . او من مفاتيح البيانو عندما
كنت تعلمين الموسيقى . واخيراً توصلت الى ابتياع مدرسة اخذك في
بوسطن . من كولومبيا — سوٲ كارولينا — الى بوسطن . ومن طفلة
مشوهة في الولادة يشتهي لها الناس الموت الى رئيسة مدرسة تطلب لها
تلميذاتها ومعلماتها طول العمر . لو تغيرت خطوة واحدة في حياتك لتغيرت
كل حياتك .

وانا — وُلدت بعدك بعشر سنين . ولا علاقة في الظاهر بين اهلي
واهلك ولا بين بشرتي وكولومبيا . ولا بين سنة ١٨٧٣ وسنة ١٨٨٣ .
مع ذلك ، لو لم اولد حيث وُلدت وحين وُلدت . ولو لم يكن ابواي في
نفار مستمر . ولو لم يكن لي اخ اسمه بطرس لما هجرنا بلادنا . ولو لم يكن
لاخي وامي معارف من ابناء بشرتي في بوسطن لما انتقينا بوسطن من كل
مدن الولايات المتحدة وقرأها . ولو لم اولد وفي ميل الى التصوير لما صورت
ولو لم اصور لما عرضت صوري . ولو لم اعرض صوري حيث عرضتها

وحين عرضتها لما انفق لصديقك ان يراها . . ولو لم يخبرك صديقك عنها و كان لا يقعدك مرض او شغل عن الذهاب لما ذهبت الى المعرض . ولو لم ينفق وجودي في تلك الساعة هناك لما رأيتني . ولو كان معك رفاق لما اقتربت منك وسألتك اذا كنت تريد ان افسر لك بعض الصور .

آء ماريء ماريء . أو كل هذه الامورء وربوات غيرها من الاحلام والاشواق والافكار الدقيقة التي تولدها والتي لا يحصيها العقلء — أو كلها مصادفات ؟ »

« لا يا خليل . غير ان الناس يدعون مصادفة كل حادثة يجهلون مركزها من حياتهم وحياة الكون . »

« ان دورة الحياة لا تنتهي بعمر واحد ولا باعمار . نحن نطلب الكمالء نحن نفتش عن اللهء فمن ذا يجد الله في عشرين سنة او في مائة او في الف ؟ » وكنتم امواتاً فاحياكم . ثم يميتكم ثم يحييكم . ثم اليه ترجعون . — هكذا قال نبي العرب . وهكذا قال انبياء في الشرق كثيرون . في الهند والصين واليابان مئات من الملايين الذين يؤمنون بتجديد الحياة الفردية قرونًا تلو قرون . وفي لبنان طائفة يدعونها الدروز تؤمن الايمان عينه . ليست الحياة البشرية الا تصفية حسابات . نموت فنترك خلفنا ديوناً لنا وديوناً علينا — من خير ومن شر — من حب ومن بغض — من صداقة ومن عداوة . فنعود لنستوفي ونوفي . وسنظل نستوفي ونوفي الى ان لا يبقى لنا من رصيد حساب الا الله . »

« ارجو ان لا يكون الدين الذي لك في ذمتي كبيراً يا خليل . وان اكون قادرة على ايفائه . »

« اذا لم يكن لي غير افي لا اشعر معك بالوحشة الروحية التي اشعر بها مع باقي الناس لكفاني . ها انا اتحدث اليك في كل بارقة المحما بعين روحي ، وفي كل شبح يمر به خيالي . وكاني اتحدث الي نفسي . انا غريب في هذا العالم يا ماري . لكنني لست غريباً عنك ولا انت غريبة عني . »

« خليل . لماذا لا تكتب بالانكليزية ؟ نقول لي انك في العربية من الكتاب البارزين . وها انت ، ولا تزال في ريعان شبابك ، قد اصدرت ثلاثة كتب بالعربية : الموسيقى - عرائس المروج - والارواح المتمردة . غير انها ، كما فهمت منك ، لا تدر عليك فلسافاً بل تكلفك فلوساً . »

« لست واثقاً من لغتي الانكليزية بعد . ولا اظن بضاعة كبضاعتي تلقى رواجاً في هذه البلاد »

« لقد تحسنت انكليزيتك تحسناً عظيماً في السنوات الاربع الاخيرة . »

« الفضل في ذلك عائد اليك يا ماري . »

« وانا اعدك بتصحيح لغتك قدر استطاعتي . »

« عليّ ان اهتم بالتصوير الان . فهو اقرب مورداً للرزق من الكتابة . »

« خليل . اتحب ان تذهب الى باريس لمتابعة دروسك الفنية ؟ »

« من كل قلبي . ولكن . . . »

« لكن لا مال عندك . انا ادفع اكلاف سفرك يا خليل واتعهد لك بخمسة وسبعين دولاراً اقدمها لك كل شهر الى ان انهي دروسك . افلا تقبلها مني مقدمة محبة لك واعجاب بمواهبك الغزيرة ؟ ويا ليت في طاقتي ان اقدم لك اكثر من ذلك . »

« ماري . ماري . ماري . » (کاد لسان جبران یزلق فیقول : میشلین
میشلین . میشلین .) لقد اترعتِ قلبي حتی الفيضان . فلتكن دموعي
جواباً لك . »

وبکی جبران و كانت دموعه تقول : « یالیت روح ماریے فی
جسم میشلین . »

يوم مولد ويوم حساب

اطلّت شمس السادس من كانون الاول سنة ١٩٠٨ على «الكارتيه لاتين» في باريس وانفذت شرذمة من اشعتها الى غرفة جبران فوجدته في احضان مورفيوس . فرّت بلوحة من الكرتون على منصب التصوير تحمل شبه جنم فتاة عارية . وبطاولة عليها اوراق واقلام مبعثرة وزجاجة من الوسكي ، وبرزمة من الحطب امام الموقد بجانبها ركوة لاعداد القهوة العربية وفنجانان . ومثلما دخلت الغرفة كالخلم هكذا انسحبت منها وانصرفت في سبيلها .

واخيراً افاق جبران فتناول الساعة من تحت الوسادة واذا بها بعد العاشرة فنفض عنه اللحف ونهض من فراشه متواكلاً كأن ما كان في اجفانه من نعاس ، وفي نعاسه من احلام ، ما برح يجذبه الى الفراش . واضرم ناراً في الموقد وجاء بالقهوة والركوة ثم مشى نحو النافذة بقدميه العاريتين فاحس كأن ارض الغرفة من جليد وقال : انه ليوم برده عضاض . لكنه بعد ان رأى الشمس خارجاً استأنس باشعتها ولو عن بعيد وعاد فقال : انه ليوم عضاض اكن انيابه من ذهب . وعند ما فتح النافذة ليخرج بعض ما في الهواء من نور الشمس انكسرت لوحة من الزجاج وسمع شظاياها تنطحن على الرصيف فقال : انه ليوم رجلاه من زجاج . وقانا الله شره . وعندما سكب فنجاناً من القهوة واخذه بيد ثم اشعل من الموقد سيكارة بالآخرى اندلقت القهوة على رجله فاحرقتها ووقع الفنجان من يده فتحطم على الارض

فقال جبران : انه ليوم قلبه من الزيت . وقانا الله ناره السوداء . وسكب
قهوة جديدة وجلس يشربها ويدخن امام الموقد . ولغير ما سبب يعرفه اخذ
يشعر كأن في الغرفة اشباحاً تمشي ذهاباً وإياباً وتحدث فيما بينها هكذا :
« ما هو الفن ؟ »

« هو ان تحمل بطيختين في يد واحدة دون ان تلمس احدهما الاخرى . »
« ما هي الحياة ؟ »

« هي ان تركض مع النهار دون ان تدرك الليل . ومع الليل دون ان
تدرك النهار . والا تنكسر في الركض رجلك او رقبتك . »
« ما هو المجد ؟ »

« هو ان تشرب زيت السمك ممزوجاً بحامض الفينيك ولا تتقيأ . »
« ما هو الحب ؟ »

« هو ان تجدع انفك لتضحك عينيك . »

« من هو الجالس امام هذا الموقد ؟ »

« حطبة تندفأ بحطبة . »

بقي جبران يدخن السيكارة تلو السيكارة والاشباح نثهادى حواليه
وتقهقه في اذنيه الى ان سمع اجراس نوتردام تعلن انتصاف النهار . فانتفض
كمن افاق من كابوس وارتدى ثيابه وخرج من البيت . فمشى في بولفار
سان ميشيل ثم توجه الى حديقة اللوكسنبورج وقد تسلط على ذهنه بيت من
ايات ابي العتاهية « انما الدنيا كبيت نسجه العنكبوت » فكان يمر بالناس
فيراهم عناكب . حتى انه التفت الى الشمس فتغيلا عنكبوتاً هائلة وتخيل
كل ما على الارض وفي السماء نسيجها . ورأى نفسه ذبابة صغيرة عالقة في
ذلك النسيج .

وقف جبران طويلاً امام متحف اللوكسنبورج وصوت يقول له
— ادخل . لعل ما حواليك من اشباح سوداء يجفل من بعض مظاهر الفن
الحديث . فيجيبه صوت آخر — انما الدنيا كبيتٍ نسجته العنكبوت .
فيعيد الصوت الاول الكرة ويقول — اذن فاذهب الى مدرستك — الى
البوزار — فعندك فروض يجب تميمها . وبعد الظهر سيلقي استاذ كبير
محاضرة عن تمثال « داود » لميكلانجيلو . وانت توّله ميكلانجيلو وفنه . —
فيجيبه الصوت الثاني — انما الدنيا كبيتٍ نسجته العنكبوت . — واخيراً
ارتد جبران عن باب المتحف وقصد حانوتاً يعرفه فابتاع رغيف خبز
وبرتقالتين وعاد بخطوات مسرعة الى البيت . فالتقى عند الباب موزع البريد
الذي ناوله رسالة من بوسطن عرف للحال انها من ماري

دخل جبران غرفته وفض الرسالة فاذا فيها حوالة بخمسة وسبعين
دولاراً وتهنئة يوم مولده وعبارات جميلة تبين له عظيم ايمان ماري بمواهبه
وبمستقبله في عالم الفن . واخبار محببة منها ان ميشلين قد تغيرت كثيراً بعد
سفره فنحل جسمها وفارقت الابتسامة وجهها واكدت النور في عينيها . وانها
تكاد لا تكلم احداً الا عند الضرورة . وقبل ان يأتي جبران على آخر
الرسالة طرحها من يده وراح يتمشى في جوانب الغرفة وهو يصيح :

« ميشلين . ميشلين . ميشلين ! لقد ملكت عليّ مشاعري ومفاتيح
خيالي . ان فرحت فمك ، وان حزنت فمك ، في حبك قد اصبحت
شيخاً ، وفي حبك قد عدت صبيّاً . ما كنت اذكر يوم مولدي او اهتم به
حتى جعلت منه عيداً يليق بالملائكة . ربّ وردة كنت تبتاعينها باخر
فلس في جيبيك وتأثيني بها في يوم مولدي فاشتت فيهما عطر الالهة منتشراً
من قلبك العطر . ربّ قطعة من الحلوى كنت تضعينها بين شفتيك

فأتناولها بشفتيَّ وأتذوق فيها حلاوة الوجود التي ما بعدها حلاوة . واليوم
 أفيق وشذا الآلوهة لا يتضوع في غرفتي من ورود حبك . وعصافير قلبك
 لا ترفرف فوق رأسي وتزقزق في أذني . بل في فمي مرارة الوحشة . ومن
 حواليَّ أشباح الآلامكِ وأوجاعي . وفي أذني قضقضة سخريتها وتصريف
 أسنان انتقامها . لقد جنبت عليكِ وعلى نفسي يا ميشلين . لقد لذَّ لي في البدء
 أن أذلَّ عنفوانك ، فإذا بي رهنت ارادتي وحسي وخيالي لعنفوانك . لقد
 حسبتك في البدء سلوى فإذا انتِ اليوم شاغل . حاولت أن آخذ دون أن
 أُعطي . وكنت تعطيني ولا تفكرين بما تأخذين .

بلى . لقد جنبتُ عليكِ وعلى نفسي يا ميشلين عند ما اشركت في
 حياتي امرأة سواك ، فرضيت أن استدرَّ جيبها وعقلها حين أنا استدر قلبك
 ولحمك ودمك . ولقد كذبت عليكِ عند ما سألتني عن المرأة التي امدتني
 بالمال لأدرس في باريس فاجبتك أن ليس هنالك من امرأة ، وأن المال دبرته
 من بعض اقاربي واصدقائي . لقد ثغلب قلبك على لساني إذ شعر في الحال
 بوجود امرأة ثانية في حياتي . فما اصدق قلبك واكذب لساني . ياليتني
 بحت لك بكل شيء . اذن لما كانت هذه الاشباح السوداء تساورني اليوم
 وتضيق علي انفاسي . اليَّ يا ميشلين اليَّ يا روح روحي ويا قلب قلبي .
 تعالي وقولي انك صفحت عن كل آثامي . وأنا ساكفر عن كل شيء .
 تعالي يا ميشلين والا — فانا مقتلحك من قلبي حتى وان اقتلعت قلبي معك !
 ارتقي جبران على كرسي بجانب الطاولة واخذ ببعثر يمينه ويساره
 رسوماً واوراقاً كثيرة تكدست عليها كأنه يحسبها الاشباح السوداء التي
 تناضلها ويناضلها . وكان كلما رفع ورقة تأملها قليلاً ثم طرحها من يده
 قائلاً :

« ما النفع منك ؟ ما النفع منك ؟ » الى ان وقعت يده على دفتر
خُطت على غلافه هاتان الكلمتان : « دمة و ابسامة » . فاخذ يقلبه بغير
تروٍّ و غير نظام و كلما وقعت عينه على عنوان تأمله طويلاً كأنه يستعيد
الظروف و التأثيرات التي حبلت به و الساعات التي ولدته ، وكأنه لا يصدق
ان قريحته املته و يده خطته . و كان كلما قرأ عنوان قطعة و بضعة سطور
منها يخاطب نفسه معجباً او معاتباً او مؤنباً :

« غليلي ! — لمن هذا الخطاب و ما هو ؟ آ ! لخليلي الفقير و خليلي
الحزين — » لو علمت يا خليلي الفقير ان الفاقة التي تقضي عليك بالشقاء هي
هي التي توحى اليك معرفة العدل و تبثك ادراك كنه الحياة ، لرضيت
بقسمة الله . . . — ولو دريت يا حبيبي الحزين ان الارزاء التي اصبحت
مغلوبها هي تلك القوة التي تثير القلب و ترفع النفس من دركات الاستهزاء
الى درجات الاعتبار ، لقنعت بها ارثاً . . . —

« ما اذلق لسانك ، و ارشق قلبك ، و اصدق مواعظك يا جبران . و ما
اقل اتعاظك بمواعظك . انت تكره الفقر و الحزن فعلام تحب للناس ما
تكره لنفسك ؟ »

« بالدمي : — دعني و لا تعظني . . . اعتزل ذكر المحرمات ، فلي من
ضميري محكمة تقضي بالعدل عليّ و تقيني العقاب اذا كنت ذا برارة ، و تحرمني
الثواب ان كنت من المجرمين . » — اذن هو ضميرك الذي يعذبك اليوم
يا جبران . و هذه الاشباح السوداء ليست الا من كهوفه المظلمة . ان انت
لم تقض عليها اليوم قضت عليك غداً . فابدأ الآن ، في هذه الدقيقة ، في
هذه اللحظة . انزع ميشلين من قلبك و ماري من رأسك و عش طليقاً باسم
الحب الذي لا يعرف اللحم و الدم ، و الفن الذي لا يتقيد بالوان الارض

واشباحها ، والجمال الواصل كل ما في السماء وعلى الارض بنور الالوهة
الذي لا يدرك . »

« رَحْمَاكَ يَا نَفْسَ رَحْمَاكَ : — حَتَّى مَ نُنُوحِينَ يَا نَفْسِي وَانْتَ عَالِمَةٌ
بِضَعْفِي ؟ ... رَحْمَاكَ يَا نَفْسَ فَقَدْ اَرَيْتَنِي السَّعَادَةَ عَنْ بَعْدِ شَاسِعٍ : اَنْتِ
وَالسَّعَادَةُ عَلَى جَبَلٍ عَالٍ ، وَاَنَا وَالشَّقَاءُ فِي اعْمَاقِ الْوَادِي . وَهَلْ يَتِمُّ لِقَاءُ بَيْنِ
عُلُوٍّ وَوُطُوءٍ ؟ اَنْتِ تَذْهَبِينَ فِي سَكِينَةِ اللَّيْلِ نَحْوَ الْحَبِيبِ وَتَتَمَتَّعِينَ مِنْهُ
بِضَمَّةٍ وَعِنَاقٍ . وَهَذَا الْجَسَدُ يَبْقَى اَبَدًا قَتِيلَ الشُّوقِ وَالْفَرِيقِ . رَحْمَاكَ
يَا نَفْسَ رَحْمَاكَ . » —

« وَمَنْ هِيَ النَّفْسُ الَّتِي تَسْتَرْحِمُهَا يَا جَبْرَانَ ؟ وَمَا هُوَ الْجَسَدُ الَّذِي تَطْلُبُ
مِنْ أَجْلِهِ الرَّحْمَةَ ؟ أَتَشْتَهِي جُثَّةً أَلَمِيَّتْ عِنَاقًا أَوْ تَخَافُ فِرَاقًا ؟ بَلْ هِيَ النَّفْسُ
مَنْبَعُ الشَّهَوَاتِ . وَهِيَ طَامِعَةٌ إِذَا طَمَعَتْهَا . عِجْبًا لَيْسُوعَ عَاشَ بِتَوَلَّى وَمَاتَ
بِتَوَلَّى وَمَا كَانَ يَتَحَرَّقُ بِمَحْرَقَاتِكَ وَيَتَلَوَّعُ بِلُوعَاتِكَ . اَيْنَ سَوَطُكَ يَا جَبْرَانَ
اَيْنَ سَوَطُكَ ؟ اَعْمَلْهُ فِي هَذِهِ النَّفْسِ حَتَّى تَذُلَّ . ذَلَّهَا يَذُلُّ جَسَدُكَ . فَهِيَ
الْأَمِيرَةُ وَهُوَ الْعَبْدُ . أَجْلِدْ نَفْسَكَ بِلَا شَفَقَةٍ . اَيْنَ سَوَطُكَ يَا جَبْرَانَ اَيْنَ
سَوَطُكَ ؟ »

« الْفَقَاءُ : — ... حُكَمَاءُ الْأُمَمِ يَأْتُونَ مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لِيَسْتَحْكُوا
حُكْمَتَكَ وَيَسْتَفْسِرُوا رَمُوزَكَ يَا حَبِيبَتِي . »

« عِظَاءُ الْأَرْضِ يَجِئُونَ مِنَ الْمَمَالِكِ لِيَسْكُرُوا مِنْ رَحِيقِ جَمَالِكَ وَسِحْرِ
مَعَانِكَ يَا حَبِيبِي . »

« اِنْ رَاحَتِكَ مِنْبَتُ خَيْرَاتٍ غَزِيرَةٌ تَمْلَأُ الْأَهْرَاءَ يَا حَبِيبَتِي . »
« اِنْ ذُرَاعِيكَ مَنْبَعُ الْمِيَاهِ الْعَذْبَةِ ، وَانْفَاسُكَ نَسِيمَاتُ مَنَعَشَةٍ
يَا حَبِيبِي . » —

« هذا تقليد فاضح لنشيد سليمان يا جبران . وانت تكره التقليد والمقلدين وتبشر بالابداع . فكيف تنهي عن امرٍ وتأتيه ؟ ولكن ما هو التقليد ؟ ما هو الابداع ؟ ان صاحب نشيد الاناشيد قال ان ليس جديد تحت الشمس . اجل . ليس جديد . كل ما يفعله الانسان تقليد في تقليد . غير ان بعض التقليد جميل وهو الابداع المرغوب . واكثره قبيح وهو التقليد الممقوت . وانت تقلد الجميل بجمال يا جبران . فانت مبدع . هذا في منطقك منطق . وان لم يكن كذلك في منطق الناس ، فما همك من منطق الناس ؟ »

« مربى الحب : — يا حبيبة نفسي ! . . . هل تذكرين يا حبيبتى ذاك الروض حيث وقفنا وكلانا ناظر وجه حبيبه ؟ وهل تعلمين ان نظراتك كانت تقول لي ان محبتك لي لم تنبثق من الشفقة عليّ ؟ تلك النظرات التي علمتني ان اقول لنفسي وللعالَمين ان العطاء الذي يكون مصدره العدل هو اعظم من الذي يبتدئ من الحسنة ؟ وان المحبة التي تبتدعها الظروف تشابه مياه المستنقعات ؟ »

« امامي يا حبيبتى حياة ازيدها ان تكون عظيمة وجميلة . حياة توأخي ذكرى الانسان الآتي . ونستدعي اعتباره ومحبه . حياة قد ابتدأت عند ما لقيتك وانا واثق بخلودها ، لاني مؤمن بكونك قادرة على اظهار القوة التي اودعني الله اياها متجسمة باقوال واعمال كبرى ، مثلما تستنبت الشمس ازهار الحقول ذات العرف الطيب . وكذا تظل محبتي لي وللاجيال ، وتبقى منزهة عن الانانية لتعيمها ، ومتعالية عن الابتذال لتخصيصها بك . — « اي ماري ، ماري ! ان حيرتي فيك وبهجتي بك لا تعرفان نهاية . من كذا وابن كذا في حياة قبل هذه الحياة ؟ اأكنت لي أما

و كنتُ لكِ ابناً ، ام كنتِ اختي و كنتِ اخاكِ ؟ ام كنتِ كاهنة
و كنتِ كاهناً في خدمة عشتروت او مينيرفا تقدم ذبائحنا سوية على مذبح
واحد ؟ عجباً تلمسني ميشلين فالتهب بنارٍ لا ابالي أمن الجحيم هي ام من
النعيم . والمسك فتهدأ كل لواعجي الارضية وتضطرم نيران اشواقي التي لا
تستوطن الارض لا . لا . انت ما احببتني شفقة عليّ . ولا انت تطمعين في
استملاكي بما تبذله عليّ من المال . لكن المال يستملك يا ماري . المال
كالسوس - دأبه النخر . والمال كالملح ، اذا وضعت ولو قليلاً منه في
كأس من الخمر المعتقة تغير طعم الكأس . واخشى ان ما تضعينه من مالك
في خمرة علاقتنا الطيبة سيغير من مذاق تلك الخمرة . غير ان الحاجة لا
ترحم . وها انا اموت على نفسي فادعو عطاءك عرلاً لا حسرة . بلى . هو
عدل يا ماري . هو عدل ، وان يكن العدل كلمة غريبة في قاموس المال .
هو العدل ان لا يحرم العالم مواهب كواهبي . وهو العدل ان تكون اليد
المساعدة على كشف تلك المواهب نقية و طاهرة كيدك . فانا اريد ان
نكون حياتي عظيمة ومحببة وانا واثق من غلوديها . وانا واثق من ان محبتك
الخالصة وعطفك الجليل سيستنبتان من مواهي اقوال واعمال كبيرة مثلاً
تستنبت الشمس ازهار الحقول ذات العرف الطيب .

وما هي العظمة التي ننشدها يا جبران ؟ استأقني العالم بفتح جديد ، ام
ستخلق بشرية جديدة ؟ استرسم ما لم يرسمه بعد اكبر الرسامين ، ام تكتب
ما لم يكتبه بعد اعظم الكتاب ؟ ها انت اليوم شاب مجهول في باريس ،
تمر في شوارعها فلا يرفع لك احد قبعة . فهل تصبح عظيماً اذا مشيت غداً
في الشارع فذاك كل من تلقى منهم وحادوا من طريقك وتهاوسوا فيما بينهم :-
هذا هو . هذا هو ؟ ام هي العظمة ان يتهاافت الناس على رسومك وموافاتك

وان تبقى ، كما انت اليوم ، تساورك الاشباح السود ، وتسرح في قلبك
المرارة ، وتقرض الوحشة ساعات وحدتك ؟

والخلود - ما هو ؟ أو لست خالداً كانسان حتى نخلد نفسك بكتاب
او بصورة ؟ ليبقى الكتاب او الرسم الف جيل بل مائة الف جيل . ليبقى
ما بقيت البشرية على الارض . لكن لا البشرية ولا الارض خالداً .
فكيف نخلد بما ليس خالداً ؟ وماذا اثبت حتى الآن من طلائع الخلود
حتى نكون واقفاً من خلود حياتك ؟

ها هي مؤلفاتك وها هي رسومك : « عرائس المروج » . ماذا اودعته
من الاثار الخالدة ؟ - رماد الازميا والناز الطاهرة - صورة جميلة الالوان
لجانب صغير من عقيدة كبيرة - عقيدة التناسخ ، وهي اقدم من كل ما اتصل
اليه معارفك ومعارف الناس التاريخية . مرثا البائنة - حكاية مثلها الوف من
الحكايات جرت وتجري وستجري على الارض . اهذه ستكون مشعالك
في طريق الخلود ؟ ام حكاية بومنا المجهنون ، وهي ندبة في طاحون ونفخة في
صحراء ؟ لقد جاء الناصري فندد بالكهنة والفريسيين نندبداً لن تستطيع
ان تأتي بمثل بسلطنته وقوته . والكهنة والفريسيون ما يزالون ، مع ذلك ،
متربعين على صدور الناس وفي قلوبهم وافكارهم . لان ليس في صدور
الناس ولا في قلوبهم وافكارهم معرفة نقول للكهنة والفريسيين :
انصرفوا عنا .

وهوذا كتابك « الارواح المتمرده » . واخذ ما فيه هو المقدمة :
« الى الروح التي عاتقت روحي . الى القلب الذي سكب اسراره في قلبي .
الى اليد التي اوقدت شعلة عواطفني » . فروحك وروح ميشلين خالداً لان
الحب خالد . اما المتمردون في كتابك فقد مضوا مثلاً مضى ويمضي سواهم .

والذي تردوا عليه من شؤون الحياة البشرية باقٍ ببقاء البشرية .

ورسومك ؟ لقد التهمت النار ما التهمته منها في بوسطن . والذي صورته بعد ذلك لم يشعل سراجاً ولم يشق طريقاً في عالم الفن . فما هي العظمة التي تحلم بها والخلود الذي انت واثق منه ؟ ومتى تبدأ ان تكون عظيماً وخالداً ؟ وراءك — كم وراءك من السنين ؟ خمس وعشرون . واسمك لا يزال مجهولاً الا عند القليل من متكلي العربية . خمس وعشرون سنة — ولا عظمة ولا خلود . واليوم يوم مولدك ، فماذا تذكره ؟ «

« في مثل هذا اليوم ولدني امي . في مثل هذا اليوم ولدني امي . في مثل هذا اليوم ولدني امي . »

مثل هذا اليوم ولدني امي . »

وتلى النهار وجبران يحاسب نفسه ويعاتبها ، ويرببها ويمنيها بما يخزنه له الغد من المجد ، وينتشل من خبايا ذاكرته اشباح ما كان ، ومن زوايا خياله رسوم ما سيكون . وفي دماغه وامام عينيه ترقص هذه الكلمات : « في مثل هذا اليوم ولدني امي . » يطردها فتعود ، ويحاول ان يلهو عنها بأمر من الامور فتلهيه عن ملهاته . وما فتئت تقفز في دماغه وتحفر في قلبه حتى نهض واشعل الغاز واخذ قلماً ودفترأ وبدأ يكتب :

« في مثل هذا اليوم ولدني امي . »

« وفي مثل هذا اليوم ، منذ خمس وعشرين سنة ، وضعتني السكينة

بين ايدي هذا الوجود المملوء بالصراخ والنزاع والعراك

« في هذا اليوم تنتصب امامي معاني حياتي الغابرة كأنها مرآة ضئيلة انظر فيها طويلاً فلا ارى سوى اوجه السنين الشاحبة كالوجه الاموات ،

وملاح الآمال والاحلام والاماني المتجعدة كملاح الشيوخ . ثم اغمض عيني وانظر ثانية في تلك المرأة فلا ارى غير وجهي . ثم احدث بوجهي فلا ارى غير مكآبة . ثم استنطق الكآبة فاجدها خرساء لا تتكلم ، ولو تكلمت الكآبة لكنت اكثر حلاوة من الغبطة

« واليوم ، وقد وقفت منذ كراً وقوف سائر متعب بلغ منتصف العقبة ، انظر الى كل ناحية فلا ارى لماضي حياتي اثراً استطيع ان اومئ اليه امام وجه الشمس قائلاً : « هذا لي » ولا اجد لفصول اعوامي غلة سوى اوراق مخضبة بقطرات الحبر السوداء ، ورسوم غريبة مبعثرة مملوءة خطوطاً والواناً متباينة متناسقة . في هذه الاوراق الماثورة والرسوم المبعثرة قد كفنت ودفنت عواطفي وافكارى واحلامي ، مثلما يدفن الزراع البذور في بطن الارض . ولكن الزراع الذي يخرج الى الحقل ويلقي البذور بين ثنايا التراب يعود الى بيته في المساء آملاً راجياً منتظراً ايام الحصاد والاستغلال . اما انا فقد طرحت حبات قلبي بلا امل ، ولا رجاء ، ولا انتظار . »

بقي جبران يكثب حتى الساعة الثالثة بعد نصف الليل . وكان بين الفينة والفينة ينهض ويتمشى في الغرفة ذهاباً وإياباً . وكلما احس بدمعة في عينيه مسحها بطرف اصبعه ، او يجفاف في فمه من كثرة دخان التبغ بله بقليل من عصير البرتقال . واخيراً ختم ما ابتدأ به بالعبارات التالية :

« سلام ايها الروح الضابط أعنة الحياة ، المحجوب عنا بنقاب الشمس .
وسلام لك ايها القلب لانك تستطيع ان تهزّ بالسلام وانت مغمور

بالدموع . وسلام لك ابتها الشفاء لانك تلتفظين بالسلام وانت تذوقين
طعم المرارة . »

ثم تناول معطفه وقبعته وعصاه وخرج يقصد مطعماً من المطاعم الليلية
ليسكت صراخ معدته الفارغه . وهو يشعر كأن جبالاً تزحزح عن
صدره . وكان يقول لنفسه بطريقه الى المطعم : « غداً يجب ان ارسل
ثلاثين دولاراً لمريانا هدية الميلاد . »

فصل يبتدىء وفصل ينتهى

اوغست رودين - جبار من جبابرة الفن وكاهن من كهنة الجمال
المعدودين . كان جبران قد رأى الكثير من آثاره الفنية في باريس . وكان
كلما وقف امام تمثاله لفكتور هيغو او « المفكر » او « القبله » تسحره المقدرة
التي جعلت من البرونز البارد والحجر القاسي عضلات تنفجر بقوة الحياة
وتشع بالعواطف الشعرية وتأتجج بالافكار الثائرة . اما امام صورته
الكبيرة « بوابة الجحيم » فقد وقف غير مرة يدرس دقائق معانيها و تفاصيل
الوانها وتركيبها ، بادئاً برسم داني في اعلاها ومنحدرآ الى الوجوه والاجسام
الكثيرة التي تمثل سكان الجحيم وما يعانونه من انواع الالام والوجاع
الابدية .

انفق مرة لجبران ان زار رودين في محترفه مع نفر من اساتذة البوزار
وتلاميذها . فقضوا بزيارته نحو ساعة خالها جبران دقيقة . لانه أخذ بهيبة
الرجل وعظمته وبساطته واستقلاله وبما رآه حواليه من رسوم ملونة ، وسوداء
ويضاء ، وتمائيل من جفصين وحجر وخشب ، بين كبيرة وصغيرة ، ومنها
شكل يد بشرية مضخمة قد انفرجت اصابعها الممدودة بعضها عن بعض
وانحنت نحو راحة الكف بدرجات مختلفة . فباتت وكأن في كل عقدة من
عقدتها قدرة الارض والسماء ، وكأن في نقاطيعها من الحسن ادقه ، ومن
الذوق اصدقه وارقه . حتى لا يصعب على من يتأمل كل معانيها ان يتخيلها
تقبض على الطين فتجبل منه بشراً ومردة وكل اشكال الحياة المنظورة .

وقد عرف جبران ان رودين صنع تلك اليد واسماها « يد الله » . فقال في نفسه . . « اهو الله خلق الانسان ام الانسان الله ؟ ليس من خالق الا الخيال واطهر مجالي الخيال الفن . - الفن . الفن ! هو الحياة والحياة هو . وكل شيء يهون في سبيله . لا مجد الا منه . ولا جمال الا فيه . هذه هي العظمة - ان تكون كرودين - ممجداً ومكرماً حيثما كان للفن اثر - من بطرسبرج الى سدي ، اوسترايا ، ومن طوكيو الى نيويورك ، وان يذكر اسمك باجلال كلما ذكر الفن ، وان يأتيك الناس من المشرق والمغرب ليتبركوا ببعض ما باركتك به الحياة من المواهب . »

طرح التلاميذ على رودين اسئلة كثيرة لها علاقة بالفن ، كان يجيب على كل منها ببساطة ووضوح مضمناً بعض اجوبته خلاصة فلسفته في الحياة والفن . وكان بين الآونة والاخرى يتوقف الى كلمة او عبارة او تشبيه تمر باذهان سامعيه مرور شهاب في الظلة . وجره سؤال من الاسئلة التي طرحت عليه الى التحدث عن وليم بلايك - الفنان - والشاعر الانكليزي الغريب (١٧٥٧ - ١٨٢٧) . فاخبر سامعيه شيئاً عن حياة الرجل وكيف تعانقت في روحه إلهة التصوير مع إلهة الشعر فكان شاعراً ممتازاً في فنه وفناناً ممتازاً في شعره . وكيف انه كان يرى ما لا يراه الناس ويشعر بما لا يشعر به الناس . اذ كان يرى رؤى ويسكن بخياله عوالم غير عالمنا الارضي . فيترجم رؤاه ومشاهد عوالمه المحجوبة عن اعين الناس تارة برسوم ثقتن الناظر بسحر ما فيها من اسرار واتساق ودقة ، وطوراً باناشيد شعرية ونثرية كان يقرأها الناس ولا يفهمون منها شيئاً فيقولون ان في عقل صاحبها مساً . والحقيقة هي ان بلايك لم يكن مجنوناً ، بل عاقلاً بين مجانين . ومصيبته لم تكن الا في انه حاول ان يجعل اوضاع اللغة الصلبة مرآة مثل الفن . وان

يوئدي بالكلام المقيد بالمنطق رسوماً وعوامل نفسية تُتعدى المنطق . فكان
كلما تقدم في السن ، وكلما تكاثرت وتنوعت رؤاه ونبؤاته ، ازداد فنه
جمالاً ووضوحاً ، ولغته تعلّفاً وغموضاً . ففي الرسوم التي وضعها لسفرايوب
ابداع من الطراز الاول . اما في مؤلفاته الاخيرة فتشويش لغوي لا يلام
قارؤها اذا دعا كاتبها مجنوناً .

انصرف جبران من عند رودين وقد نسي رودين وامتلاً دماغه وخياله
وكل وجدانه بشخص واحد - وليم بلايك . وذهب توجاً الى بائع كتب
اميركي كان قد اهتدى اليه من قبل ، واكثر ما يبيعه كتب قديمة مستعملة
وهناك حظي بنسخة من تأليف عن وليم بلايك وفيه تفاصيل حياته ونماذج
مختلفة من شعره ونثره وفنه . فابتاعها في الحال وما صدق ان وصل الى حديقة
اللوكسنبورج حتى جلس على مقعد واخذ يلفتهم الكتاب الذي بيده التهام
جائع لرغيف من الخبز .

قضى جبران في الحديقة نحو ساعتين ناسياً كل ما في الكون الا نفسه
ووليم بلايك ، وهائفاً في اعماق قلبه «سبحان ربي الذي قادني اليوم الى رودين
يقودني رودين الى بلايك . حقاً ان الامور مرهونة باوقاتنا . فلا يحدث
شيء الا عند ما نقضي الحاجة بمحدوثة . كنت اظنني غريباً في الارض .
واليوم جاءني بلايك ليؤنس غريبي . كنت اظنني تائماً . وها بلايك يسير
امامي . ترى ما هي القرابة التي تجمعنا ؟ ألعل روحه عادت الى الارض
وارتدت جسدي ثوباً ؟ ما كان اجمل حياته واهناًها ! هو لم يعرف من
النساء غير زوجته . وكم كان سعيداً برفقتها - نفهمه ويفهمها . وانا ...
آه لو كان لي مثل زوجته . وما بالي اتأوه وعندي ماري ؟ بلى . ماري .
ماري . سأأخذها زوجة لي وان تكن اسنّ مني بعشر سنين ، وان لم يكن

بيننا تجاذب جسدي كالذي بيني وبين ميشلين . فيكفي ان يكون بيننا
تجاذب روحي . وسأحيا معها حياة زوجية بحثة . وساكون سعيداً عندما
يقول الناس في ما قالوه في بلايك — هو مجنون . الجنون في الفن ابداع .
وفي الشعر حكمة . والجنون بالله اقصى درجات العبادة .»

بدأ الليل يحتل باريس وبدأت باريس ترشقه بنبالها الكهربائية عندما
عاد جبران الى غرفته وتحت ابطه — وفي رأسه وقلبه — ولیم بلايك ، وفي
يده كيس من الورق تعانق فيه رغيف من الخبز مع اوقية من نقائق الخنزير
وعندما دخل غرفته وجد على الطاولة رسالة مختومة تفحص الخط على غلافها
فلم يعرفه . ففضها واذا بها عربية من فتاة لبنانية ما سبق له قط ان سمع حتى
باسمها . وهي تتقدم اليه برسالتها لثين له بعبارتها البسيطة كبير اعجابها به
وعظيم امتنانها له ولتشكر له باسمها وباسم الفتاة الشرقية اجمالاً جهوده في
سبيل المرأة . فقد قرأت « مرتا البانية » و « السيدة وردة » وقرأت كل
ما توصلت اليه من كتاباته فغدت نشوق الى لمس اليد التي خطتها والى
التعرف « بالروح السماوية » التي املتها . وهاهي الآن في باريس . فهل يثقل
على صاحب « الارواح المتمردة » و « عرائس المروج » ان يخصص لها ولو
بضع دقائق من وقته الثمين لزيارته ؟

وضع جبران الرسالة من يده وهو يشعر ان غبطة ناعمة تمشت في دمه .
من سطورها البسيطة وان العظمة التي ينشدها قد بدت طلائعها . ثم اخذ
يسأل نفسه — « ترى من هي هذه الفتاة ؟ أحب قديم يخاطبني بلهجة جديدة ؟
اخطئ من خيوط حياتي يلتقطه الآن مكوك القدر من جديد ليتابع النسيج
الذي ادعوه « انا » ؟ اجميلة هي ؟ اغنية ؟ ها قد بدأت اكون مشعلاً
يستثير به الناس من بعيد . فعلي ان اجعل نوره صافياً . علي ان اكون كما

يتمثلني الناس — نقياً ، طاهراً ، شفافاً ، شفوqاً ، محباً للإصلاح صبوراً على
الآلم ، مترفعاً عن الدنيا . نجني يا رب من نفسي . اغسلني يا رب من اقذارى
اصهر في يا رب في مصهر حقلك .»

وكلمة الحجاب في الليل مرت في ذاكرته كلمات امه « وقانا الله ساعة
التجربة .» وبينما هو في ذلك اذ سمع طريقة على الباب . واذا به الحجاب اتي
ليخبره بان سيدة جاءت تسأل عنه بعد الظهر واذا لم تجده قالت انها تعود في
المساء . ولم تعط اسمها . وبعد ان انصرف الحجاب ندم جبران لانه لم يسأله
ان يصف له الزائرة المجهولة . وقال لعلها الفتاة التي كتبت الرسالة . ثم اخذ
كتاب بلاديك والكيس وجاء بزجاجة من النبيذ الابيض وجلس الى
الطاولة يمزغ بلاديك بعينه وروحه ، بينا اسنانه تمضغ الخبز ونقائق الخنزير ،
وزجاجة النبيذ تساعد في ذلك . فكان في قلبه عرس وفي معدته وليمة .
ما كاد جبران يأتي على آخر لقمة من عشائه حتى طرق الباب ثانية .
فهب اليه وفتح وجد مكانه مشدوهاً وكأن رجليه قد سمرت بالارض .
وبعد فترة من السكون والدهشة صاح باعلى صوته : « ميشلين ! » وجذب
السيدة الواقفة بالباب الى صدره ، وضمها اليه ، وغيب وجهه في ثيابها ثوبها
فوق نهديها . فطوقت عنقه بذراعيها ، والقت رأسها على كتفه . وبقي
كذلك دقائق وهو لا يسمع الا دقات قلبها ، وتمتمة شفيتها « خليل . خليل ! »
وهي لا تشعر الا بمرور انفاسه السريعة الملتببة ، ولا تسمع الا اسمها محمولا
بخفة على لهيب تلك الانفاس « ميشلين . ميشلين ! »

« لقد امرتني فاطعت — ناديتني من وراء المحيط فليت . فانت ، كما
تري ، لا تزال صاحب سلطان علي يا خليل .»
« هو الحب يا ميشلين ، — هو الحب يأمر فنطيع وينهي فنذعن . هو

السلطان ونحن الرعية . من بعض الحب بعض الله . اذ لا اله الا . دعيني
الآن ادنى روعي بشعاع عينيك الجليتين . وارشف الحق من شفثيك
القرمزيين . وأمس الحياة في يديك الناعمين . دعيني اسمع قلبي نابضاً في
قلبك ، وأرى انفاسي راقصة مع انفاسك . لقد كنت كلما مرت السعادة
ببابي قلت - هذا خيالها . وكما سمعت وقع قدميها في بيتي قلت - هذه
جارية من جواربها . اما اليوم - اليوم اسمعها ترفرف وتزقزق في قلبي .
اليوم قد هبطت عليّ مع اشعة الشمس ، ودخلت غرفتي مع النسيم . اليوم
قد حملتني في موكب من نور . اليوم احلف يمناً صادقة انني اسعد الناس .
ميشلين . ميشلين ! أفي حلم نحن ام في بقطة ؟ اليوم اهتديت الى اخت
لروحي ستكون اختاً لروحك ايضاً . روح غريبة عجيبية . روح متفردة
بين الارواح . روح شاعر وفنان انكليزي مات منذ تسعين سنة واسمه وليم
بلايك . سأقرأ لك حياته يا ميشلين - وما اجملها من حياة . وستبصرين
في الحال ان الحياة انتدبتك لتكوني لخليل رفيقة ومعينة مثلما كانت كاترين
لبلايك . وسأريك بعض رسومه واقرأ لك شيئاً من شعره . وستجيبينه مثلما
احبته . ميشلين . ميشلين ! ما اكرم الله ! ما اجمل الحياة ! هذا يوم
كامل - هذا من ايام القدر . وما اجملك يا ميشلين ! هاتي خبريني عن كل
شيء . متى تركت بوسطن ، ومتى وصلت باريس ، وكيف عزمت على
الحيي دون ان تعلميني يا شريرة ؟ سنجعل هذه الغرفة الصغيرة بيتنا . وهي ،
على ضيقها ، ستكون راحة . فحينما كان الحب كانت المسكونة بيتاً له .
اين امتعك ؟

« في النزل . »

« واي نزل ؟ لنذهب في الحال ونأت بها الى هنا . »

« لا ضرورة الى ذلك الان يا خليل . »

« وماذا تعنين ؟ أتكونين في باريس ويكون لك بيت غير هذا

البيت ؟ »

« ليكن قلبك بيتاً لقلبي ، ولا يهمني حينئذ ابن انام ، وماذا آكل

واشرب . »

« حيثما يكون قلبي هناك يكون قلبك ايضاً . ومثلما آكل واشرب

تأكلين وتشربين . الفراش الذي افترشه نفتشين . وباللحاف الذي

التحف تلحفين . »

« آ ، خليل ، خليل ! انا قانعة بان اكون الحصيد تحت رجلك ،

والغبار على حذائك . دعني اخدمك فاغسل ثيابك ، واكنس غرفتك ،

وأعد قهوتك ، واطبخ لك غذاءك وعشاءك . ولكن . . . لا تسلي ان

اكون . . . ان اكون - حظيتك . »

« هذا تجديف يا ميشلين - تجديف على الحب والحياة . ما جمعه الله

حذار ان يفرقه انسان . والله هو الحب . هو الحب يربط ويحل . هو الحب

شد روحنا وجسدنا منذ الازل برباط واحد . هو الحب قال لنا كونا

فكنا . حيثما جمع الحب قلوبين لا ولن نفرقهما كل قوى الانس والجن .

وقلبان لم يربطهما الحب لا ولن تربطهما تعاويذ الف كاهن والف قسيس

وتمتمة الف قاض . حظية - حظية ! رب حظية كانت اشرف في عين

الحياة من الف زوجة قدست رباطها شرائع الارض ورذلتها شرائع السماء .

الحب لا يعرف الا نفسه ، ولا يدين بدين غير دين نفسه ، ولا ينقيد بشرع

غير شرع نفسه . وشرع الحب هو الحرية . كل ما في الارض يحيا بناموس

طبيعته ومن طبيعة ناموسه يستمد مجد الحرية وافراحها . اما البشر فمحرومون

هذه النعمة . لانهم وضعوا الارواحهم الالهية شريعة عالية محدودة . وسنوا
لاجسادهم ونفوسهم قانوناً واحداً قاسياً . واقاموا لميولهم وعواطفهم سجيناً
ضيقاً مخيفاً . وحفروا قلوبهم وعقولهم قبراً عميقاً مظلماً . فاذا ما قام واحد
من بينهم وانفرد عن جامعتهم وشرائعهم قالوا — هذا متمرد شرير خليق بالنفي ،
وساقط دنس يستحق الموت . وانا متمرد يا مبشليين ، وسأبقى متمرداً كل حياتي .
وكيف لا اتمرد على الناس وقد انزلوا الكاهن منزلة الله ؟ ام كيف ارضخ
لشرائعهم الفاسدة وقد اخضعوا ناموس الحب والحياة لناموس البطن واللذة
واللياقة ؟ انا شاعر وفنان يا مبشليين . والشعر والفن ما لم يسرحا في فضاء
فسيح طليق مآتا بداء السل . ومن ثم — وانت تعلمين ذلك يا مبشليين —
فانا ادرس هنا على نفقة البعض من اقربائي واصحابي . فلو رضيت ان اتقيد
بشرائع الناس وان اتخذك زوجة برضى السلطة الدينية والمدنية — كأن
رضى الله لا يكفي — لما تمكنت من ذلك . اذ لو درى اقربائي واصحابي
بالامر لقطعوا غني معونتهم . »

« بل قل — لو درت هي بالامر . »

« مبشليين ، يا شريرة . لا تقاطعيني . »

« ولو درى — انقل اقرباؤك واصحابك — بانك تساكن امرأة ليست

زوجتك . أفما كانوا يقطعون عنك معونتهم ؟ »

« لا . لا . لا . يستحيل ان يدروا . فهم في بلاد ونحن في بلاد . »

« والحياة التي تؤمن انت بها يا خليل ، ونقول ان لها عيناً تبصر كل

شيء ، واذنآ تعي كل شيء ، اهي كذلك في بلاد ونحن في بلاد ؟ ويسوعك

الذي قال « ليس خفي الا يظهر » — اهو كذلك في بلاد ونحن في بلاد ؟

ورفيق روحك الجديد — وليم بلايك — الذي كان شاعراً وفناناً وكان ،

مع ذلك ، زوجاً صالحاً واميناً - اهو في بلاد ونحن في بلاد ؟ بل قل انت في بلاد يا خليل وميشلين في بلاد . انت خلقت للشعر والفن وانت تعتقد الشعر والفن من السماء . وانا - كما قلت لي مرة - من التراب والتراب . وقد كنت اظن في بساطة قلبي ان التراب الذي ينبث القمح المغذي والزنبقة الطاهرة والوردة الجميلة يصلح كذلك تربة للشعر والفن . فما كان اجهلني ! ما كان اغباني ! ما كان اشد عمامي ! »

ووثبت ميشلين الى الباب شاهقة بدموعها وانحدرت عن الدَّرَج بسرعة لم تر معها الدرجات ولا عرفت اين كانت تقع قدمها ولا الى اين كانت تقودها . اما جبران فظل مكانه ، وقد امتنع لونه ، وحجبت عيناه ، وهرب قلبه من صدره ، واختلطت عليه مشاعره وافكاره . ثم احس برجفة في اعصابه وبضعف في رجله وبسيل من الدموع يحاصر مقلتيه . فارتقى على فراشه واخذ وسادته بين ذراعيه وضمها الى صدره وراح يروّيها بدموعه ، وصوت في داخله يقول : « هي النهاية . هي النهاية . لقد نحرت حبك على مذبح شهوتك يا جبران . انت مصاب بداء الكلام يا جبران ولائك تحجل من كل ما فيك من ضعف بشري تعكف عليه فتستوره بحلة من الكلام الجميل والالوان البهجة . والكلام الجميل لا يرفع الشناعة الى مستوى الجمال . والالوان البهجة لا تصبغ الضعف قوة . وقولك ان الحب هو الله لا يجعل الشهوة الجسدية الهاً ولا اللذة الحيوانية ناموس الحياة . » فيجيبه صوت آخر : « سترجع . سترجع . لقد فعلت هذا قبل اليوم ورجعت سترجع . » - لكن ميشلين لم ترجع

في صباح اليوم التالي تلقى جبران رسالة تنعي اليه وفاة ابيه في بشري

سكره؁ ثم صحوة؁ ثم سكره

حياة الانسان على الارض سكره دائمه؁ وليس يصحو منها قبل الموت الا القليل من ذوي الخيال والالهام . وصحوة هؤلاء يندر ان تدوم سنوات متواليه؁ كصحوة بوذه ويسوع . واكثرها لا يتعدى فترات قصيرة من الزمن يفلت فيها الخيال من اشراك البدايات والنهايات؁ والحدود والفواصل؁ والاسباب والنتائج؁ والخير والشر وكل اصناف المتناقضات؁ ويسبح في جو لا خصام فيه بين « انا » و « غير انا » اذ ليس فيه الا « انا » واحده؁ شاملة؁ لا متناهية

من فكر الى فكر؁ من لذة الى الم؁ من شبع الى جوع؁ من ضعة الى رفعة؁ من فوز الى فشل؁ من هم الى هم - سكره تلو سكره تلو سكره . في مثل هذه الاقداح يغيض الناس ايامهم ولياليهم . وهم يحسبون ما يشربونه سلافة الحياة . وكرمة الحياة براءة منه . فما هو الا من معصرة اوهامهم القائلة ان نصف الحياة شهد ونصفها الآخر حنظل . وان غايتهم القصوى من الوجود هي ان يسرفوا من الحياة شهدها ويتركوا حنظلها . ولمن يتركونه ؟

كان جبران واقفاً وحده عند مقدمة الباخرة بطريقه من اوربا الى اميركا . وكانت الريح تلعب بشعره وتبلل وجهه برشاش الامواج؁ والشمس المائلة للغروب قد اتخذت من الغيوم ادهاناً؁ وجعلت من الافق البعيد منصباً؁ ومدت عليه خامه لا حد لها؁ وراحت ترسم عليها من

الاشكال والالوان ما تعجز عنه كل فرشاة الا فرشاة الشمس السحرية . فمن مروج ذهب ترعى فيها قطعان من الخلائق التي لا تعرفها الارض ، الى جبال ثلجية تحمل على رؤوسها بحيرات من نار ، ومن هياكل مقبية . نسل من بين اعمدتها جبال من البخور والنور ، الى كهوف تتمايل في مداخلها العابسة اشباح جبابرة واقزام ، ومن حوارٍ ترقص في غابات من المرجان ، الى عجائز نندب في مقابر ، ومن ننانين فاغرة افواهها وحيتان رافعة اذانها ، الى عروش لا سلاطين عليها ، ومركبات جيادها بمنحاة ولا اعنة لها . - رسوم تدهنها الشمس بلحظة ، وبلحظة تغير اشكالها وتبدل الوانها ، وتظل كدوب من السحر تشربه العين فلا ترتوي .

لكن جبران كان ينظر الى ما تصوره الشمس امام عينيه فلا يبصر الا اشباحاً يطرحها فانوس الذاكرة على لوحة الافق بسرعة اين منها سرعة الشمس في تنيق الغيوم . فكان قلبه يعجب بماثيره تلك الاشباح من غبطة راحلة وألم مقيم . وفكره يحاول ان يختلس من الغد بعض اسراره ، ويمحو من الماضي الكثير من آثاره . ومن الآثار التي يود لو يمحوها علاقته مع تلك الفتاة اللبنانية التي كتبت اليه مرة تبدي اعجابها به ورغبتها في التعرف اليه . ومن الاسرار التي كان يود ان ينشلها من حقيبة الغد سرّاً ما يرح يعذبه منذ ادرك ان طريق الفن طريقه . فمشى فيها وترك كل طريق سواها وهو سرّ المعيشة - من اين يأتي بالمال ليعيش بشرف ويريح مريانا من الابرّة والخيط ويستغني عن مساعدة ماري ؟ أم من شق قلبه ام من شعور فرشاته ؟

كثير هم الذين يعيشون في اميركا من فنههم . لكن اكثرهم تجار لا فنانون . والفرشاة في يدهم جارية للدولار في جيب جارهم . اما الذين

يكسبون من فئهم دون ان يجعلوه سلعة فلهم شهرة واسعة تساعدهم على الكسب . والشهرة مومسة - ان استرضيتها كنت دونها . وان سنجتها مالت عنك الى الذين يسترضونها . فهل يستطيع ان يستميلها من غير ان يعقر امامها جبين أنفته وجبين فنه ؟ لكنه ، ربثا يستميلها ، من اين وبماذا يعيش ؟

والقلم - كيف له ان يعيش من شقه ؟ لقد استلفتت كتاباته انظار العالم العربي ، ونقلت بعضها باعجاب مجلة رزينة كمجلة جرجي زيدان واطلقت عليها اسم « الشعر المنشور » . غير ان العام العربي عالم فقير ، وقد لا يكون فقيراً ، لكنه لا يدفع اجراً الا للذين يملأون فراغ بطنه . ويسترون عري جسده . اما الذين يعصرون ارواحهم وقلوبهم خراً ويقدمونها اليه فلا يقبلها منهم الا اذا قدموها في طاسات من جماجمهم . ولا يدفع عنها اجراً سوى « بُحْ . بُحْ . بُحْ » و « نِعْماً . نِعْماً » كأن « بُحْ » و « نِعْماً » تكفيان غذاءً للحم الكاتب ودمه وعظمه !

ها هو ، بعد ثلاث سنوات قضاها في باريس وزار في خلالها رومة وبروكسل ولندن وما فيه من متاحف وآثار فنية ، يشعر كأن قلبه يكاد ينفجر لوفرة ما فيه من العواطف التي بإمكانه ان يبرزها الى الناس في اكسية بهية . وكأن خياله ارض بكر رواها الغيث فاستفاق كل ما كان هاجماً في احشائها من عجائب وغرائب وهو الان يتحفز لتزيق ما حو اليه من اغشية لدرج بالوانه المختلفة حياً وجميلاً وحرراً تحت الشمس . فكيف له ان يفرج عن قلبه فيسكب عراطفه في قوالب شعرية ، اذا كان فكره تائهاً في صحارى المعيشة يفتش عن الريال ولا يجده ؟ وكيف يتاح له ان يستغل ما في تربة خياله الخصبة من قصائد ورسوم ، ما دام صاحب البيت

لا يقبض شعراً منشوراً اجرة بيته . وشركات النقل والتوزيع ، والخباز
واللحام والاسكاف وبائع الاكسية والحلاق لا يرضون بالرسوم الفنية
تقدراً ؟ أو تخنق الحاجة الى الدولار حاجته الى الافصاح عما في كيانه من
عوامل ذاخرة ، نائرة ؟

عنده مريانا وابرتها وخيطها . وهي بالكاد تكفي نفسها حاجاتها البسيطة
أفيري ان يأكل رغيفه ، ويلبس برنيطته وحذاءه من ثقب ابرة مريانا ؟
والى متى يفعل ذلك ؟ مريانا في السادسة والعشرين . وكان من الواجب ان
تتزوج . لكنها ، من فرط حبها له ، ان تتزوج ما زال هو في حاجة الى نتاج
ابرتها وخيطها . فهل يرهن مستقبلها وحياتها لمستقبل فنه وحياته ادبه - وذلك
وهذه ما يزالان في ضباب ؟ الا تباً للناس كيف شوّها الحياة فقلبوها
رأساً لعقب ! ربّ ملاكم يثقلون جيوبه بالذهب ، وصدره واصابعه بالجواهر
ويتركون ذا الهام يغصّ بالهامه ، ويذبح خياله بسكين الجزار ، او يحرقه في
فرن الخباز ، او يشنقه على مصرع الباب لان ليس في يده ما يدفعه اجرة
عن الباب ! ولو عرف الناس قيمة الالهام لقالوا لذويه : لا تهتموا بما تأكلون
او تشربون او تلبسون واين تسكنون . اعطونا من الهامكم وكل ذلك
تقدمه لكم مجاناً .

غير ان الناس لا يعرفون قيمة الالهام والملمحين . فاين المهرب ؟ ما كان
انعم باله من هذا القبيل في باريس . فالخمس والسبعون دولاراً التي كان
يتناولها من ماري في كل شهر كانت تقوم بمحاجاته وتفيض عنها . حتى انه
كان يرسل الى مريانا بعضاً منها . اما الآن فمدة الدرس في باريس قد انتهت
والمعونة المادية من ماري ستقطع بلا شك . وامامه جهاد عنيف وطويل
قبلاً يصبح معروفاً في عالم الفن ، في بلاد شاسعة كأميركا ، فيمكن من ان

يستدرّ معاشه من فنه . فماذا العمل ؟ واين الملجأ ؟

هناك ماري . وهي تحبه ، وتقدر مواهبه ، وتفهم اشواقه ومطامحه ،
ولا تجاسبه بضعفه ، ولا تدينه بائمه . هي امرأة ولكنها ليست امرأة ، فلا
اثر في روحها لغيرة النساء ، ولا في قلبها لشهواتهن . لكنها لم تصنع من
ضلع الرجل ، بل جبلت من شرفه دون قساوته ، ومن عفة المرأة دون ضعفها
هو يحبها . لكن بغير الحب الذي احب به ميشلين . ياليتها لم يعرف ميشلين
ولا غيرها من النساء قبل ان عرف ماري ! اذن لا كتفى بحبها الطاهر ،
ولبادلها حباً منزهاً عن عواصف اللحم والدم . أوليس في استطاعته ان يفعل
ذلك الآن ، فينفرغ بكليته الى التصوير والكتابة ، تحت جناح ماري
الدافئ ، وبرعاية فكرها النير وقلبها الخنون ؟ علام لا ، وهو بحاجة الى
من يؤنس وحدته ، ويخفف من وحشته ، ويرفع عن صدر خياله كابوس
الحاجة ، ويعتقه من الاهتمام بصغائر المعيشة ؟ وماري حريصة كل الحرص
في ما يتعلق بالمعيشة . والفلس في يدها اقوى من الريال في يد غيرها .
عندها مدرستها ، ولها منها مورد رزق لا بأس به . فليصل حياته بمجياتها —
ليتخذها رفيقة شرعية — ولتبقَ هي في مدرستها ريثما يصبح قادراً على القيام
بم حاجاتها وحاجاته . ولنصرف هو الى فنه . والاقتضل ان يتخذله مقرأ في
نيويورك . فالجمال هناك اوسع منه في بوسطن . بلى . بلى . ليكون كذلك
ما بلغ جبران هذه النقطة من تأملاته حتى احس بتخدر في دماغه كانه
جرع كمية وافرة من المسكر . فبرز رأسه كن به دوار ، وفرك عينيه كن
يفيق من حلم مزعج . فرأى امامه البحر الهادئ كأنه ملاءة زرقاء وقد
شدّت اطرافها بشواطئ لا تبصر ولا تحدّ . وكأن ربوات من ارواح اللجة
ترقص تحت هذه الملاءة ، فترفعها قليلاً هنا ، وتخفضها هناك . ورأى

اذيال الغيوم النديّة تشتعل اذ تلامس اذيال الشمس . واحس بالريح التي تداعب شعره ووجهه كأنها انفاس كل الازمنة — ما غبرَ منها وما زال مكتوماً . ففتح لها صدره وراح يجرع منها جرعات . وكلما جرع جرعة قال :

« ادخلي . ادخلي بكل ما فيك من بركات الحياة وويلاتها . انت ابنة الريح التي حملت روح الله حين كانت الارض خاوية خالية وعلى وجه القمر ظلام ، وروح الله يرف على وجه المياه . وانت الان تحملين كل ما تنفست به الارض والسماء . منذ كانت الارض والسماء حتى الساعة . فادخلي . ادخلي الى اعماقي . واجعليني شريكاً لكل ما على الارض وفي السماء . »

وجمع به الخيال فصار اذا ما فكّر بالنور في عينيه قال — هو من الشمس . فالشمس فيّ وانا فيها . — او بالبحر ، قال — من البحر ارتوي . فالبحر فيّ وانا فيه . — او بالارض ، قال — من الارض اغثمني . فانا الارض والارض انا . وكأنّ ستاراً أزيح عن بصيرته . فرأى ذاته مثل محور يدور عليه كل شيء . او مثل نقطة الدائرة تفرع منها شعاعات لا تخصي الى كل اطراف الدائرة . ورأى ان قلبه يلامس كل قلب . وفكره يجاور كل فكر . فعجب لنفسه كيف انه ، منذ دقائق قليلة ، كان يقرض قلبه ويرهق فكره ويكبل خياله بهوم المعيشة . وها قلبه يرقص الان مع ارواح اللجة تحت ملاءة البحر الزرقاء . وها فكره يدرج عليها . ويتسلق حبال النور المدلاة من الغيوم اليها . وها خياله ينشب من افق الى افق ، ومن سماء الى سماء ، واصلاً المنظور بغير المنظور ، وما كان بما سيكون . مبصراً ان نهاية كل امر هي بداية آخر ، وبداية كل امر نهاية سواء . فلا بداية لشيء . ولا نهاية لشيء . ولا بداية ولا نهاية للواقف عند مقدمة الباخرة — جبران خليل

جبران • ولا فاصل بينه وبين شيء • ولا عداوة بينه وبين اصغر او اكبر ما
في الكون • بل كل ما في الكون يناديه « انت ابني الحبيب »
دق الناقوس يدعو الركاب الى العشاء • فاجفل جبران مكن كان ماشياً
وحده في حديقة سحرية ونجاة سمع رعداً يقصف فوق رأسه
وكان الافق قد اكمد ، والليل قد شد اوتار قيثاره بالنجوم وراح
يوقع عليها نشيد الموت والحياة • فمشى جبران بخطوات متباطئة نحو غرفة
المائدة • وبخطوات متباطئة عادت افكاره الى خمارة المعيشة وعادت تجرع
فيها اكواباً من حلاوة الامل ومرارة الهم

نحن بالتفكير

كانت لما ريها سكل ، قبل ان اشتبكت حياتها . بحياة جبران ، كرمة واحدة - هي مدرستها . وكانت لتعهدا بكل ما في فكرها من المقدرة وقلبا من الحنان . اما بعد ان عرفت جبران ، وارسلته على نفقتها الى باريس فاصبحت ولها كرمتان . وكان جبران كرمتها الثانية . وكانت كرمتها الثانية احب الى قلبها واقرب الى فكرها من الاولى . فالمدرسة ، مهما تعددت مشاغلها واتسع نطاقها ، تبقى مدرسة تسير على برنامج محدود : اجيال تأتي واجيال تروح . صفوف . دروس . امتحانات . شهادات ثم عطلة . والذي يجري في سنة يجري مثله في التي بعدها . حين ان جبران لانطاق له ولا برنامج للقوى التي تغلي وتغور في داخله . فما جلست واياه مرة ، واصغت الى حديثه ، ونفرت في وجهه ، وتأملت حركاته الا احست بخمر جديدة تدب في افكارها ، وباجنحة قوية تطير بخيالها ، وبسلمات منعشة تهب على روحها من عالم بعيد غريب . وما فكرت بوحدته وضيق حاله ، واندفاعه مع مطامحه وآماله الا مشى قلبها اليه ، ولذ لها ان تنفق من روحها وجيبها عليه . فما عادت تعرف اهي المحبة تربطها به ، ام الاعجاب يدينها منه ، ام الشفقة نفتح قلبها له . غير انها ، كيفما تفقدت عواطفها نحوه ، وتغلغلت في افكارها عنه ، لم تجد للشهوة الجسدية فيها اثرأ . لانها ، حتى عودة جبران من باريس ، ما احست بجاذب جسدي الى رجل قط . ولم تكن تدري ان تعبط لذلك ام تحزن ، اتحسبه نقصاً في نسوتها ، ام زيادة في قسمتها .

لم يكن يتعب ماري في علاقاتها مع جبران غير امر واحد . وهو انها وجدته كثير الشكوك ، شديد الحرص على شخصيته ، يخشى عليها ان تمس باقل ملاحظة او اشارة . حتى انه ليستعدي صديقاً وفيّاً من اجل كلمة بريئة قد يخيّل اليه ان فيها مساً بكرامته . ويستصدق عدواً لدوداً اذا سمع منه او عن لسانه كلمة اطراء . وبقدر ما يستمر النقد من اي نوع كان ، يستعذب المديح مهما كان مصدره ، ويفعل المستحيل للحصول عليه . ثم انه ، لشدة نهمة في المديح وخوفه من النقد ، ولانه تعود التفكير والكلام والكتابة والتصوير بالمجاز ، كان يستخلص من الكلمة الواحدة معاني كثيرة حيث لا يستخلص سواه غير معنى ، ويقرأ سطوراً في سطر ، ويصبر الوائاً عديدة حيث لون واحد لا غير .

اما هي — ماري — فمن طبعها البساطة والصراحة في كل شيء : في الفكر ، والكلام ، والمعيشة بكل مظاهرها . فهي لا تخجل من ان تقول الحق وان كان عليها . ولا تلبس منطقها اكسية مزر كشة من المجاز . ولا تضمّر نيات او معاني غير ما تؤديه بكلامها . لا تداجي ، ولا تحابي ، ولا تسمي الاشياء بغير اسمائها . لكنها ، بعد ان خبرت جبران وميله الى التملق والمواصلة ، وتبرّمه من الصراحة اذا اشمّ فيها ما قد يحسبه محطاً بكرامته . اصبحت تخشى على علاقاتها معه ان تعبت بها كلمة من كلماتها السليمة النية ، او اشارة من اشاراتها الصريحة الودية . ولم تشأ — بل لم يكن في مقدورها — ان تغير اطباعها فلا تقدّم يدها الى جبران الا مقمطة بالحرير ليستنعم ملمسها ولا تخاطبه الا بكلمات مطلوبة بالسكر ليستعذب مذاقها .

على اثر عودته من باريس زار جبران ماري هاسكل . فاستقبلته استقبال فاتح . وقبلته بقبلتها التي دعاها في احد مقالاته « مريمية » وراح

يخبرها عن كل شاردة وواردة فاتة ان يخبرها عنها في رسائله . وكان اغلب حديثه عن نفسه — عن كبار الفنانين والادباء الذين التقاهم في باريس وعن رأيه فيهم وما قالوه فيه . عن الرسوم التي انهاها وجاء بها الى بوسطن والرسوم التي ابتدأ بها ولم ينهها . وعن كتاباته العربية وما أحدثته في العالم العربي من تأثير . عن المدن والمتاحف والآثار الفنية التي زارها ، والمعارض التي اشترك فيها . وكان ينمق الجليل من افكاره واعماله فيظهره اجمل مما هو . وينسج للضعيف والباغت منها اكسية من المجاز فيبدو الضعيف قوياً والباغت زاهياً واذا ما جهت به الذاكرة فخرته الى مشهد من مشاهد حياته الباريسية التي كان يخجل من ان تقع عليها عين ماري ، محاذ ذلك المشهد بادهان من الصمت اذا تعذرت ادهان الكلام ، وتخطاه الى آخر يروقه وصفه ويروقه ان يرى ماري معجبة به ، مرتاحة الى معانيه .

منذ ابتدأ جبران بالحديث وفي فكره ، وبين شفثيه ، كلمة تهم بالوثوب فيردعها قائلاً لها : تبصري . تبصري . لم تأتِ ساعتك بعد . لعلك اكبر كلمة افوه بها في كل حياتي . وقد احيا لابر كك او لالغتك . اما الاذن الذي سنقعين فيها فسنقتبلك كما اقتبل العبرانيون المن من السماء . بلى . فهي لا شك غرثى اليك . وستعلم ماري ان جبران يعرف قيمة الجليل اذا رافقته المحبة . وقدر المحبة اذا تجردت من محبة الذات . انت كلمة كبيرة . وقد تغيرين مجرى حياتي باسرها . تبصري . تبصري . ريثما أعدك لك مسرحاً يليق بك .

ظل جبران يحدث ماري ويترصد الفرص لاطلاق سراح الكلمة التي في فمه الى ان وقف الحديث عند حد يستدعي الصمت والتفكير . واذا احس ان جليسته تبادت في التأمل اخذ بجفاة يدها بيده ، وشد عليها ، ورفعها

باحترام كلي الى شفثيه قبلها . ثم اغمض عينيه ، وبصوت كأنه صوت
القدر يلمن سرّاً عظيماً من اسرار الوجود ، قال :

« ماري ! اتمشين معي ؟ »

فاجفلت ماري واستغربت الانقلاب السريع في صوت جبران
وحر كانه واجابته مستفهماً ، وهي لا تعلم لماذا سألها مثل هذا السؤال ولماذا
تستفهم معناه :

« الى اين يا خليل ؟ »

« الى حيث تدخونا الحياة . »

« أو تعني الزواج يا خليل ؟ »

« نعم . هل تقطين معي الطريق حتى النهاية ؟ »

« وببساطة الطفل ، وصراحة لا سلاح في يديها لكنها ، مع ذلك ،
تتزع السلاح من يد من ينازلها ، اجابت ماري والدهشة لا تزال بادية على
وجهها وفي صوتها :

« وهل انت نظيف يا خليل — هل جسمك نظيف ؟ »

فهم جبران في الحال ما عنته ماري بسؤالها . فقد قصدت ان تعرف
اذا كان خالياً من الامراض الخبيثة . لكنه بلمحة طرف انقلب من حبل
وديع الى اسد جريح ، ومن ساروفيم يرنم امام عرش الحب الى ملاك تكبر
على الله فطعنه الله في صميم كبريائه . فاربدت وجهه ، وارتجفت شفثاه ،
وتوترت اعصابه ، وتخدر دماغه ، وانعقل لسانه . حتى انه ، لشدة انفعاله ،
تمنى لو كان قطع لسانه قبل ان طرح على ماري سؤاله وسمع سؤالها .

لقد اتى جبران سؤاله على ماري ، وفي اعماق اعماقه امنية لا يجرأ ان
يبوح بها حتى لنفسه . وهي ان تصدر من ماري كلمة او تبدو منها حركة

يتمكن معهما من الانسحاب « بنظام » . فيبقى طليقاً من زواج يدفعه عليه عقله ويحجم عنه دمه . ويكون ، في الوقت ذاته ، قد زاد في اعتبار ماري له وتعلقها به . وصفى حساباته معها . فتركها مدينة له بدلاً من ان يكون مديناً لها . لأنها ، ان تكن انفقت عليه من مالها ، فما هو ينفق عليها من روحه ، ويعرض ان يرهن حياته لحياتها وسعادته لسعادتها . غير انه ما كان قط يتوقع منها مثل ذلك الجواب . فهو وان اتفق مع الامنية الصامتة في قلبه ، لم يتفق مع تقديره لنفسه وتقديره لمحبة ماري له . فقد كان يظن تلك المحبة ارفع من محبة الذات ، لا تخشى النار ولا العار في سبيل محبوبها . وكان يظن ان جبران خليل جبران اذا ما لمح تليحاً الى امرأة ما ، كائنة من كانت ، انه يرضى بها رفيقة لحياته جعلها اسعد النساء . وها هو يعرض حياته على ماري — « حبيبة نفسه » — فتباغته بسؤال لو باغته بمثله امرأة سواها لبصق في وجهها ، او ادمى فيها ، مع كل ما فيه من تأدب واحتشام . كيف تجسر امرأة — وماري من بين كل النساء — ان تشك في « نظافته » ؟ انها لقحة ما بعدها قحة . انها لطعنة نجلاء في كبد كبريائه .

انها الملمة صماء

انصرف جبران من عند ماري هاشكل وقلبه في ديجور ، وفكره في بر كان . اذا مرت به اشباح ماضيه رآها ذليلة واهنة . او تراءت له خيالات مستقبله وجدها قائمة عابسة . او فكر بما كان بينه وبين ماري تلك الليلة شعر كأنه خاض أكبر معركة في حياته وعاد منها مدحوراً ، مهشماً . وكلما استعاد لذاكرته ما قال وما سمع اكل قلبه الندم على كلمة قالها وما كان من

الحكمة ان يقولها . او كلمة لم يقلها وكان من الواجب ان يقولها . ماذا العمل ؟
 استخف به ماري الى هذا الحد وبقي صامتاً ؟ أتجرحه مثل هذا الجرح البليغ ولا
 يجرحها ؟ يقطع كل علاقاته معها ؟ ولكن كيف يجرحها الا اذا جرح نفسه
 جرحاً بلغ من الذي جرحته ؟ ام كيف يقطع علاقاته معها الا اذا قطع
 علاقاته مع كل ما هو جميل في ماضيه ، شفاف في احلامه ، باسم في مستقبله ؟
 لقد كتب لها وفيها اشياء كثيرة لو جاء اليوم ينقضها لكذب نفسه بنفسه
 وجعل من قلبه سخرية لدماغه . أو لم يخاطبها في مقاله « الطفل يسوع والحب
 الطفل » هكذا ؟ :

« في ليلة واحدة ، بل في ساعة واحدة ، بل في لحظة واحدة لتنتجى عن
 سنيّ حياتي ، لانها اجمل من سني حياتي هبط الروح من وسط دائرة النور
 الاعلى ، ونظر اليّ من وراء عينيك ، وتكلم معي بلسانك . ومن تلك النظرة
 وهاتيك الكلمة انبثق الحب وحل في اعشار قلبي . . . هذا الحب العظيم الجالس
 في هذا المدود المنزوي في صدري . . . هذا الرضيع المتكى على صدر النفس
 قد جعل الاحزان في باطني مسرة ، والياس مجداً ، والوحدة نعيماً . هذا الملك
 المتعالي فوق عرش الذات المعنوية قد اعاد بصوته الحياة لايامي الميتة وارجع
 بلامسه النور الى اجفاني المقرحة بالدموع ، وانتشل يمينه آمالي من لجة
 القنوط . »

فكيف يحو اليوم ما كتبه الامس ؟ يقضي على حب ماري مثلاً قضي
 على حب ميشلين ويعود الى وحدته ، وبأسه ووحشته ؟ بل الافضل ان
 يكتب اليها رسالة ضافية فيها صلابة وترفع وتفجع . لا بل الافضل ان
 يعتصم بالصمت فلا يكتب ولا يتكلم . وبعد نزاع عنيف تغلب الصمت
 على الكلام .

بعد ايام كان جبران - وقد التأم جرحه ، وثاب اليه رشده - يفكر في توافه المعيشة التي تتضخم في بعض الاحوال وتنفخ الى حد ان البصر ، كيفما دار ، لا يرى الاها . والبصيرة ، اني تغفلت ، لا تلح سواها . فتصبح وكأنها من الحياة لبها . وكل ماتعها قشور . من تلك التوافه اختلاق عذر لصاحب البيت اذا جاءك في مطلع الشهر يطلب اجرة بيته وليس في جيبك فلس يحتك بفلس . وفيما هو كذلك اذا بموزع البريد يدعوه فيناوله رسالة . واذا بالرسالة من ماري وفيها حوالة بخمسة وسبعين دولاراً . واذا بماري تخاطبه بلهجتها المعتادة ، وبمحببتها السابقة ، كأن لم يحدث بينهما شيء جديد على الإطلاق .

ما اتى جبران على آخر الرسالة حتى فاضت عواطفه من عينيه وانجلت آفاق فكره . فراح يمجّد الحياة ويعجب لمجاريها الخفية ، وللناس الذين لا يعرفون عن تلك المجاري شيئاً ، ومع ذلك لا يفتأون يحدّدون ويختطّون مجاري حياتهم ، ويشقّون عند ما تعبت الحياة الكبرى بحدودهم وخططهم وتجرحهم في مجراها الاوسع . الم يرسم هو لنفسه خطة منظمة للزواج ؟ لقد كان بإمكان ماري ان تقول « نعم » . او ان تبدي له ما يخامرها من الخوف بطريقة لطيفة لا تجرحه . واذا ذلك لاتخذت حياته مجرى جديداً . ولكن عما قريب مربوطاً بامرأة واحدة حتى آخر حياته . لكن ماري ، بسؤال بسيط ، حوّلت مجرى حياتها وحياته . وماري لم تكن مخيرة في ذلك بل مسيرة . فقد ألهمت ان تقول ما قالت ، وقد ألهم ان يفعل ما فعل . فكان ما كان لخير الاثنين .

بعد عام لعودته من باريس ودَّع جبران بوسطن قاصداً نيويورك .
وكان يحمل في اذنيه انتخاب مريانا ، وفي عينيه دموعها . وفي قلبه محبة ماري
وبركاتهما ، وفي جيبه قسماً من مالها . وفي حقيبته نسخة مخطوطة من روايته
« الاجنحة المتكسرة » ونسخة مطبوعة من كتاب نيتشه « كذا تكلم
زردشت » .

=====

=====

=====

=====

تخصت الفأرة فوادت جبلا

في سنة ١٦٢٦ ميلاد القائل «مجاناً أخذتم ، مجاناً أعطوا» جاس الفلس على عرشه ونادى باعوانه ثم خطب فيهم هكذا :
« منذ سلمني الناس مقاليدهم وانا ادأب النهار والليل في سبيل اسعادهم واجترح العجيبة بعد العجيبة لانقذهم من بؤسهم وشقائهم .
« سمعتم يشكون تبليبل السنهم . فابتدعت لهم لساناً واحداً وذلك اللسان انا . انا هو الحرف والمقطع والكلمة وحيثما اجتمع اثنان باسمي ثفاهما في الحال وان يكن الواحد لا يفقه حرفاً من لغة الآخر . تلك هي العجيبة الاولى .

« ورأيتم نلتناشهم ارباب كثيرة . نفلقتم لهم رباً واحداً . وذلك الرب انا . انا هو الوزن والميزان والدين والديان . وانا يعبدني الناس بكل قلوبهم وكل افكارهم وكل نياتهم . اما اربابهم الآخرون فيعبدونهم بشفاهم لا غير . تلك هي العجيبة الثانية .

« ووجدتهم يسلكون الى السعادة شتى المسالك . ويطرقون شتى الابواب . فهديتهم الى مسلك واحد هو انا . والى باب واحد هو انا . انا هو المدخل والمخرج . وانا الطريق والمهجة . تلك هي العجيبة الثالثة .
« وساكنت الناس وآكلتهم وشاربتهم فوجدت سلطانهم لا يساكن راعي اغنامهم . وابن اميرتهم لا يؤكل ابن جاريتهم . وقسمهم لا يشارب زانيتهم . وسمعتهم يتبرمون من ذلك ويطلبون المساواة . فوضعت على

اعناقهم نيراً واحداً . وذلك النير انا . انا هو النير والمحراث والحارث . تحت
نيري يمشي السلطان بجانب الراعي . وابن الاميرة بجانب ابن الجارية . والقس
بجانب الزانية . تلك هي العجيبة الرابعة .

« ودخلت قلوب الناس فالفيتها مرصوفة بالشهوات ولا رصف الحب في
الرمانة . والفيت الناس قد قسموا شهواتهم الى صالحة وطالحة . فاطلقوا
الحرية للاولى واقاموا على الثانية الحراس والحجاب . وظلت قلوبهم تصرخ
اليّ باسم الحرية . اذ ذاك جعلت لكل شهوة ثمناً . وجعلت ثمن الشهوة الطالحة
اضعاف ثمن الصالحة . فاختلط حابل الناس بنابلهم . وهكذا حررت قلوبهم
من قلوبهم . وتلك هي العجيبة الخامسة .

« ومشيت في الارض فوجدت ان الناس قد تقاسموها بالفتر والقيراط .
واقاموا لقسماتهم حدوداً . واقاموا السيف حارساً لحدودهم . فلا يتعدى جاره
حدود جاره . ولا تعبر جنود مملكة نخوم اخرى الا بقصد الفوز . فاقمت
للناس عبارة تصل الحدود بالحدود وتمزاً بالسيوف والجنود . وتلك العبارة انا
انا هو العابر والعبارة . امرٌ حيث السيف لا يجسر ان يلمع . واعبر حيث
الجيش ترتد من وجه المدفع . تلك هي العجيبة السادسة .

« اما العجيبة العجيبة فهي اني قد مزجت الناس في بوتقة واحدة . فجعلتهم
جنساً واحداً وكانوا اجناساً . وامة واحدة وكانوا امماً . بل قد جعلتهم لحمًا
واحداً وعظماً واحداً ودماً واحداً . لاني جعلت طعامهم واحداً وشربهم واحداً
وكذلك كساءهم ومأواهم .

انا هو الطعام والشراب والكساء والمأوى . ومثلما يشرب الناس قطرة
من الماء جاهلين انهم يشربها يشربون كل اصناف التراب والمعادن والنبات
والحيوان والاقدار التي مرت بها ، كذلك يقبضون الفلس وابتاعون به

طعاماً وشرباً وكساءً ومأوى وهم لا يعلمون ماذا يأكلون ويشربون ويلبسون
والى اين يأوون . اليكم هذا المثل :

« في الليلة البارحة باعت امرأة اشواق قلبها التائه واهتزازات دمها
المحموم بكمية من الفلوس . والامرأة تلك تدعى في قاموس الناس بغياً ، وفي
شرعهم آفة ، وفي ناموس شرفهم قاذورة يتجنبها الشرفاء والانقياء . وفي هذا
الصباح انطلقت المرأة الى الكنيسة فابتاعت ببعض فلوسها بخوراً للكنيسة
وقدّمت البعض تزكية الى الكاهن . اما البخور فاحرقه الكاهن تسبيحاً
لربه . واما التزكية فابتاع بها لحم ضأنٍ واكل منه واطعم عياله . أو تحسبون
ان ذلك الكاهن ، عند ما احرق البخور لربه ، احرق نزيز جرح في قلب
شجرة عطرة ؟ الحق اقول لكم انه لم يحرق لربه سوى نزيز جرح في قلب
بغى . ام تظنون انه اكل وعياله لحم ضأن ؟ الحق اقول لكم انه لم يأكل
وعياله سوى لحم بغى . ولم يشرب سوى دم بغى . واي الامرين اصعب : ان
يؤاكل الكاهن البغى ويشاربها ام ان يأكلها ويشربها فيصبح الاثنان لحمًا
واحداً ودماً واحداً ؟

« اليكم مثلاً آخر :

« امس دخل لص على ارملة عجوز وكان قد سمع انها تحمل في عنقها
كيساً من الفلوس . فادها بطعنة مديّة وانشل الكيس من عنقها مغسوساً
بدمها . وراح ليلته فقامر بالمال وخسره . والذي ربحه منه ابتاع به ثوباً من
عند تاجر . والتاجر دفعه ضريبة للجزينة . والجزينة دفعته راتباً للقاضي .
والقاضي حكم على اللص بالشنق . أو تحسبون القاضي اكثر براءة من اللص ؟
الحق اقول لكم انه لص مثله . اللص اراق دمّاً بريئاً . اما القاضي
فشر به .

« اجل . لقد مزجت الناس في بوتقة واحدة فجعلتهم انساناً واحداً من حيث لا يدرون . وقد اجتاحت في سبيل اسعادهم سبع عجائب كبار ماعدا الصغار . وهم ، مع ذلك ، ما يزالون بوّساء اشقياء واصواتهم ما تزال تصرخ اليّ — اعطنا السعادة . اعطنا السعادة ! فيها انا عازم ان آتيهم بعجوبة جديدة .

« لقد بنيت لهم في سالف الاحقاب مدناً كثيرة . اما الان فبخاطري ان ابني لهم مدينة تفوق كل ما بنيت . وسأعطي هذه المدينة آذاناً تسمع بها كل لغات الناس . وعيوناً تبصر بها كل اشكالهم واجناسهم . وسأجعل احشائها اوسع من احشاء الجو . تسوق لها اليااسة خير خيراتنا فلا تشبع . وتحمل اليها البحار انفس انفاسها فلا ترتوي . وسيكون فيها لكل شهوة مأوى . ولكل فكر مجال . ولكل خيال مسرح . فيمشي فيها اله الناس وشيطانهم جنباً الى جنب . وتنبت اغراس فردوسهم في مجامر حميمهم . ويجاور المعبدُ انخارة وبيت الدعارة . ويتعانق المتحف والمقصف . وتتكئ المدرسة والسجن على بساط واحد

وسأحقن سكان المدينة بمصل جديد . هو مصل الحركة الدائمة . فيصلون النهار بالليل ولا يهدأون . وهكذا يكون لهم في كل ساعة ما يتلهون به عن التفكير في بواعث الحزن والالام . وسيكونون لي اطوع من بنائي والصقبي من ظلي . يكفرون باربابهم اما بي فلا يكفرون . ويهربون من ارواحهم اما مني فلا يهربون . بل اليّ في كل امرٍ يفزعون . اذا حملتهم من نفسي فوق طاقتهم لا يقولون : خفف من احمالنا . بل يقولون : زدنا من احمالك . وسيضيق بهم سطح الارض فيتخذون في جوفها انفاقاً . ويشيدون في الجو حصوناً عالية وابراجاً شامخة . وسأجعل اذنانهم طعاماً

لروؤوسهم . وروؤوسهم طعاماً لاذنابهم . فيأكل بعضهم بعضاً من حيث لا يعلمون

« ها انا قد بحت لكم بما في خاطري . وعليكم ان تخلقوه . وقد اخترت للمدينة العتيقة جزيرة في العالم الجديد واقعة بين مصب نهري . واسمها مانهاتان . وهي اليوم ملك عشيرة من العشائر الحمر . فبادروا اليها في الحال وباشروا بالعمل وليقسم كل منكم يمين الطاعة قبل ان يبرح هذا المكان . وانا معكم حتى نهاية الازمان . »

ما ختم الفلاس خطابه حتى قام من بين الحضور كائن مجنح في عنقه غل من الذهب . وعلى عينيه برقع من الذهب . ومشى بكبرياء نحو العرش . ومشى خلفه ابناؤه العشرون — توأمين فتوأمين — وفي عنق كل منهم غل من ذهب . وعلى عينيه برقع من ذهب . واذ مثلوا امام العرش خروا ساجدين ، وعفروا جباههم قائلين :

« نقسم بوجه الفلاس وقفاه اننا سنطيعه في كل ما يأمره وينهاه . »

فقال الجالس على العرش :

« ايها الخيال ! لقد احسنت النطق والنية . ليكن في مدينتي العتيقة

لكل فن من فنونك اثر . »

ثم تقدم شيخ جلته هيبة اجيال كثيرة . وبداه في اصفاد من الفضة . وعلى عينيه قناع من الفضة . وتقدم ورائه اولاده الخمسون — توأمين فتوأمين . وبداه كل منهم في اصفاد من فضة وعلى عينيه قناع من فضة . ففعلوا وقالوا ما فعله الخيال واولاده . فقال الجالس على العرش :

« ايها الفكر ! لقد احسنت النطق والنية . ليكن في مدينتي العتيقة

لكل فتح من فتوحك خبر . »

ثم نهض كهل على عينيه نظارتان كبيرتان ورجلاه مكبلتان بسلسلة
من نحاس وحبا نحو العرش على عكازتين . وحبا وراءه على عكازاتهم اولاده
الثمانية والتسعون - توأمين فتوأمين . وعلى عيني كل منهم نظارتان كبيرتان
ورجلاه مكبلتان بسلسلة من نحاس ففعلوا وقالوا ما فعله من سبقهم . فقال
الجالس على العرش :

« ايها العقل ! لقد احسنت النطق والنية ليسكن على كل باب من ابواب
مدينتي العتيدة نظارتان كالتى على عينيك وعيون اولادك . »

واخيراً تقدمت كتلة من اللحم قد نشبت فيها مسلات كثيرة فباتت
كانها القنفذ وقالت ما قاله الذين سبقوها . فاجابها الجالس على العرش :
« ايها القلب ! لقد احسنت النطق والنية . قرّ عيناً وانعم بالآ . ففى
مدينتي العتيدة ستجد منفذاً لكل مسلة من مسلاتك . »

وعندها التفت الفلس الى الوزير الجالس عن يمينه واسمه «الطمع» والوزير
الجالس عن يساره واسمه «المكر» وقال لهما :

« اليوم يومكم . انطلقا الى العالم الجديد حيث القبيلة الحمراء التى تملك
الجزيرة المدعوة مانهاتان وابتاعاها منها بائخس ما يمكنكم . »

وكاد الفلس يحل مجلسه عند ما انتصبت فجأة امامه فتاة عريانة ثقلب في
يديها كرة كبيرة من النور الصافي المتبلور . ففرك الفلس عينيه وقد
ادهشته الفتاة وبهره جمال الكرة في يديها . وقال متلعثماً من شدة دهشته :

« من اين جئتِ ابنتي الفتاة ؟ »

« كنت هنا من قبل ان تكونوا . »

« هذا مستحيل ومن تكونين ؟ »

« انا الحياة . »

« وهذا مستحيل والحياة في قبضتي . وماذا تبغين ؟ »

« سمعتكم تطلبون السعادة فجئت اهديكم اليها . »

« وهذا ابعد من المستحيل . فليس يعرف بيت السعادة والسبيل اليه

الا انا . انا هو السبيل والهادي . انا هو المدخل والمخرج . وما تلك التي

في يدك ؟ »

« السعادة »

« وهذا مستحيل المستحيل . فالسعادة في مدينتي القعيدة التي ابشر اليوم

ببنائها . ام انت تمزحين ؟ »

« بل انا في جد . »

« ان في جدك مزحاً يستفز ضحكي . لكن الكرة التي تقلبها في يديك

جميلة . فهل تبيعينها ؟ »

« السعادة لا تباع ولا تشرى . »

« هذا ضرب من الجنون . اذ ليس في مملكتي ما ليس بباع ويشري .

واذا سلمنا بجنونك وقلنا ان السعادة لا تباع ولا تشرى . فكيف لمن

يطلبها ان يحصل عليها ؟ »

« من قباني كما انا نال الجوهرة التي في يدي . مجاناً آخذ ومجاناً

اعطي . »

« يالك من داهية . افلا تفضلت اذن وعلمتنا كيف نقبلك لننال

السعادة من يدك ؟ »

« انزل عن عرشك وانزع نيرك عن اعناق الناس ودعهم يعطون مجاناً

ما يأخذونه مجاناً . »

« يالك من عاهرة وحقه . لا تخجلين حتى من ان تقفي امامي ولا كساء

عليك غير جلدك . استروا عورة هذه العاهرة . واسكبوا في فمها رصاصا .
وشدوا رجلها بالحديد . واطرحوها في الدركة السابعة من دركات الجحيم .
وأتوني بالجوهره من يديها الاثيمتين . »

فبادر الحراس الى الفتاة وانتزعوا الجوهره من يدها وقدموها الى
الجالس على العرش . وما كادوا يسترون الفتاة برداء من اربيتهم حتى التفت
الفلس الى الجوهره في يده واذا بها حجر اسود . والى الفتاة فاذا بها حية
رقطاء . فصاح مقهقها :

« انها لمسهوذة كبيرة . اسحقوا رأسها ثم دعوني منها . وانصرفوا كل
الى عمله . واياكم ان تؤجلوا الى الغد ما يمكنكم فعله اليوم . انطلقوا
بسلام . »

وكان كما امر الفلس . فابتاع اعوانه جزيرة مانهاتان ثم يوازي
الاربعة والعشرين دولاراً . وراحوا بنون نيويورك — مدينتهم العتيده . وما
يزالون حتى الساعة يحفرون ويؤسسون . ويهدمون ويشيدون . وبين انقاض
ما يهدمون وجدران ما يشيدون ملايين من الناس يأتون ويروحون وهم عن
السعادة يفتشون

في خريف سنة ١٩١٢ لميلاد القائل « ملكوت الله في قلوبكم »
انزع بين تلك الملايين جبران خليل جبران

حفار القبور

« قرية غرينتش » — (Greenwich Village) — حي قديم من احياء نيويورك السفلى استأثر به الفنانون من كل نوع فجعلوه شبه صورة مصغرة لمونارتر في باريس . هناك تجد الشاعر الملمم والشعور . والموسيقي الذي تقطر اصابعه الحاناً ، والمتمسق الذي لو عصرته لما نزل منه نوبة واحدة جميلة . والراقصة التي في روحها وجسمها السنة من نار ، والخشبة التي تريد ان تقلد الخيزرانة . والمصور الذي يعرف اسرار الظلال والانوار والخطوط والالوان ، والقرد البشري الذي يلذ له اللعب بالادهان

لكنهم — الموهوبين منهم والمحرومين — تجمعهم خلة واحدة . فهم يرون انفسهم من طينة انقى وارفع من بقية الناس . لانهم — في اعتقادهم — يخدمون الروح . اما سواهم فيخدم المادّة . هم يعبدون الجمال . اما سواهم فيعبد الفلاس . حتى انهم ليبتدعون لهم ازياء من اللباس تختلف ولو قليلاً عن ازياء الناس . ويأتون في الجهر اعمالاً لا يأتونها سواهم الا في السر . وكثيراً ما يباهون بمظاهر الفقر وقلة اكتراثهم للفلاس وعباده . غير انهم لا يبسم لهم الفلاس ولو نصف بسمة حتى نقبه له قلوبهم وعيونهم وترقص اكبادهم وامعاؤهم . واذا ما اتيج لاحد ان يجلس الى مائدة غني من الاغنياء ظلّ يحدث رفاهه عن ذلك اياماً . وعند ما يبتاع الفلاس شيئاً من نتاج « ارواحهم » تغبّط ارواحهم بالفلاس وتسجد له وتمجده

في ضواحي تلك « القرية » ، في بناية قديمة من الاجرّ الاجرّ ، تحت

رقم ٥١ من الشارع العاشر غرباً ، اتخذ جبران له محترفاً صغيراً جعله كذلك مسكناً . وفي تلك الفسحة الصغيرة من مدينة الفلس الكبيرة راح يرسم الخطط وبعد العدد لاستثمار ما في كيانه من معادن دفينه . وكان نيتشه دليله الاول ، ومساعدته الاكبر ، وموئس وحدته الاعظم . ما رافقه في جولة من جولاته الزردشتية الاهتف من اعماق وجدانه :

« اي رجل هذا الرجل ! نازل العالم وحده باسم مثل الانسان الاعلى - السوبرمان . ولم يخرج من المعركة حتى اخرجته العالم من عقله . لكنه مات سوبرماناً بين اقزام . ومجنوناً حكيماً بين عقلاء مجانين . هكذا فلتكن الرجال . وهكذا فليجن المجانين ! - واي خيال خياله ! بوثة واحدة ينفذ الى جوهر الحياة وبوثة يجردها من كل اغشية الخير والشر التي حاكها لها ضعف الناس . فيحرق هذه الاغشية ويذري رمادها في اعين الذين حاكوها . هكذا فليكن الخيال ! - واي قلم قلمه ! بشطحة يخلق عالماً جديداً وبشطحة يحو عوالم قديمة . وهو في كل ما يخلق ويمحو يقطر جمالاً وعزماً وسحراً . هكذا فلتكن الاقلام ! - واية ارادة ارادته ! اصلب من الصوان وامضي من الفولاذ . هي التي ابتدعت السوبرمان وهي التي اختطت السبيل اليه . وهي تقول : لا اله الا انا . انا الخالق والخلقة . وانا القضاء والقدر . انا المحجة والسبيل الى المحجة . وانا سامضي بالانسان الى ابعد من الانسان . وسارفعه فوق خيره وشره . وساحزره من كل دين ودينونة ، وفضيلة ورذيلة ، وكل ما يعانده في سيره الى ذاته الكبرى . لاجل ذلك احطم مقاييس الناس وموازينهم . فكلمها اغلال في عنق ارادته . واعطيهم ما هو فوق المقاييس والموازين - اعطيهم السوبرمان . من كانت له مثل هذه الارادة فليمش في الارض غير حاسب حساباً لامر او لانسان الا لنفسه .

وليتنحَّ كل ضعيف من طريقه . او فليكن له درجة في المرقاة التي يصعد بها الى ذاته . وان لم يكن بدّ من اقراض الانسانية باسرها ليولد سوهرمان واحد ، الا فلتنقرض الانسانية . هكذا فلتكن الارادة ! »

كما فكر جبران بنيتشه تخيله كالارض يضيق صدرها بما فيه من نيران فتفرّج عنه بيركان . وبالزردشت من بركان هائج يقذف البركات مع اللعنات ، والنعم مع النعم ! بل يا لخيال نيتشه يتغلغل في تجاعيد الماضي السحيق حيث يعثر على زردشت . فينفض عنه غبار ثمانين او تسعين قرناً^(١) ويتخذة بوقاً له وبشيراً ونذيراً . لانه يربأ باسراة ان يروح بها لسان غير لسان الوحي وبأثارة ان تحملها الى الناس يدان غير يدي انسان اصطفاه الحق وجلله الجمال وجعله ميراثاً لكل زمان ومكان .

ها هو - زردشت نيتشه - في الثلاثين من عمره ، يترك بيته وبحيرته المحبوبة ويصعد الى الجبال حيث ينقطع عن العالم . وبعد عزلة عشر سنوات ينحدر الى الناس ليكشف لهم اسرار قلبه المغم بالاسرار . ويخاطب الشمس فيقول لها في ما يقوله :

« الا لقد تعبتُ من حكمتي حتى السّامة . فانا كالنحلة المثقلة بكثير ما جنته من العسل . وانا بحاجة الى ايد ممدودة لتأخذه مني . »^(٢)

ثم يلتقي شيخاً ناسكاً . فيعرفه الشيخ ويسأله عن غايته من الرجوع الى العالم - « عالم النيام » . فيجيبه بانه يجب الناس وانه يحمل اليهم هدايا ثمينة . فيحاول الشيخ ان يزده عن عزمه قائلاً ان الناس لا يقدرّون هدايا المتنسكين

(١) من المسلم به عند اكثر المؤرخين ان زردشت رجل تاريخي وانه مؤسس الديانة الجوسية . لكن الزمان الذي عاش فيه لا يزال مجهولاً . وفي رواية يونانية انه عاش قبل حرب طروادة بست الاف سنة . (٢) بعد سنين كتب جبران مقالاً عربياً في هذا المعنى تحت عنوان « نفسي مثقلة بانمارها » ومطلعه : « نفسي مثقلة بانمارها فهل من جائع يجني ويأكل ويشبع ؟ »

لذلك قد انصرف هو عن حبهم الى حب الله . لكن زردشت لا يشتهي وبعد
ان يودع الشيخ يشجب في نفسه قائلاً : « أَمِنَ الممكن ان هذا القديس
المتوحد في الغاب لم يسمع حتى الآن بان الله قد مات ؟ »

وعند ما يدرك اول مدينة في طريقه يجد في ساحتها جمهوراً من الناس
قد تجمعوا ليتفرجوا على بهلوان سيرقص على جبل فيخطب فيهم هكذا :
« اني اعلمكم السورمان . الانسان يجب ان يفوق الانسان . ماذا فعلتم
لتفوقوا الانسان ؟ » ...

« ما هو القرد في عين الانسان ؟ انه الخزاة ومسخرة . كذلك سيكون
الانسان في عين السورمان — مخزاة ومسخرة . »

لقد تدرجتم من الدودة الى الانسان . غير ان الكثير فيكم ما يزال
دودة . لقد كنتم قروداً ، وحتى الآن ما يزال الانسان قرداً اكثر من اي
قرد كان ^(١)

« حلفتكم يا اخوتي ان نبغوا مخلصين للارض ، وان لا تصدقوا الذين
كلمونكم عن آمال فوق الارض . انهم ينفثون فيكم سماً ، عرفوا ذلك
ام لم يعرفوا . »

« اولئك يحتقرون الحياة ، وهم انفسهم جيف مسممة تعبت منها الارض
فانبذوهم ! »

(١) لجبران مقال بعنوان « ابناء الالهة واحفاد القرد » يقول في اخره : « ... ما هي
ارادتكم يا ابناء القرد ؟ هل سرتم خطوة واحدة الى الامام منذ انبثقت من شقوق الارض ؟ ...
منذ سبعين الف سنة مرت بكم فرايتكم تتقلبون كالخشرات في زوايا الكهوف . ومنذ سبع دقائق نظرت
من وراء بلور نافذتي فوجدتكم تسهرون في الازقة القذرة وبالسة الجول تقودكم وقيود المودية تمسك
باقدامكم واجنحة الموت تصفق فوق رؤوسكم . فانتهم اليوم كما كنتم بالامس ، وستظلون غداً وبدء
مثلاً رأيتم في البدء . كنا بالامس فاصبحنا اليوم . وهذا ناموس الالهة بابناء الالهة . فما هي سنة
القرد بكم يا ابناء القرد ؟ »

« لقد كان التجديف على الله أكبر تجديف . لكن الله قدم مات ، ومعه مات المجدفون عليه . اما الآن فالخطيئة الفظي هي التجديف على الارض . . . »

غير ان الجماهير كانت تشناق رؤية البهلوان اكثر من سماع زردشت . فقابلت عظمته بالضحك . وما بدأ البهلوان رقصته حتى تعلقت به اعين الحاضرين ناسية زردشت وسوبرمانه . وعند ما سقط البهلوان عن الحبل فتحطم تفرقوا كل في سبيله وتركوه في حالة النزاع . فتقدم زردشت وحمله على ظهره وسار به في الليل الى ان بلغ غابة وهناك دفنه في جوف شجرة ونام بجانبه « ليحرسه من الذئاب » . هكذا دفن زردشت العالم — عالم الترهات والسفاسف . وعند ما افاق في الصبح احس كأن نوراً جديداً اشرق في قلبه . وذلك النور هو انه لن يخاطب فيما بعد الجماهير والاموات بل يتخذ له صحابة من المختارين . الحصاد قد نضج ، وهو بحاجة الى حصادين :
« رفاقاً اطلب — رفاقاً احياء لا امواتاً ولا جثثاً احملها حيث اشاء . . . »

« زردشت المبدع يفتش عن رفاق يعرفون كيف يشخذون مناجلهم . هؤلاء سيدعون هدامين وسيستخرون بالخير والشر . لكنهم هم الحصادون والمتهللون . . . »

« المبدعين والحصادين والمتهللين وحدهم اعاشر . ولهم اكشف قوس الغمام ، واياهم اقود الى السلام المؤدية الى السوبرمان . . . »
« للتوحيد انشد نشيدي . . . والذي ما تزال له اذان لسمع ما لم يُسمع سائق قلبه بسعادتي . »

هكذا راح زردشت يكرز بالسوبرمان . وفي كل نبرة من نبراته

منجنيق يهدم ويد^٢ تشيد . اذا تكلم حتى في ابسط الامور جعلها ذات قيمة وخالف الناس في ما يقولون ويعتقدون . مثال ذلك موعظة في « القراءة والكتابة » :

« من كل ما يكتب لست احب الا ما يكتبه انسان بدمه . اكتب بالدم تجد ان الدم هو الروح . »

« ليس من السهل ان تفهم دماً غريباً . وانا اكره الباطنيين الذين يقرأون بقصد التسلية . » ...

« سماح الناس لكل من شاء منهم ان يتعلم القراءة سيقفل على التماهي ليس فن الكتابة فحسب ، بل وفن التفكير . »

« من قبل كان الروح الهأ ، ثم صار انساناً . اما اليوم فقد اصبح سوقة . »

« ان من يكتب بالدم والامثال لا يزيد ان يقرأ . بل ان يحفظ على ظهر القلب . »

« اقرب الطرق في الجبال هي من القمة الى القمة . لكن من شاء ان يسلك تلك الطريق عليه ان يكون ذا ساقين طويلتين . الامثال يجب ان تكون قمماً . والذين يقال لهم يجب ان يكونوا من المعلقة . »^(١)

وفي موعظته عن « الفضيلة التي تفسخ الناس اقزاًماً » ينهكم زردشت تهكماً لذاعاً على كل اوضاع الناس ومقاييسهم ودياناتهم . فقد عاد اليهم بعد غيبة في « الجزائر السعيدة » فوجدهم اصغر مما كانوا لشدة تعلقهم « بعقيدة السعادة والفضيلة »

(١) الجبران مقال عربي بعنوان (الجبارة) كتبه نحو سنة ١٩١٧ ومستهله : (ليس من يكتب بالجبر كمن يكتب بدم القلب) اما ميله الى الامثال فظاهر في كتابه « المجنون » و (السابق) وفي كتاب (الثاثة) الذي ظهر بعد موته

« امرؤ في وسط هذا الشعب فأنثر الكثير من الكلام . لكنهم لا يعرفون كيف يأخذون ولا كيف يحتفظون بما يأخذون »

« وعند ما أصبح فيهم : « الا انوا كل ما فيكم من الابالسة الجبناء الذين يستطيعون المهمة ويضمون ايديهم على صدورهم للعبادة » - بصرخون : « زردشت لا اله له . »

« واشدهم صراحاً اولئك الذين يعلمونهم الاستسلام . من اجل ذلك يطيب لي ان اصرخ في اذان هؤلاء : اجل ! انا هو زردشت الذي لا اله له . »

« يا للذين يعلمون الناس الاستسلام ! - حينما عثروا على شيء هزيل سقيم ، جرب ، هناك زحفوا كالقمل ، وليس يردوني عن سحقهم الا نقززي منهم . »

« هاهي الموعظة التي اعدتها لآذانهم : انا هو زردشت الذي لا اله له . وانا هو القائل : « من ذا اكثر كفراً مني لانعم بتعاليمه ؟ »

« انا زردشت الذي لا اله له . فاين قريني ؟ وليس يقارنني الا الذين استردوا ارادتهم فتجردوا من الاستسلام . »

« انا زردشت الذي لا اله له ! وانا اطمح في قدرتي كل قدر . ولا اقبله طعاماً لي الا بعد ان ينضج كل النضوج . »

« انا سابق نفسي^(١) بين هذا الشعب لكن ساعتهن سأتاتي . »

ما عرف جبران نيتشه حتى كاد ينسى كل من عرفهم قبله من كبار الكتاب والشعراء . وعلى قدر ما كان بطيب له ان يختلي به كان يلذ له في

(١) هذه العبارة يفتح بها جبران كتابه (السابق) مع استبدال ضمير المخاطب بضمير المتكلم .

البدء ان يحدث غيره عنه وان يهدي اصحابه ومعارفه اليه . فما ان تعرف علي
اثر نزوله نيويورك الى فتاة امير كية اسمها ادبل واطسن ، انس فيها ميلا
الى التصوير وشغفاً بالفن ، حتى كتب يلح عليها ان تقرأ « كذا تكلم
زردشت » :

« عزيزي مس واطسن »

« بلى . نيتشه جبار واي جبار . وكما طالعتك كلما زاد حبك له . لعله
بين ارواح العصر الحديث اكثرها نشاطاً واوفرها حرية . وستبقى كتاباته
بعد ان يمضي الكثير مما نحسبه اليوم عظيماً . ارجوك ، ا- ر- ج- و- ك
ان تقرأني « كذا تكلم زردشت » حالما يتيسر لك ذلك . لان هذا الكتاب
في نظري من اعظم ما عرفته كل العصور
« تعالي لعندي قريباً ودعينا نتحدث عن نيتشه

خليل جبران »

وما استأنس جبران بزردشت نيتشه حتى احس بوحدة اقسى من ذي
قبل تكتشفه اينما سار ، وبغربة نقصيه عن ماضيه الى حد انه صار يخجل امام
نفسه من كل ما كتبه وصوره حتى ذلك الحين . وعند ما اقبل على روايته
الجديدة « الاجنحة المتكسرة » لينقحها ويقدمها للطبع كاد يعدل عن نشرها
اذ خيل اليه انه لو عرضها على نيتشه لضحك ذلك الجبار منه ومنها ولضربه على
كتفه مثلاً بضرب الكبير الصغير وقال له : « يا بني ! دع الذين قلوبهم
من عجين وادمغتهم من مخاط يتلهون بمثل هذه الترهات . اما انت فعار عليك
ان يشقيك حب امرأة . واكثر عاراً ان يسلبك قلبك مطران دون اقل
مقاومة منك . واشد عاراً من ذاك وهذا ان تندب حظك على مسمع من
الناس وان تكثر من سكب الدموع امامهم والتبرؤ من قساوتهم ، وما

قساوتهم الآ ضعفك . وما دموتك الا ارادتك المائعة . الدموع تليق بماقي
النساء . اما انت فدعك منها . »

لكن جبران كان يشعر ان روايته زاحلة عن قلبه لانه يحدث فيها عن
جبه . ولانه اودع سطورها اقصى ما توصل اليه خياله من قوة التصوير
بالكلام والتغيم بالمقاطع . فضنّ بتلك الصور وهذه الانغام ان تدفن في
مهداها . ومن ثمّ فتوحاته العريية لما تبلغ بعد اقصى مداها . وروايته
الجديدة ستكون فتحاً جديداً . اذ لم ينسج بعد في العريية على منوالها . فهي
وان تكن صدفة في نظر نيتشه ستكون جوهرة في نظر العالم العربي .
لكنها ستكون خاتمة عهد التفجع والشكوى . ومن بعدها سيسترد ارادته
وسيجس دموعه ، وسيكون قلمه معولاً للهدم وزاوية للبناء - هدم
القديم المسترخي وبناء الجديد القوي . وستمشي ريشته جنباً الى جنب
مع قلمه .

ظهرت « الاجنحة المتكسرة » فاستقبلها العالم العربي ، الذي لا يبصر
اللابس ويبصر اللباس ، استقبال حدث خطير . وقد بهرته منها حلة فضفاضة
وشكوى دامعة ، وملامس ناعمة ، والحان رقراقة .

اغتبط عجب جبران بهذا الاستقبال اما قلبه فكان يقول : « ويحي
بين شعب يصفق لقشوري ، اما لي فليس يدركه . من لي بروح واحدة
نفهم اشواق روحي ، وتعرف عقباتها ، وترود العوالم التي ترودها ؟
من لي بواحد من شعبي احذنه عن نيتشه ، وعن الفن ، فيفهم ما انا قائل وما
انا فاعل ؟ اوآه . ليس ولا واحد . غربياً كنت بينهم وغريباً سابق .
وساموت غربياً حتى عن نفسي . »

بعد ظهور « الاجنحة المتكسرة » بقليل طلب نسيب عريضه الى

جبران جمع مقالات « دمة وابتسامة » في كتاب فاجابه جبران بيت من
احد موشحاته :

« ذاك عهد من حياتي قد مضى بين تشيب وشكوى ونواح »
ثم اردف البيت بقوله : « ان الشاب الذي كتب « دمة وابتسامة » قد
مات ودفن في وادي الاحلام . فلماذا تريدون نبش قبره ؟ افعلوا ما شئتم ،
ولكن لا ننسوا ان روح ذلك الشاب قد تقصت في جسد رجل يحب العزم
والقوة محبته للظرف والجمال . ويميل الى الهدم ميله الى البناء . فهو صديق
الناس وعدوهم في وقت واحد . »

وهذا الرجل الذي يحب العزم والقوة محبته للظرف والجمال ويميل الى
الهدم ميله الى البناء اصبح بعد ان عرف نيتشه لا يلد له الا التهم على الناس ،
والعبث باوضاعهم ، والتشفي باوجاعهم ، والتنكيل بالهتهم ، وحفر القبور
لهم . والذي كان يخاطب البؤساء هكذا :

« لا تقنطوا . فمن مظلّم هذا العالم ، من وراء المادة ، من وراء الغيوم ،
من وراء الاثير ، من وراء كل شيء — قوة هي كل عدل وكل شفقة وكل
حنو وكل محبة . » اصبح يخاطبهم والرفش في يده ، والحد اقصى ما يمينهم به
واصبح لا يعرف لنفسه رباً غير نفسه ، ولا يبصر في الشفقة غير الضعف ،
وفي الضعف غير الموت . ولا يحسب احداً من الناس اهلاً للحياة الا من كان
على شاكلته .

افتتح جبران « عهده الجديد » بمقال « حفار القبور » . ولو انه وضع في
آخر ذلك المقال قرار نيتشه الشهير « كذا تكلم زردشت » لما كان نيتشه
ينجّل من ان يجعله فصلاً من فصول كتابه وثورة من ثورات بركانه . فهو
في كل صورته الزردشية قلما جاء بصورة اشدّ هولاً ، وأمرّ لوناً ، واصدق

لهجة في تأدية افكاره من التي جاء بها جبران في ذلك الشبح الهائل الذي
النقاء « في وادي ظل الحياة المرصوف بالعظام والجماجم » . وما الشبح ذلك
الا جبران « المنقمص في جسد رجل يحب العزم والقوة » يهزأ بجبران التشيب
والشكوى والنواح وينصح له ان يترك مهنة نظم الشعر ونثره لانها لا تنفع
الناس ولا تضرهم وان يتخذ حفر القبور مهنة فيريح الاحياء « من جثث
الاموات المكرسة حول منازلهم ومحاكلهم ومعابدهم » لان الناس « اموات
منذ الولادة ولكنهم لم يجدوا من يدفنهم فظلوا منظر حين فوق الثرى ورائحة
التن تنبعث منهم » .

يعرف الشبح من محدثه ان اسمه عبدالله وانه يحب اسمه لان والده
اعطاه اياه ، فيقول له :

« ان بلية الابناء في هبات الآباء . ومن لا يجرم نفسه من عطايا آبائه
واجداه يظل عبد الاموات حتى يصير من الاموات . »

ثم يعرف الشبح ان لمحدثه امرأة وثلاثة اولاد فينصح له ان يطلق
زوجته لان الزواج « عبودية الانسان لقوة الاستمرار » وان يعلم اولاده
حفر القبور فيعطي كل واحد منهم رفشاً ثم يدعهم وشأنهم . وان لم يكن
له بد من الزواج فليقترب بصبية من بنات الجن . فمن مثل هذا الزواج يأتي
« نفع بطيء ينتج عنه انقراض المخلوقات الاموات الذين يخرجون امام العاصفة
ولا يسرون معها » .

وعند ما يعرف الشبح ان محدثه يؤمن بالله ويكرم انبياءه ويجب
الفضيلة وله رجاء بالآخرة يقول له ساخراً :

« هذه الفاظ رتبها الاجيال الغابرة ثم وضعها الاقتباس بين
شفتيك . . منذ البدء والانسان يعبد نفسه ولكنه يلقبها باسماء مختلفة

باختلاف امياله وامانيه - فتارة يدعوها البعل ، وطوراً المشتري ، واخرى
الله . »

اما في ذاته فيقول الشبح انه رب نفسه وانه في كل زمان ومكان ،
واسمه الاله المجنون وانه ليس حكيماً لان الحكمة « صفة من صفات البشر
الضعفاء » ثم يودع محدثه بقوله : « الى اللقاء . فانا ذاهب الى حيث تلتئم
الغيلان والجبابرة . »

ويختم جبران مقاله هكذا :

« وفي اليوم التالي طلقت امرأتي وتزوجت صبية من بنات الجن . ثم
اعطيت كل واحد من اولادي رفشاً ومحفراً وقلت لهم « اذهبوا . وكلما رأيتم
ميتاً واروه في التراب . »

« ومن تلك الساعة الى الان وانا احفر القبور وألحد الاموات . غير ان
الاموات كثيرون وانا وحدي وليس من يسعفني ! »

و كيف لا يكون وحده من يرى اكثر الناس ، بل كلهم امواتاً ولا
يرى حياً الا نفسه ؟ ام كيف لا يكون وحده من يلحد الناس لينصب
لذاته تمثالاً فوق قبورهم ؟

لقد سكر جبران بزردهشت . وسكر اكثر من ذلك بما ناله من شهرة
في العالم العربي . ورأى نفسه كالواقف على منبر ورأى الصحافة العربية
كالايقاع توديع صوته الى كل قطر ومهجر عربي . وراح يكلم قومه « من
له سلطان » . فلا يستنكف من ان يدعوهم « اضراساً مسوسة » ولا من ان
يخاطبهم هكذا :

« كنت اشفق على ضعفكم يا بني امي . والشفقة تكثر الضعفاء وثني

عدد المتوانين ولا تجدي الحياة شيئاً . واليوم صرت ارى ضعفكم ففترتش
نفسي اشمئزاً ونقبض ازدراءً . . . »

« ما ذا تطلبون مني يا بني امي — بل ماذا تطلبون من الحياة والحياة لم
تعد تحسبكم من ابنائها ؟ » . . . »

انا اكرهكم يا بني امي لانكم تكبرهون المجد والعظمة .

« انا احقركم لانكم تحقرون نفوسكم .

« انا اعدوكم لانكم اعداء الالهة ولكنكم لاتعلمون . »

بل انه صار ينجعل من ان يكون مسقط رأسه بلدة صغيرة كبشري
في بلدة صغيرة كالبنان . ويحسب ان من كان مثله يجب ان تكون ولادته
ملتحنة بلحاف من السر والسحر . واي البلاد اكثر نحرأً وسراً من
بلاد الهند ؟ لذلك عند ما طلب اليه مرة نسيب عريضة بعض معلومات
عن حياته لينشرها في مجلة « الفنون » قال له انه ولد في بومباي الهند . انما
لا يهمه ان يشيع « السر » بين الناس . ولا بأس لو وضعه نسيب عريضة
بين هلايين . (وهي اكفل طريقة لشيوعه) .

وهكذا كان . فقد ظهرت تلك المعلومات في « الفنون » وهي نقول
ان جبران « ولد سنة ١٨٨٣ في بشري من اعمال لبنان (ويقال بل في بومباي
الهند) » الخ . وقد نقل هذه المعلومات بحذافيرها ناشر « البدائع
والظرائف » في مطلع الكتاب . وجاء فيها ، علاوة على ذلك ، ان جبران
حاز شهادة الامتياز في كلية الفنون الافرنسية . . . وسمي عضواً في
جمعية الفنون الافرنسية . ونال عضوية الشرف في جمعية المصورين
الانكليزية . » والمرجح ان جبران لم ينل شيئاً من كل ذلك بل كان
بشري لو يناله . لان هذا الناقم على الناس ، والمنقز من صغارتهم واستعدادهم

لنقايلهم ، كان اشد هم تعلقاً بتلك النقايلد اللهم اذا ناله منها مجدٌ وفخرٌ
وعظمة . وما تقم على الناس الا لانهم لم يجدوه على قدر ما كان يحسب
نفسه اهلاً لتمجيدهم . وما فاضت مرارته على ترهاتهم الا لانهم لم
يتزعوا قلبه بحلاوة ترهاتهم . فما ابعد الفرق بين مرارته ومرارة
نيتشه !

وقد جمع الله الشئتين

من الرفاق الذين جمعني بهم مدرسة المعلمين الروسية في الناصرة
نسيب عريضة وعبد المسيح حداد . وكلاهما من حمص . رافقت الاول
ثلاث سنوات متوالية والثاني سنة واحدة . ثم سافرت الى روسيا في
سنة ١٩٠٦ ولم اعد اعرف عنهما شيئاً سوى انهما هاجرا الى الولايات المتحدة
واستوطنا نيويورك .

وفي اواخر سنة ١٩١١ كانت نيويورك مدخلي الى العالم الجديد .
مكثت فيها يومين بطريقي الى ولاية واشنطن على شواطئ الباسيفيكي . وقد
يكون اني مررت بعريضه والحداد فلم اعرفهما ولم يعرفاني . وقد يكون
ان كنتي لامست كتف جبران خليل جبران بين الجماهير في الشوارع فلا
أبه لي ولا أبهت له . اذ انني لم اكن قد سمعت حتى باسمه ولا كان هو يعرف
ان على سطح الارض بشرياً يدعى ميخائيل نعيمة .

وفي خريف سنة ١٩١٢ دخلت جامعة واشنطن وانصرفت الى دروسي
وبيني وبين العالم العربي قارّات وغمار . وبين آدابه وادبائه سدود
اقامها نفوري من جمود ابناء العربية في ذلك الزمان ، وتعلقهم بقشور الادب
دون لبابه ، وتهافتهم على الاصداغ اللغوية ، وتسابقهم في تقليد القدماء ،
وتعاميهم عن العوالم الشاسعة المنظوبة فيهم .

وذات يوم من ايام تلك السنة وقع في يدي « مصادفة » عدد من
اعداد جريدة عربية نيويورك وفيه مقال طويل عن « الاجنحة المنكسرة »

والمقال ، مثل كل نقدنا في تلك الايام ، لا يقول شيئاً عن الكتاب و كاتبه بل يحاول ان يكون « تقريباً » لو صدقته لقلت ان جبران خليل جبران هو فلتة كل الزمان . لكنني لم اصدق له لان كل كلمة منه تكذب التي قبلها لشدة ما فيه من الغلو في الاطراء الفارغ . فطرحته من يدي وقلت ان اصحابنا ما يزالون يضربون بذات المطرقة على ذات السندان . مالي ولهم ؟

وبعد شهور جاءني البريد « بمصادفة » ثانية في شكل كتاب ما مزقت عنه غلافه الخارجي حتى وجدته عدداً من مجلة عربية جديدة تصدر في نيويورك وما القيت عليه نظرة سطحية حتى كدت اكذب عيني : يلامسك الذوق السليم في جمال حلته البسيطة ، وفي جودة ورقه ، وحسن حروفه ، ونظافته طبعه ، ونسب مواد وتشكيلها . وقد انطوى على صور فنية وشعر لا اثر فيه لعقيم الغزل والرثاء وكاذب المدح ، ونثر لا يقتلك ببلاذته وبلاذة موضوعاته ، ومنتخبات مترجمة لعدد من اعلام كتاب الفرنجة . واسم المجلة « الفنون » وصاحبها ورئيس تحريرها نسيب عريضة !

وعلى الاثر جاءتني الظروف « بمصادفة » ثالثة في شكل نسخة من « الاجنحة المتكسرة » قدمها الي مهاجر سوري كان قد ابتاعها على ذمة صاحب المقال الذي ذكرته سابقاً . وكان يحسبها من نوع روكامبول او الاميرة فوستا فوجدها « خيالاً في خيال » ويظن انه قدمها لي ليعلمني شريكاً له في خيبة فآله .

قرأت الرواية فاستفزتني لكتابة مقال فيها دعوته « فجر الامل بعدليل اليأس » وارسلت به الى « الفنون » وهو اول مقال نقدي حبرته فكان فاتحة حياتي الادبية . وقد نددت فيه تنديداً مرّاً بجمود اللغة العربية في خلال عصور طويلة ، وانصراف كتابها وشعرائها عن الحياة في داخلهم ومن

حولهم الى الشعوب اللغوية والبحر جات الفارغة والتقليد الميت . اما الرواية فبعد ان بينت كل ما فيها من نقص فني من حيث تحليل العوامل النفسية وتصوير الاشخاص وتنسيق الحوادث وتطبيقها على الحياة ، وجدت في جمال اسلوبها فجر عصر ادبي جديد . ورأيت في مؤلفها الذي ادرك سرّ الالوان والانغام في الكلام وسرّ التأليف بين تلك الالوان والانغام ، نسراً فتيّاً مهيض الجناح . غير ان كسره سيحبر . وجناحيه سيشتدان . وسيسبلهما ويخلق عالياً في جوتنا الادبي .

ما وصل المقال الى نيويورك حتى قرأه نسيب عريضة لبعض الادباء هناك — ومنهم جبران . ثم كتب الي يخبرني عن وقعه منهم وكيف ان جبران هتف عند نهايته : « من هو هذا ميخائيل نعيمة ؟ واين كان محتباً حتى اليوم ؟ » وراح يستخبر نسيب عريضة كل ما يعرفه عني .

واشتعلت نار الحرب وحلت « بالفنون » ازمات اوقفتها عن الصدور . وكانت خاتمة بركايتها ان اصدرت كتاب « دمة وابتسامة » في حالة هي غاية في الجمال لانها غاية في البساطة . وذكرني بنسخة منه . ثم عادت فظهرت في سنة ١٩١٦ ورئاسة تحريرها في يد نسيب عريضة وادارتها في يد احد اصحابه . والشريك ان اخذا بكتاباني وبلحان علي بالمجيء الى نيويورك للاشتراك معهما في العمل . وكنت قد انتهيت دروسي في الجامعة فادرت وجهي الى الشرق . وفي خريف تلك السنة كنت واحداً من الملايين التي كتب لها ان تفتش عن ابرة السعادة في جبال القير والاسفلت والحجر والحديد المعروفة باسم نيويورك . ومع اني لم انضم الى ادارة « الفنون » اذ وجدت نفقاتها تفوق دخلها ، بقيت في نيويورك .

بعد ظهر النهار الذي وصلت فيه كنت في ادارة « الفنون » واذا

بشّاب يدخل ، لطيف الملامح ، دون الربع من القامة ، عليه بذلة رمادية وبرنيطة من الجوخ الاسود ، مستديرة « السقف » مسطحته ، وفي يده عصاً كروية الرأس معشقة في اعلاها باسلاك فضية نحيفة . وما ان وقع نظري عليه حتى قلت - هذا جبران ! ولم اكن ابصرت له صورة من قبل . وما ان رأني حتى تقدم مني وقال - هذا ميخائيل نعيمة ! فتصالحنا وتصادرنا كما لو كنا اخوين شتتهما البين ثم عادت الاقدار لجمعتهما .

بعد يومين او ثلاثة ذهبت ونسيب عريضه وعبد المسيح حداد لتمضية السهرة عند جبران بدعوة منه . و كنت في شوق الى التفرج على محترفه الذي كان معروفاً عند المقربين منه باسم « الصومعة » . والصومعة هذه قائمة في الطبقة الثالثة - والاخيرة - من بناية قديمة شعرت عند ما دخلتها كأني داخل ديراً . فقد قادني رفيقاي في ممرات كالسر اديب ينيرها مصباح ضئيل من الغاز فيطرح على جدرانها المظلمة اخيلة تكاد تستوقفك وتسألك عن غرضك منها وتبكتك لانك اقلقت سكينتها . ثم صعدنا سلام خشبية تدور دورات لولبية . وتئن تحت ارجلنا حتى نكاد نجفل من اناتها . واخيراً وقفنا الى اليسار من رأس السلم ، امام باب خشبي قائم اللون في وسطه حلقة من الحديد ما طرقتها عليها حتى انفتح وبان من ورائه جبران في « جبّة » التصوير وهي من الكتان الثبني اللون واشبه بقميص واسع يلبس من فوق الرأس ويصل حتى الركبتين ، منها بالجبّة . وعلى وسطها منطقة مجبوكة كالحبل .

جلست على ديوان (كاناي) قديم وجلس رفيقاي على كرسيين قديمين لم يكن في الصومعة كراسٍ غيرهما . وجلس جبران على دكة التصوير الخشبية وهي نحو متر مربع بعلو شبر او اقل . وامامنا ، في الحائط الشرقي ،

شبه موقد افرنجي وفي قلبه وجاق حديدي صغير للتدفئة بالحطب او بالفحم الحجري . وقد قام هذا الوجاق من الموقد مقام المدخنة . وفوق رف الموقد قنديل من الغاز كان نورنا الاوحد في تلك الليلة .

اخذت انا مل الصومعة وما فيها : طولها نحو الثمانية امتار . وعرضها نحو الستة . الى اليسار من الموقد سرير واطى صغير من الحديد بغير قوائم ناتئة عند رأسه وقدميه ، وعليه لحاف من صوف ووسادات مختلفة الاشكال والالوان . هو سرير جبران . وبجانبه خزانة صغيرة عليها كتب واوراق . والى اليمين من الموقد منصب التصوير ووراءه منضدة عليها كتب واوراق . والى يمين المقعد حيث انا طاولة خشبية مستديرة عليها كذلك كتب واوراق ودفاتر ومحابر واقلام . وبالقرب منها محافظ متفاوتة الحجم من الكرتون الاسود . هي محافظ الصور .

في الحائط الشمالي شبايك ثلاثة عالية عليها ستائر سود . ومثلها في الحائط القبلي . وعند متوسط الحائط الشمالي رفوف قد اصطف عليها نحو المئين من مختلف الكتب . وفي الجهة الشمالية من السقف العالي شرفات من زجاج عليها ستائر سود تزاح عند الحاجة لادخال النور . وعلى الحائط الغربي الاصم قطعة كبيرة من نسيج قديم العهد تمثل يسوع المصلوب . وفي زاوية ذلك الحائط الشمالية باب بوذي الى مخدع ضيق ، في الجهة الواحدة منه حنفية ماء ومغسلة وبضعة صحون وملاعق وقنان وطاسات خشبية ولوازم القهوة ووجاق صغير للطبخ على الغاز . وفي جهته الاخرى مستودع لثياب جبران وفوقه رف تجمعت عليه جرائد ومجلات قديمة واشياء كثيرة سواها علاها الغبار وعشش فيها الفار .

تلك هي « الصومعة » . وهي صومعة كانت تحدثني عن فقر ساكنها

وجدته أكثر من حديثها عن نقشفه وتعبده . وعن العواصف اللاعبة بعواطفه
وافكاره أكثر منها عن طمأننته في جده وارتياحه الى فقره .

كان جبران في تلك الليلة عنوان اللطف والانس وحسن الضيافة .
فقد اعد لنا قهوة عربية وقدمها في طاسات حمراء من الخشب الصيني مع
الكثير من السكرات والقليل من التفاح . وكان لا ينتهي بنا الحديث
الى محط حتى يبدأ بحديث آخر . فكنا اربعة وكأنا واحد . نمرح حيناً في
مروج الادب ، ثم نعرّج على مستنقعاته . وحيناً يسوقنا الحديث الى نكتة
فنبضح ، او الى فاجعة فنجهم . وعندما جئنا على ذكر الادب الروسي
ادهشني جبران بقوله انه من المعجيين به . لاسيما بتورغينيف وتولستوي
ودوستويفسكي . وبالاخير بنوع خاص ، مع ان روحه تناقض روح نيتشه
على خط مستقيم . غير اني اشتهت من كلامه الاجمالي عن هؤلاء الكتبة
المشاهير انه قرأ عنهم ولم يقرأهم . ولعله احب ان يجاملني فيجاري في اعجابي
بدوستويفسكي عند ما رأي اضعه فوق كل كتاب الزمان الاخير بدون
استثناء .

ما كنت ادري ساعة خرجت من تلك الصومعة بعد نصف الليل انني
في خلال خمس عشرة سنة ، سأعود فادخلها مراراً تضيق الذاكرة عن
احصائها . وانني ساشهد فيها ولادة اكثر ما تمخضت به روح ساكنها
الخصبة منذ تلك الليلة حتى ليلة ختمت الاقدار على رحلها . وانني سأحيا
لاذكريها كما يذكّر المسافر في البحر جزيرة وجد الامن في مينائها برهة من
الزمن ثم ودعها وعاد الى البحر . ولا كنت ادري ان آلام ساكنها وافراحه
سترسب في اعماقي فتمتزج برواسب افراحي وآلامي .

في الكهوف المظلمة

في تلك الاثناء كتب جبران مقالاً بعنوان « المليك السجين » يخاطب فيه اسداً رآه في حديقة الحيوانات فيصف له نيويورك واهلها هكذا :

« انظر ايها المليك الجبار اني هو لاء المحيطين بسجنك الان . . . انظر فهذا كالخنزير قذارةً اما لحمه فلا يؤكل . وهذا كالجاموس خشونةً اما جلده فلا ينفع . وذاك كالحمار غباوةً ولكنه يمشي على الاتنتين . وذلك كالغراب شؤماً ولكنه يبيع نعيه في الهياكل . وتلك كالطاووس نهيًا واعجاباً اما ريشها فمستعار

« وانظر ايها السلطان انهيب الى تلك القصور والمعاهد ، فهي او كارت ضيقة يسكنها الانسان مفاخرًا بزخارف سقوفها التي تحجبه عن النجوم ، مغتبطاً بصلاية جدرانها التي تفصله عن اشعة الشمس . هي كهوف مظلمة تذبل في ظلالها ازهار الشباب وتترمد في زواياها جرة الحب . وتتحول في فضائها رسوم الاحلام الى اعمدة من دخان . هي سرادب غريبة يتميل فيها سرير الطفل بجانب فراش المنازع . وينتصب فيها تحت العروس بقرب نعش الميت .

« وانظر ايها الامير الجليل اني تلك الشوارع المنفرجة والازقة الضيقة فهي اودية خطيرة المعابر يتربص الصووص بين منرجاتها وتختبئ الخوارج في جنباتها . هي ساحة قتال مستتب بين الرغائب ، والرغائب تنازل فيها الارواح متضاربة ولكن بغير السيوف ، وتنتصار متناهشة ولكن بغير

الانياب . بل هي غاية الاهوال تسكنها حيوانات داجنة المظاهر ، معطرة
الاذناب ، مصقولة القرون ، لا تقضي شرائعها ببقاء الانسب بل بدوام
الاروغ والاحيل . ولا تؤول ثقايدها الى الافضل والاقوى بل الى الاخبت
والاكذب . اما ملوكها فليست اسداً نظيرك بل هم مخاليق عجيبه لهم مناقد
النسور وبرائن الضبع والسنة العقارب ونقيق الضفادع »

لكن قائل هذا القول كان يشغل النهار والليل ، ويشغل كالمحموم ،
بقلمه وريشته ولسانه ليسترعي انتباه اولئك « المخاليق العجيبة » ، وتسمع
تلك « الاودية الخطرة المعابر » وقع قدميه اذا مشى فيها ، ولتفتح في وجهه
ابواب تلك « الاوكار » اذا ما طرقها . وكان لا يتوصل الى معرفة رجل
او امرأة او عائلة على انتمائهم شيء من اللعان الادبي او الفني او المادي او
السياسي او الاجتماعي الا اخبرني عن ذلك بلسان من لا يكثرث لمثل ذلك
اللعان . ولكن بقلب من يكبر في عين نفسه اذا ما تقرب من الذين يراهم
العالم كباراً . وكأنه كان يخشى من ان أعيب عليه التناقض بين نفوره من
تقاليد الناس ومفاخرته بها . فكان يطرح على كل علاقته ستاراً من السر
وجلباباً من الفن والادب . كأن يقول لي مثلاً : « البارحة كنت مدعوّاً
الى الشاي عند مسز كورين روبنسن » ثم يضيف بفخر ظاهر : « هي اخت
ثيودور روزفلت » ويعقب ذلك بقوله : « وهي شاعرة تهجيك يا ميسا » .
او ان يخبرني عن شهرة عند مستر فلان « وهو مدير البنك الفلاني » وله
ذوق في التصوير جميل » . او عن زيارة لبيت فلان « وهو من اخص
اصدقاء رئيس الجمهورية . وهو وزوجته من اقدم العائلات الاميركية
واوفرها ثروة وثقافة » .

هكذا كان جبران يصنع الناس بيدٍ وبصاخهم بالآخرى . يثور عليهم

عند ما يثوب الى روحه المتألم من كل شناعة وقساوة وظلم . ويسالمهم عند ما
ثور عليه نفسه الطامحة الى « المجد والعظمة » والمتوجعة من قبضة الفاقة
الماسكة بخناقها . يحفر لهم قبوراً في الليل . وفي النهار ، عند ما تلحد لهم
الاقدار في قبور غير التي حفرها لهم ، يهتف بقلب داعم : « مات اهلي وانا
قيد الحياة اندب اهلي في وحدتي وانفرادي » .

وهكذا اتقسمت نفسه على نفسه ، وانساق جبران « المترد » على
الناس الى جبران المتعطش الى التفاتهم وعطفهم ومالهم ومجدهم وعظمتهم .
فدرج في كهوف نيويورك المظلمة . وكلما انفتح في وجهه باب ادّى به الى
آخر - من حلقات فنية ، الى حلقات ادبية ، الى رجال ونساء ذوي
« سلطان » - لكلمتهم وزن ، ولصوتهم مدى ، ولعظفهم قيمة ، ولدعايتهم
اثر بعيد . واخذ يصوّر بعضهم بقلمه الرصاصي باثماً كانت تراوح ،
حسب قوله لي ، بين الخمسين والمئتي دولار عن الصورة . وبيع من بعضهم
شيئاً آخر من نتاج ريشته . فكان يراه مضطراً لما لثتهم ومجاملتهم . اذا دعي
الى شاي او عشاء او سهرة لا يرفض وان كان يعلم ان صاحبة البيت ليست
من الفن او الادب على شيء ، وان كل قصدها من دعوته ان تنوّع مدعوّيها
فيكون بينهم شاعر وفنان « شرقي » في كلامه مضغة غير مألوقة وعليه مسحة
غريبة . وذاك اقل ما يدفعه طالب الشهرة من ثمن شهرته في مدينة بابلية
كنيويورك وفي بلاد متسعة الشهوات كاميركا .

الا ان جبران لم يكن قانعاً بفتوحاته الفنية البطيئة . وهو يعلم ان في
روحه توأمين - الفنان والشاعر . وقد حمل الى الامير كيين فنه دون شعره
والى ابناء لغته شعره دون فنه . فلا العرب يفهمون شيئاً من فنه ، لانهم لا
يفهمون الفن . ولا الامير كان يعرفون شيئاً عن شعره ، لانهم لا يعرفون العربية

فعليه ، ان هو شاء الجمع بين الاثنين ، ان يكتب بالانكليزية . تلك هي امنيته من زمان ، وامنية ماري والكثيرين من اصدقائه الاميركيين . ومن ثم فالعالم الانكليزي عالم ثقافة ، وعالم شاسع وغني اين منه العالم العربي الصغير ، الفقير ؟ والآن ، وقد تحلحلت عن خناقه قبضة العازة بما يدخله من نتاج ريشته ، علاوة على الخمسة والسبعين دولاراً من ماري في كل شهر ، فلا شيء يعيقه عن الكتابة بالانكليزية الا الخوف من الحيبة ان هو عرض كتاباته فلم تلقى ناشراً ولا « سوقاً » .

ذات يوم ، في اوائل سنة ١٩١٨ ، دخلت على جبران فاستقبلني بوجه لحظت فيه من البشر اكثر من المعتاد . وما ان تبادلنا السلام حتى قدّم الي عددًا هو الاول من مجلة انكليزية باسم « الفنون السبعة » . نظرت في حلتها فاذا بها جميلة وفي اسماء مديري المجلة فاذا خليل جبران واحد منهم . تصفحه فاذا فيه امثال وقصيدة منشورة بقلم جبران

لم اسأل جبران من اين جاء بلمال ليكون شريكاً في مجلة كذلك المجلة ، ولكنني ابدت له اعجابي بسلوبه الانكليزي فقد وجدت فيه طلاوة ومرونة واتساقاً اكثر مما في اسلوبه العربي . وقلت له : « يا شيطان . لماذا خبأت عني هذه الجواهر حتى الان ؟ اذا كان عندك بعد من هذه البضاعة فابرزه في الحال . »

فاخذ يقرأ لي امثالا وقصائد دخلت كلها فيما بعد في كتابه « المجنون » ومنها قصيدته المنشورة في « الليل والمجنون » وقصيدته في « الله » وهذه الاخيرة ، عند ما بلغ ختامها حيث يقول الله : « انا جذورك في الارض وانت زهرتي في السماء . ومعاً ننمو امام وجه الشمس » . سألته :

« وما هو هذا الاله الذي ننمو وايه امام وجه الشمس ؟ أو بنمو الله ،

وكل ما ينمو يشيخ وينحل ؟ وكيف ينمو امام وجه الشمس ؟ أَلعلَّ
الشمس اقدم منه واثبت ؟ ام انت تعني ان ادراكك لله ينمو بنموك ؟
فاجابني ان له رأياً « خاصاً » في الله سيشرحه لي في وقت آخر . لكن
ذلك الوقت لم يأت . لان جبران عاد فوجد الها لا ينمو ولا يشيخ . ولا
يزيد ولا ينقص . ولا يتغير ولا يتحول .

لم يكتب لمجلة « الفنون السبعة » ان تعيش الا شهوراً قليلة كان منها
انها شجعت جبران على الكتابة بالانكليزية واعطته نماذج يعرضها من شعره
في الاندية الادبية ومكتبته من الاتصال بجمعية الشعر النيويوركية التي اتاحت
له ان يلقي في اجتماع من اجتماعاتها شيئاً من نتاج قلبه . فالتقى قصيدته « الليل
والجنون » . وعاد من الاجتماع ومراجله تغلي ومرارته تكاد تنفجر لان
الحضور استقبلوه واستقبلوها ببرودة في قلبها تصفير ازدراء وهمس سخريه .
وماذا فعل جبران ؟ لم يجزع ، ولم يقنط ، ولم يلجأ لثفر يج كربه الا
الى مفرج كل كربه ومذبح كل افراحه - الى قلبه . فكتب قصيدته
الانكليزية « الانكسار » وفيها قلب خيته خيبة لاعدائه وانكساره فوزاً
لارادته واندحاراً لهم :

« ... انكساري ، يا انكساري ، يا سفي البراق ودري الصقيل .
لقد قرأت في عينيك ان الجلوس على عروش الناس استعباد للناس . والوصول
الى مدار كههم انحطاط الى مستواهم ... انا وانت سنضحك مع العاصفة ...
وستقف امام الشمس بارادة لا تقهر . فحذار منا ، حذار ! »

هي حقنة من المورفين سكن بها جبران اوجاع كبريائه الجريح ، وانين
قلبه المتعطش الى « المجد والعظمة » ، ولجاجة فكره الثائر على الناس لغير
ما سبب الا لانهم على صورته ومثاله . ولو انه كان يعتقد ما يقول ، وبفعل

ما يعتقد ، لا اعتزل الناس كل الاعتزال ولكف عن مخاطبتهم ان بالكلام او
بالرسوم . اذ ما نفعه من مخاطبتهم وهو لا يريد ان يكون مفهوماً منهم
خشية من ان ينحط الى مستواهم — اذا فهموه اغتاض من نفسه ، وان لم
يفهموه اغتاض منهم ؟ أو ليس الكلام في مثل هذه الحالة فضولاً في فضول
والتصوير ضرباً من الجنون ؟ أو لم يكتب هو بقلمه مقالاً في « الكلام
وطوائف المتكلمين » ؟ أو لم يقل في ذلك المقال :

« لقد مللت الكلام والمتكلمين

« لقد تعبت روعي من الكلام والمتكلمين

« لقد ضاعت فكري بين الكلام والمتكلمين .

« والآن وقد ابنت بعض أرفي واشتمئزازي من الكلام والمتكلمين
اراني كالطبيب المعتل ، او كمجرم يقف واعظاً بين المجرمين . فقد هجوت
الكلام بالكلام . وتطيرت من المتكلمين وانا واحد من المتكلمين . فهل
يغفر الله ذنبي قُبيل ان يرحمني وينقلني الى غابة الفكر والعاطفة والحق حيث
لا كلام ولا متكلمون » ؟

فما باله يقرع آذان الناس من حين الى حين يعطيهم دستوراً للحياة قبل
ان يجعله دستوراً لحياته ؟ وما بال الطبيب لا يطب نفسه ؟

الا ان جبران ، وان شبه نفسه — على الورق — بمجرم يعظ مجرمين
وبعليل يطب معتلين ، لم يكن في الواقع يرى في نفسه علة او اثماً . بل كان
يرى كل العلة وكل الاثم في الناس . ولولا ذلك لما كتب مقاله الانكليزي
« العالم الكامل » فتهكم فيه على عالم الناس تهكماً كله مرارة من حيث

مقصده ، وكله جمال من حيث اسلوبه ، وكله حق من حيث معناه ، ثم هتف في آخره :

« ولكن لماذا انا ههنا يا إله الارواح الضائعة ، ايها الضائع بين الالهة؟ »

ومعنى هذا الهتاف : « ما شأني انا الكامل في عالم كله نقصان ؟ »

وهو هتاف لا أقدر ان رئيس اجناد الملائكة يفوه بمثله اذا هو زُجَّ يوماً بين الالباسة !

لقد خيل الى جبران انه يحارب عدوًّا اسمه العالم . ولو انه تمكن في ذلك الوقت ، مثلما تمكن فيما بعد ، ان يخرج من نطاق نفسه الضيقة ويشهد المعركة عن كسب لا بصر انها تدور بين ضدَّين اسم كليهما جبران خليل جبران — جبران في الصومعة وجبران في العالم . بجبران في الصومعة كان اذا ما فكر بايجاد الناس وجدها حقارة . وبغناهم وجده فقرًا . وبفضائلهم وجدها عبودية . وبملذاتهم وجدها اعشاش الم وشناعة . فكان يمتشق سيف النعمة فوق رؤوسهم . وجبران في العالم كان يشتهي ايجاد الناس وغناهم وفضائلهم وملذاتهم . فكان يأثمهم حاملاً قصعة المستعطي . ولأن الناقم لا يستعطي والمستعطي لا ينقم نشبت بين جبران الصومعة وجبران العالم حرب عوان تُتدفق عليك مرارتها من خلال سطور جبران الشاعر . وتظالعك اوجاعها من بين خطوط جبران الفنان .

ومن ثم فلو ان جبران وقف في ذلك الزمان امام المرأة وتفحص نفسه لوجد ان الجبة التي استعارها من نيتشه لم تكن « تلبق » له . لانها لم تفصل لكتفين ككتفيه ولا لقامة كقامته . فلا مزاج نيتشه مزاجه ، ولا ارادة نيتشه ارادته . اما القرابة التي وجدها بينه وبين نيتشه فلم تكن تُتعدى الخيال والقلب الذي يتخذ الخيال جسداً له . وفيما خلا ذلك فنيته في واد

وهو في واد . غير انه حاول ان يزدرد نيتشه بجيئه وحذائه . فغص . وفي غصته كان ينبوع مرارته وظلمته وعذابه .

هكذا مشى جبران في كهوف نفسه المظلمة وهو يحسبه ماشياً في كهوف العالم المظلمة . وهكذا راح يجرع المرارة معصورة من قلبه وهو يظنها آتية اليه من قلوب الناس المريرة . ولو ان روحه آتئذ كانت نيرة لما طغت عليها الظلمة . فهل تكون الظلمة الا حيث لا يكون النور ؟ ولو ان قلبه كان طامحاً بالحلاوة لما طفح بالمرارة . وهل يستقطر الحنظل من العسل ؟ وقد بلغت هذه المرارة من نفسه مدًى اصبغ عنده يرى الحياة « امرأة عاهرة » ولكنها جميلة . ومن يرَ عهرها يكره جمالها . « وكاد ينسى كل ما كان يقدره في اول شبابه » لا سيما الحب — حب المرأة . فقد صار يرضى بالمرأة شريكة له في فراشه ولا يرضاها شريكة في قلبه وفكره وروحه . بل صار اذا ما احس بحبها يمتد في جوانب قلبه ينتهر قلبه وينتهرها . لانه يربأ بقلبه ان « يستسلم » للحب وبارادته ان تخضع لارادة امرأة . وما « الجنية الساحرة » الا امرأة اثارت شهوات جبران ثم تملكها حتى كادت تسلخه عن نفسه . فقام يُعلن استقلاله عنها ويعرض عليها شروطه :

« قد تمسكت باذيالك وسرت وراءك كطفل يلاحق أمه ، متناسياً ما بي من الاحلام ، محذقاً بما فيك من الجمال ، متعامياً عن مواكب الاشباح المتطايرة حول رأسي ، مجذوباً بالقوة الخفية الكامنة في جسدك ... »

« ولكن قفي قليلاً ايتها الساحرة . فما قد استرجعت قواي وكسرت القيود التي برت قديمي ، وسحقته الكأس التي شربت منها السم الذي اسطيبت به . فماذا تريد من ان نفعل ، وعلى اية طريق تريد من ان نسير ؟ .. » هل تكثفين بحب رجل يتخذ الحب نديماً وبأباه سيداً ؟

« هل نقتعين بشغف قلب يهيم ولا يستسلم ، ويشتل ولكنه لا
يذوب ؟ ... »

« إذا هذه يدي فهزينا بيدك الجميلة ، وهذا جسدي فضميه بذراعيك
الناعمتين ، وهذا في فقبليه قبلة طويلة عميقة خرساء . »^(١)

من حين الى حين كانت تشرق وحدة جبران المظلمة بنور هادئ بعيد
يشع عليه من قلب ماري المحب . ومن حين الى حين كان يقترب منه ذلك
النور فيؤنسه ويهديه عندما كانت ماري تزوره في نيويورك فيجعل بيته
بيتها وسريره سريرها . او عندما كان يزورها في بوسطن فتجعل قلبها
الدافئ وكراً لقلبه الشريد . وصدرها المطمئن ملجأً لمطامحه الصاخبة ،
واحلامه اللجوجة وافكاره الثائرة

ومن حين الى حين كان يطرق اذنه في سكون الليل صوت غريب -
قريب . هو صوت ذلك الشاب الذي كان جبران قد اذاع خبر موته ودفنه
« في وادي الاحلام » والذي لم يمض قط بل أدرج في اكفانه قبل ان
تغادره الروح . والاكفان التي أدرج فيها لم تكن الا جبة زردشت
وسراويله

(١) قالت لي سيدة لبنانية في نيويورك انها (الجنية الساحرة) المقصودة في المقال

الصوتان

« اسحبها ! »

« لا بل انت اسحبها ! »

هو جدال قصير كُنا نبدأ به اكثر مقابلتنا . فلا تبادل السلام حتى يسأل واحدنا الآخر عما عنده من جديد نظمه او نثره . ولا يندر ان يد الواحد يده الى جيب الآخر طمعاً باكتشاف قصيدة لم يشق بعد حجابها عن وجهها .

اتيت جبران هذه المرة — وذلك في اواسط ايار (مايو) سنة ١٩١٨ — وللحال فهمت من شدة الحاحه علي بابر از قصيدة جديدة ان عنده شيئاً جديداً يقرأه لي . ولم يخب ظني . فما ان استقر بنا المقام واشعلنا كل واحد سيكارة واطرعنا كأسماء من النبيذ حتى تناول جبران دفترًا وقبل ان يبدأ بالقراءة مهد السبيل بقوله :

« هذه ستعجبك يا ميسا . هي قصيدة ذات صوتين . أو لا ترى ان تعداد الاصوات يزيد في وقع القصيدة ومداهها ويسترعي انتباه القارئ اكثر من صوت واحد ؟ »

ثم اخذ يقرأ مفخماً صوته ومحاولاً ان يعطيه قوة لم تكن له وخشونة لم تكن تلائمهُ :

« الخير في الناس مصنوع اذا جبروا والشر في الناس لا يفنى وان قبروا »
وهكذا حتى آخر القصيدة .

كان جبران يقرأ ويلحن في قراءته الى حد انه لو سمعه رجل غريب لا يعرفه ولا يعرف عنه شيئاً لقال ان قارئ القصيدة غير الذي نظمها . اما انا فكنت اسمعه واعجب باذنه الموسيقية التي كانت تحافظ على الوزن بالرغم من الالخان . وعند ما لحظت في احد الايات خللاً فاضحاً في الوزن ونهته اليه عجبت لانه لم ينتبه اليه من تلقاء نفسه . وعبثاً حاولت ان افعله له . فهو لم يكن يعرف النفايل ، وان كان قد درسها في المدرسة . وظل بعيد ذلك البيت ولا يرى فيه عيباً الى ان بدلت له الكلمة المقلقلة بكلمة استقام معها الوزن . وحينئذ ادرك الاختلال . مثلما اني نهته الى بعض هفوات نحوية . منها قوله .

« فسارق الزهر مذموم ومحتقر وسارق الحقل برعى «باسل الخطر»
فلم اتمكن من اقناعه لا بالاعراب ولا بالمنطق . لكنه قال لي انه اذا توفى الى قافية تأتي بذات المعنى او باقوى منه بدّلها منها^(١) والا ترك البيت على حاله . كذلك قلت له ، فيما قلته ، ان مطلع القصيدة ضعيف البنية شاحب اللون ، لا يليق بما في القصيدة من قوة وجمال . فاجابني انه يشعر شعوري وانه سيغير البيت اذا توفى الى افضل منه .

كنت اسمع جبران يقرأ وقرأ جبران في ما اسمع :

هوذا جبران « المتقمص في جسد رجل يحب العزم والقوة » ينزل جبران الذي « مات ودفن في وادي الاحلام » والذي ، من حيث لا يدري دافنه ، مزق اكفانه ودحرج الحجر عن باب قبره وعاد الى الحياة وفي عينيه نور حقيقة جديدة وفي قلبه جذوة ايمان قديم

(١) بقي البيت على حاله في الطبعة التي اصدرها جبران في نيويورك على قفته : لكني رأيت في طبعة

مصرية مغيراً هكذا : وسارق الحقل فهو الباسل الخطر

بطل الاول على الحياة من كوة لا يبصر منها الا الانسان . وبعد ان
 يتفحصها بمجهر عقله يجدها حلقات متنافرة متناقضة : هناك الخير والشر .
 والحق والباطل . والعدل والظلم . والحرية والعبودية . والحب والبغض .
 والموت والحياة وغيرها من المتناقضات . ويجد الناس في ارتباك مستمر
 وتشويش ابدى لانهم يحاولون ان يؤولفوا من تلك الحلقات المبعثرة سلسلة
 كاملة فلا يستطيعون . وهم لا يستطيعون لانهم لا يعرفون كيف يقيسون
 الحلقات ويزنونها . اما هو فيعرف . لكنه ضنين بمعرفته على قدر ما هو
 جواد بهزئه . فهو يهزأ بخير الناس وشرهم ولا يقول لهم ما هو خيره وشره .
 وهو يسخر بدينهم ولا يطلعهم على دينه . ويضحك من عدلهم ولا يتنازل ان
 يبين لهم عدله . ويتهمهم على لطفهم من غير ان يعلمهم ما هو اللطف . وبين
 قذائف التقرير والتبكيك والهزء تفلت من فمه السوبرماني تنف من معرفته
 الكاملة . وما كانت لتُلت الا لتُري الناس الهوة الهائلة التي تفصل بينهم
 وبينه . من تلك التنف قوله في الحق :

«والحق للعزم والارواح ان قويت سادت وان ضعفت حلت بها الغير»

وقوله في الحب ، وكأنه يبكت نفسه في ما يقول :

«والحب ان قادت الاجسام موكبه الى فراش من الاغراض ينتحر»

«والحب في الروح لا في الجسم تعرفه كالخمر للوحي لا للسكر ينعصر»

وقوله في العلم :

«وافضل العلم حلم ان ظفرت به وشر ما بين ابناء الكرى سخر»

وفي السعادة :

«وما السعادة في الدنيا سوى شبح يرجى فان صار جسماً مله البشر»

وفي الموت :

«والموت في الارض لابن الارض خاتمة وللأثيري فهو البدء والظفر»
وبالاجمال ما ذا يقول للناس هذا الواقف على كل اسرار الارواح
والاجساد ؟ يقول لهم ان حلقات حياتهم لا تأتلف لانهم لم يحسنوا صنعها
وتسميتها فلو انهم مدّدوا حلقة الحق واسموها عزمًا لاستقام حقهم . اما كيف
تتعاقد حلقة العزم وحلقة الضعف من غير ان يكون بينهما نفار فامر يسكت
عنه كل السكوت .

ويقول لهم انهم لو شربوا خمرة الحب للوحي لا للسكر لعرفوا الحب
ولكنه لا يرشدكم كيف بوئفون بين الحب والبغض لكيلا يكون في
سلسلة حياتهم قلق .

ويقول لهم ان الموت هو النهاية لمن كان ارضياً والبدء والظفر لمن كان
اثيرياً . اما كيف يمكن ابن الارض ان يصبح اثيرياً لكي يتغلب على
الموت فسرّ لا يكشفه لهم . ولا يكشفه لهم لانه لا يعرفه . ولا يعرفه
لانه ما يزال في عالم المقاييس والموازن يتوهم ان الناس يجهلون الحياة لانهم
يجهلون قياسها ووزنها . ولو انهم قاسوها بمقاييسه ووزنوها بموازينه لوجدوها
اطول واثقل مما يحسبون . ولم يخطر له ببال ان المقاييس ، مهما طالت
وتنوعت ، والموازن مهما دقت وثقلت ، لا تقيس الا ما له بداية ونهاية —
طولاً وعرضاً وعمقاً وعلوً . ولا تزن الا ما له وزن . اما الحياة التي لا بداية
لها ولا نهاية ، والتي ليست طويلة ولا قصيرة ، ولا خفيفة ولا ثقيلة فكيف
تقيسها وبماذا تزنها ؟

لو ان نيتشه ادرك هذا الامر لما بذّر قوة خياله الهائلة سدًى في
التفتيش عن مقاييس وموازن جديدة ، وفي محاربة الذين جاؤوا ليخلصوا العالم

من كابوس المقاييس والموازن ، امثال يسوع القائل : « انا في الآب
والآب فيّ . وانا فيكم وانتم فيّ » . فمن كان في « الآب » - عنوان
الحياة السرمدية - كان سرمدياً كالآب . وهذا كيف نقيسه وتزنه ؟
ذلك حد ما توصل اليه جبران المتقمص في جسد رجل يحب
العزم والقوة

اما جبران الناهض من لحده في وادي الاحلام فينبهي على مسرح الحياة
خيالاً طليقاً من قيود المقاييس والموازن وكل اصناف المتناقضات . وما
الغاب التي يسرح فيها ويردّ كل شيء اليها سوى عنوان الحياة الشاملة ،
لا الطبيعة بمعناها الضيق . وما الناي الذي ينفخ فيه سوى رمز الروح
الذي تلتقي فيه كل الارواح فتؤلف لنا واحداً كاملاً لا نفار فيه ولا
تشويش .

يا كل الذئب الحمل فيصيح الناس : هي التساوة بعينها والجور الذي ما
بعده جور ! الا ان الغاب - وهي الحياة الشاملة - لا تولول ولا تصيح .
لأنها تطعم ذاتها من ذاتها . فلا موت الحمل عندها مأتم . ولا غذاء الذئب
وليمة . وسيان عند الشجرة أكل ثمرتها انسان ام ثعبان . ام تعياً ظلها قنفذ
ام غزال . ام تدفأ بحطبها ملاك ام شيطان . فالانسان والثعبان ، والقنفذ
والغزال ، والملاك والشيطان ابناء الغاب الواحدة . وللغاب منهم غاية
واحدة . ولها فيهم مشيئة واحدة . من عرفها لم يعاندها بل استسلم لها
وباستسلامه لها جعلها مشيئة له . ومن جعلها فعاندها سحقته فأشقته .
فالاستسلام نوعان . هناك استسلام الجاهل وهو العبودية . وهناك استسلام
العارف وهو الحرية . ومن هذا النوع استسلام الناي في الناي والقائل :

« ليس في الغاب رجاء لا ولا فيه الملل »

كيف يرجو الغاب جزءاً ؟ وعلى الكل حصل ؟

اعطني الناي وغنّ فالغنا نارٌ ونور

وانين الناي شوق لا يدانيه الفتور

كأنني يجبران بعد ان اصغى الى الصوتين المتنافرين في داخله وقف
يسأل نفسه عن مقرها بينهما - الى ايهما تميل ؟ أ إلى الجاهل المتمرد ، ام
الى العارف المستسلم ؟ فاجابته نفسه ، ولم يكن في جوابها من ريب :
« العيش في الغاب . والايام لو نظمت

في قبضتي لغدت في الغاب نثرتُ »

لكنها ، ما اعلنت رغبتها في الانعتاق من عالم المقاييس والموازن ،
والخير والشر ، حتى ثارت عليها رغائبها الارضية ومطامعها البشرية .
فاستسلمت لضعفها من جديد وراحت تقدم عنه اعتذاراً . وفي اعتذارها مرارة
الحية والم الاندحار :

« لكن هو الدهر في نفسي له أربٌ فكلم رمت غاباً راح يعتذرُ
والنقادير سبل لا تُغيرها والناس في عجزهم عن قصدهم قصروا »
بعد ان انتهينا من القصيدة اخذ جبران بعرض عليّ الرسوم التي
كان قد اعدّها لها . فوجدت فيها مواكب من الحياة كانت اشد فعلاً
في نفسي وابعداً اثرأ في خيالي من المواكب التي ساقها امام عيني في
حلل من الكلام الموزون . فحيث كنت اصغي الى آياته فاشعر بالجهد العنيف
الذي بذله في تذليل الكلام والاوزان والقوافي للعاني ، وابصر ان النجاح
لم يكن نصيبه في كل جهوده ، كنت انظر الى رسومه فاشعر كأنها رسمت
ذاتها من غير ما جهد او عناء . فكأن عين جبران الفنان كانت اطوع

لخياله ، ويده اطوع لعينه من قلم جبران الشاعر لشعوره . وفوق ذلك
جبران الشاعر كان شديد الولع بمزج الوان الكلام ورناته . فكان يكثر
من الادهان والانغام الى حد الزر كشة والتنميق . حين ان جبران الفنان كان
يطلب البساطة المتناهية فتأتيه بسهولة متناهية . هي بساطة كلاسيكية تعرف
اصول الفن وتُنسى انها تعرفها . وهي بساطة تخلق لك من خطوط قليلة
اشكالا كثيرة . وخطوطها ليست حدوداً لخياالك . بل هي عيون واجنحة
تمضي به الى ابعد من الخطوط والحدود .

اول رسم وضعه جبران امامي على المنصب كان يمثل فتى عارياً ، قوي
العضل ، متسق الجسم ، خفيفه ، يسير بخطوات ثابتة واسعة ، وفي يده اليمنى
ناي ، وعينه تحدقان بما هو ابعد من مجال البصر . وفي الفضاء من خلفه شكل
اثري ساج في الهواء يمثل امرأة لا ترى منها غير رأسها وكتفها وبعضاً من
صدرها وذراعيها الممدودتين كأنهما جناحان يحرسان حامل الناي . وترى
في وجهها ما يشبه الحب ، لكنه غير ما يعرفه الناس باسم الحب . وترى في
عينها العالقتين بما وراء الافق لهفة كأنها تقول للفتى : سر ولا تخش .
فانا معك . ووراء الفتى قد سار جمهور من الناس يدورون بالنسبة
اليه اقزاًماً .

هو ذا صاحب الخيال الذي ادرك بخياله سرّ الامثال فامثل بارادته .
وكان لذلك حرّاً . والشكل الاثري هو خياله الاكبر وحاديه وهاديه .
والناس من خلفه قطعان تسير ولا تعلم لماذا والى اين تسير . فهم العبيد لان
ليس لهم من خيالهم محرّر .

كنت ظننتني أخذت بذلك الرسم حتى برز امامي غيره . فادركت
انه دون قمة جبران الفنية عندما رأيت رسم الدين والعدل والحرية وسواها .

فرسم الدين يمثل شبه برج اعلاه مؤلف من رؤوس ثلاثة - راس رَع
الى اليسار وزرذشت الى اليمين وبوذه في الوسط . وعلى راس بوذه ، بين
قلنسوة رَع وزرذشت قد ارتكزت كرة ترمز الى الحقيقة اللامتناهية .
وعند منتصف البرج ، على صدر بوذه ، الناصري المصلوب وقد است كفاء
كتف رَع من جهة وزرذشت من الاخرى . ومن تحت ذراعي المصلوب
حتى اسفل البرج اشكال بشرية تغلغلت بينها افاعي الخرافات والسخافات
والشهوات والمتاجر الرائجة بين الناس باسم الدين في كنف اولئك الجبابرة
الاربعة .

والرسم الثاني - رسم العدل - يمثل جباراً مكتمل تقاطيع الجسم .
لعله السوبرمان . وقد امسك ييسراه ميزاناً وانحنى الى اليمين فلمس باصابعه
كفة من كفتي الميزان فهوت الى تحت وارفعت الثانية وفيها شكل انسان
صغير ملتوي على ذاته . ومن حول حامل الميزان شبه دائرة من البشر المتسرعين
صعوداً وهبوطاً يخيل اليك انه قد وزنهم كلهم فوجدهم ناقصين . كنت انظر
الى الرسم فلا ارتوي من تفاصيله والتعجب من الالفة الكاملة بين اصغرها
واكبرها والوزن الكامل في تركيبها . حتى ليستحيل عليك ان تغير خطأ
فيها من غير ان تحدث خللاً في توازنها والفتها .

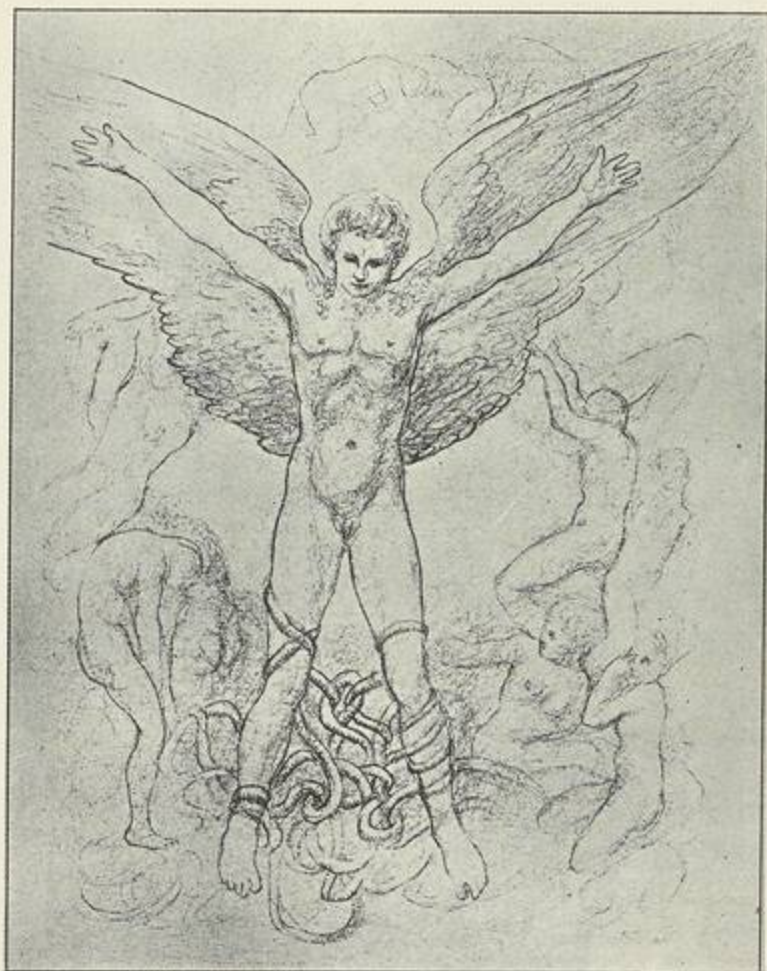
اما رسم الحرية ففيه من الالفة والاتساق والتوازن مثلاً في رسم العدل
لكنه يثير فيك شعوراً وافكاراً وخيالات تظل تزدهم في روحك زماناً
بعد ان يغيب الرسم عن عينيك . فانت تبصر فيه فتى بجناحين . وقد اسبل
جناحيه الى فوق وانتصب بقامته الطويلة وافرغ رجليه الواحدة عن الاخرى
وجمع كل قواه للطيران . ولكنه لا يستطيع ان يرتفع عن الارض .
تحقق في عضلاته المتكشمة من قوة الاجهاد وفي وجهه المنصب بكل معانيه الى

غاية واحدة فتكاد تنفخ من مكانك لتساعده على يرتفع الى الجو . لكنك ،
بعد ان ترى الجبال المحبوكة حول رجليه ، تدرك انه لن يطير حتى يقطعها .
وانها لا تقطع بسيف ولا تقرر بمطرقة . هي جبال الرغائب والشهوات
الارضية . وكافي بجبران رسم نفسه بذلك الرسم . وكأني به وصف نفسه
عند ما قال :

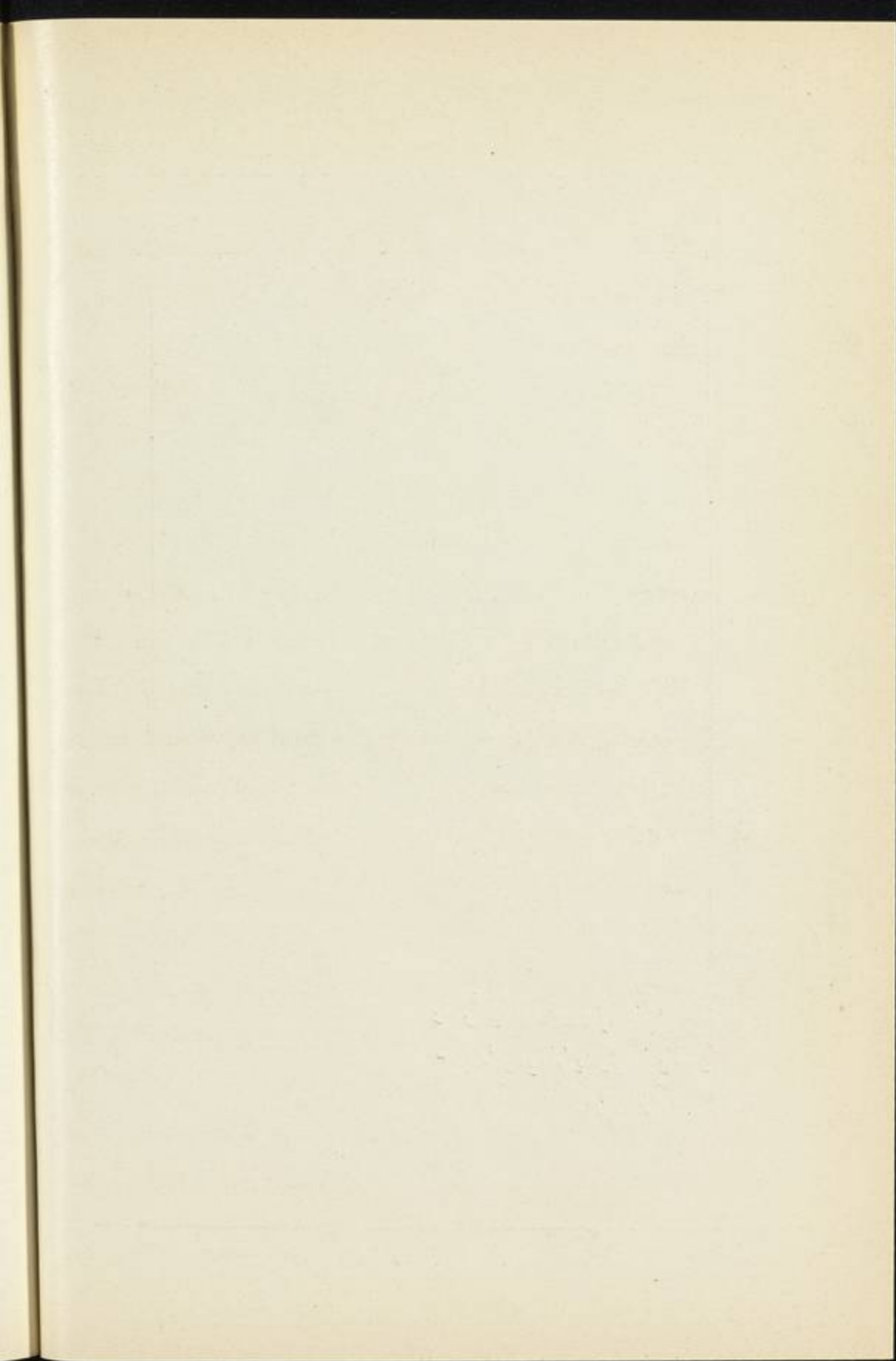
« والحر في الارض بيني من منازعه سجناً له وهو لا يدري فيؤتسر »

بعد ذلك بايام ودعت جبران ونيويورك ومن فيها من قليل الصحاب
وارتدبت البزة العسكرية ، وثقلت السنكة والبندقية ، وسافرت جندياً
مع الجند الاميركي الى فرنسا .

وعند ما عدت من المحزنة العالمية بعد سنة وشهرين وجدت ان جبران
قد اضاف الى الادب العربي اثراً جديداً باسم « المواكب » طبعه على نفقته
في نيويورك طبعاً انيقاً فاخراً . وانه قد شق لذاته درباً في الادب الانكليزي
بكتاب صغير اسماء « المجنون » وتوفى الى نشره بواسطة شركة للنشر حديثة
العهد في نيويورك اسمها رجل يهودي الماني اسمه « كنوف » عرف كيف
يستثمر مواهب الكتاب الحديثين . فكانوا سبب ثروته وكان مساعداً
كبيراً في نشر شهرتهم .



والمرء في الارض بيني من منازعه
سجناله وهو لا يدري فيوئسره
عن «المواكب»



ندره حداد
ايليا ابو ماضي
وديع باحوط
رشيد ايوب
الياس عطا الله
عبد المسيح حداد
نسيب عريضة



الرابطة القلمية
ARRABITAH
31 WEST 101ST ST. NEW YORK

جبران خليل جبران
عميد
مخائيل نعيمة
مستشار
وليم كاينفليس
خازن

محت الحرب فيما محته من الاسماء اسم « الفنون » من سجل الصحافة .
فقضت على زنبقة هيفاء فواحة في حقلنا الادبي كنت وجبران تعشقها ونغار
عليها غيرة غارسها وولي امرها - نسيب عريضة - واشد . فقد كانت
لنا ، ولكتلة صغيرة من الادباء في نيويورك ، بوقاً صافي الصوت لانخجل
من ان ننفع فيه من ارواحنا . وكانت بداً جميلة ونظيفة بلذ لنا ان نضع في
راحتها نقاً من قلوبنا وافكارنا لتحملها الى من تهتمهم قلوبنا وافكارنا .
وكانت ادارتها ملجأ لشوارد ارائنا ، وجواً فسيحاً يمزج فيه هزلنا بمجدنا
وتلتقي احلامنا بالآلما

و كنت على اثر رجوعي من فرنسا في صيف سنة ١٩١٩ قد سافرت
الى ولاية واشنطن لارتاح ولو قليلاً من الحرب وويلاتها ، ولانسى الحلو
والمرّ من تذكاراتها . وكان جبران استطال غيبي او خشي ان تطول
فكتب يلح عليّ بالرجوع للسعي في رد « الفنون » الى الحياة . ويرسم لي
خطة طويلة للعمل ويختتمها بقوله :

« الخلاصة — انه على وجودك في نيويورك بشوق نجاح المشروع ،
واذا كان رجوعك الى نيويورك يستلزم التضحية بالتضحية في مثل هذه
الظروف هي العزيز الموضوع على اقدام الأعز والمهم الموقوف على مذبج
الاهم . وعندي ان الاعز في حياتك هو تحقيق احلامك . والاهم في حياتك
هو استثمار مواهبك . . . »

عدت الى نيويورك ولكن « الفنون » لم تعد الى الحياة . اذ وجدت
ان الخطة التي كان قد رسمها جبران ونسيب كانت خطة يسهل تطبيقها على
الورق ويكاد يستحيل تحقيقها بالعمل . فالذين كانت قلوبهم في « الفنون »
كانت جيوبهم في عالم الشكوك والظنون . والذين كانت جيوبهم تعج
بالذهب كانت قلوبهم بعيدة عن الادب . فمن اين تأتي بالمال اذا كنت تأبى
التذلل والاحتيال ؟

ماتت « الفنون » ولكن كانت هناك « السائح » — جريدة نصف
اسبوعية لصاحبها ومؤسسها عبد المسيح حداد ، كان قد مضى على تأسيسها
نحو الست من السنوات . نعم . هي لم تكن من الادب الصافي بمرتبة « الفنون »
لكن عبد المسيح اخ لنا . قلبه قريب من قلوبنا وروحه صديقة لارواحنا .
وهكذا ما درينا الا « والسائح » بوقنا ، وادارته مكة خطواننا ، ومنبر
افكارنا ، وعكاظ قوافينا ، ومسرح مهازلنا . هناك كنا نلتقي كلنا لا اقل
من مرة في الاسبوع ، وبعضنا كل يوم في الاسبوع — عصبة صغيرة تفاوتت
قواها ولكن توحدت نزعاتها ومراميتها ، فأتلفت قلوبها وصفت نياتها . بينها
من كتب في حياته قليلاً ثم انقطع عن الكتابة كل الانقطاع . وبينها من
كان لا يكتب الا في النادر . وبينها من كان لا يقعه عن الكتابة غير
قوة فوق قوته . لكنهم كلهم ، المقلال منهم والمكثار والذي لا يقل ولا

يكثر ، قد تقاربوا في ما يستسيغونه ويكرهونه من الادب . وبالطبع ، كان ضمن هذه العصابة افراد تربطهم الفة ادبية وفنية وروحية اقوى من التي كانت تربط العصابة بمجموعها .

من تلك العصابة تألفت « الرابطة القلمية » . واليك فقرات من وقائع الجلسات التأسيسية كما دونتها يدي :

« في خلال ليلة احيائها صاحب « السائح » واخوانه في بيتهم — في العشرين من نيسان (ابريل) سنة ١٩٢٠ — ودعوا اليها رهطاً من الادباء والاصحاب ، دار الحديث عن الادب وعمما يمكن الادباء السوريين في المهجر القيام به لبث روح جديدة نشيطة في جسم الادب العربي وانتشاله من وهدة الخمول والتقليد الى حيث يصبح قوة فعالة في حياة الامة . ورأى احدهم ان تكون لادباء المهجر رابطة تضم قواهم وتوحد مسعاهم في سبيل اللغة العربية وادائها . فقابلت الفكرة استحسان كل الادباء الحاضرين وهم : جبران خليل جبران . نسيب عريضة . وليم كاتسفليس . رشيد ايوب . عبد المسيح حداد . ندره حداد . ميخائيل نعيمة . واقروا باجماع الاصوات مباشرة السعي لتحقيق هذا الفكر واذ لم يكن من فرصة للبحث في كيفية تأليف الجمعية وقوانينها دعا جبران خليل جبران الادباء الى عقد اجتماع في منزله ليلة الثامن والعشرين من نيسان »

« جلسة الثامن والعشرين من نيسان سنة ١٩٢٠ عند جبران خليل جبران : التأم تلك الليلة في منزل جبران الادباء الآتية اسماؤهم : عبد المسيح حداد . ندره حداد . الياس عطا الله . وليم كاتسفليس . نسيب عريضة . رشيد ايوب . جبران خليل جبران . ميخائيل نعيمة . وبعد المباحثة اقر الجميع الامور الآتية :

- ١ - ان تدعى الجمعية « الرابطة القلمية » وبالانكليزية (Arrabitah)
- ٢ - ان يكون لها ثلاثة موظفين وهم : الرئيس ويدعى « العميد » .
- فكاتم السر ويدعى « المسنشار » . فأمين الصندوق ويدعى « الخازن »
- ٣ - ان يكون اعضاؤها ثلاث طبقات - عاملين ويدعون « عمالاً »
فناصريين ويدعون « انصاراً » . فمراسلين .
- ٤ - ان تهتم الرابطة بنشر مؤلفات عمالها ومؤلفات سواهم من كتاب
العربية المستحقين وبترجمة المؤلفات المهمة من الاداب الاجنبية
- ٥ - ان تعطي الرابطة جوائز مالية في الشعر والنثر والترجمة تشجيعاً
للادباء

وكل الحضور امر تنظيم القانون الى العامل ميخائيل نعيمة . ثم
انتخبوا باجماع الاصوات جبران خليل جبران عميداً . وميخائيل نعيمة
مستشاراً . ووليم كاتسفليس خازناً

نظمت القانون ووضعت له مقدمة . وها انا اقتطف من تلك المقدمة
بضع نبذة تبين روح الرابطة وراميها :

« . . . ليس كل ما سطر بممداد على قرطاس ادباً ، ولا كل من حرر
مقالاً او نظم قصيدة موزونة بالاديب . فالادب الذي نعتبره هو الادب
الذي يستمد غذاءه من تربة الحياة ونورها وهوائها والاديب الذي
نكرمه هو الاديب الذي خصّ برقة الحس ودقة الفكر وبعد النظر
في تموجات الحياة وثقلباتها وبمقدرة البيان عما تحدثه الحياة في نفسه من
التأثير . . .

« ان هذه الروح الجديدة التي ترمي الى الخروج بادابنا من دور الجمود
والتقليد الى دور الابتكار في جميل الاساليب والمعاني الحرية في نظرنا بكل

تنشيط وموازرة فهي امل اليوم وركن الغد . كما ان الروح التي تحاول بكل قواها حصر الاداب واللغة العربية ضمن دائرة تقليد القدماء في المعنى والمبنى هي في عرفنا سوس بنخر جسم ادابنا ولغتنا . وان لم نقاوم ستؤدي بها الى حيث لا نهوض ولا تجدد

« يد اننا ، اذا ما عملنا على تنشيط الروح الادبية الجديدة ، لا نقصد بذلك قطع كل علاقة مع الاقدمين . فبينهم من فطاحل الشعراء والمفكرين من سبق آثارهم مصدر الهام لكثيرين غداً وبعد الغد . الا اننا لسنا نرى في تقليدهم سوى موت لادابنا . لذلك فالمحافظة على كياناتنا الادبي تضطرنا للانصراف عنهم الى حاجات يومنا ومطالب غدنا . وحاجات يومنا ليست لحاجات امسنا . . . »

ورسم جبران للرابطة شعاراً جميلاً يمثل دائرة في وسطها كتاب مفتوح وعلى صفحته خطت هذه الآية من الحديث « لله كنوز تحت العرش مفاتيحها السنة الشعراء » . ومن فوق الكتاب قد اطلت شمس ملأت اشعتها نصف الدائرة الاعلى . وعند اسفل الكتاب سراج شطره اليمين محبرة قد انغمس فيها قلم فتحول حبرها الى لسان من نور خارج من طرف السراج اليسر . ومن تحت الدائرة اسم الرابطة القلمية مخطوط باحرف مستقيمة الزوايا تشبه بعض انواع الخطوط الكوفية ، ومن تحته اسم الرابطة بالانكليزية فعنوانها الذي جعلناه عنوان جبران

كان ذلك الشعار خاتمة دور الرابطة « التأسيسي » والحد الذي وقفت عنده في مشابقتها جمعية منظمة . فهي من قبل ان تنظم ذاتها قانوناً وتخذ لها شعاراً كانت « روحاً » وظلت كذلك كل حياتها ، وقط لم تكن « جمعية » بمعنى هذه الكلمة المألوف . بل كان جل ما فعلته من ذلك القليل

ان اعطت تلك الروح اسماً تعرف به بين الناس . واعطت العاملين فيها شبه
محبة مشتركة يصوبون اليها خطاهم ومعاً يعملون على صيانة حرمتها ورفعها
عن التحذلق والابتذال

على اثر « تنظيم » الرابطة اخذت كتابات عمالها تظهر في اعداد
« السائح » وتحت عنوان كل مقال او قصيدة اسم صاحبها متبوعاً بهذه
الكلمات : « العامل في الرابطة القلمية » . وفي صدر كل عام كانت « السائح »
تصدر عدداً ممتازاً يشترك فيه كل عمال الرابطة من التحرير حتى انتقاء الورق
والغلاف وثنسيق المواد وتحديد القطع الخ . وهذا العدد كان يطلع على
الادب العربي كحدث خطير . فتكتب الصحف فيه فصولاً ونقل عنه الشيء
الكثير . وهكذا انتشر اسم الرابطة في العالم العربي وكل مهاجرة واقبلت
الصحف على اثار عمالها لنقلها وتعلق عليها وقام البعض يجمعها في مجموعات منها
ما يدرس اليوم في كثير من المدارس . ونعم انصار التقليد والجمود عليها فما
كانت نعمتهم الا لتزيدها قوة وحماسة واندفاعاً ولتنمي عدد انصارها ومريديها
ومقلديها والمعجبين بها في كل قطر عربي . حتى حار في امرها اصحابها واعدائها
على السواء . فما عادوا يعرفون الى ماذا يعزون سر قوتها وبعد تأثيرها . فمن
قائل ان السر في الادب الاميركي الذي تأثر به عمال الرابطة ، وهو قول
فارغ . ومن قائل انه في جو الحرية الاميركية . وهو قول افرغ . ومن
قائل انه في تهتك عمال الرابطة من حيث اللغة العربية واصولها ، وهو قول
افرغ واعقم من القولين الاولين . اما الحقيقة فلا يعلمها الا الذي جمع عمال
الرابطة القلمية في فسحة محدودة من ديار غربتهم ولحمة معلومة من زمان
هجرتهم ووضع في صدر كل منهم جذوة تختلف عن اختها حرارة وبهاء ،
لكنها من موقد واحد واياها .

اذكر ان صاحب جريدة عربية في نيويورك ، لحسد في قلبه ، تهجم مرة في جريدته على الرابطة وعلى جبران بنوع خاص . وناول في تهجمه رجلاً جعله من عمال الرابطة ولم يكن منهم . وانفق ان النقيته في ذلك الوقت فقلت له : فلان ياذا ليس من الرابطة . واخبرت جبران عن ذلك على سبيل التفكهة . وشد ما كان عجيبي عند ما التفت الى جبران فاذا بعينه نقدحان شراراً وشفتيه ترتجفان غضباً ونقطران سماً . واذا به يقول :

« لو النقيته انا يا ميسا لفعلت غير ما فعلت انت . » قلت :

« وماذا كنت نفعل ؟ » قال :

« كنت ابصق في وجهه وافكّ رقبته . ان كلباً مثله لا يستأهل

الا العصا . »

لم استغرب ما قاله جبران لانني كنت اعرف اطباعه واعرف ان كل عامل من عمال الرابطة ، لا سيما جبران ، كان يغار على سمعتها اكثر مما يغار على سمعته . لكنني شكرت الله لان جبران لم يوفق الى « فكّ » رقبة ذلك المسكين وان الرابطة القلمية لم « تفكّ » حتى اليوم من الرقاب الا رقبة الصنم الذي كان اكثر ابناء الضاد يخرون له ويسجدون امامه ويمجدونه باسم الادب

العواصف

على اثر صدور كتاب «العواصف» لجبران في سنة ١٩٢٠ كتبت مقالاً توسعت فيه بعض التوسع في درس الكتاب ونفسية صاحبه الادبية ، والمرارة التي كانت تفيض من قلمه في ذلك العهد ، والكآبة التي كانت تطفو على مرارته .^(١) وكان المقال في جيبى عندما عرّجت على جبران بطريقي الى ادارة «السائح» . فسألني حسب عادته ، اذا كان عندي من جديد اقراه له . فاجبته :

« عندي مقال لا استطيع ان اقراه لك الا اذا استطعت ان تسمعه كما لو كنت غير جبران خليل جبران . »
قال : « انك تسألني امراً شاقاً يا ميسا . أَلعلّ مقالك في جبران خليل جبران ؟ »

قلت : في عواصفه . — فقال وكان قوله مزيجاً من المزح والجد :
« حسن يا ميسا . سأحاول ان افعل الان ما صرفت حياتي محاولاً ان افعله . وذلك ان انسى نفسي . لكن بي خوفاً منك يا ميسا . فلك عين تنفذ الى اعماق نفسي . وقلم ، لو شاء ، لمزق الستائر التي اتستر بها عن اعين الجهلاء والعميان . اقرأ . »

اخذت اقراً وجبران يصغي . فاتيت على شبه توطئة قصيرة اقابل فيها بين ضروريات الحياة وكلياتها واقول : « غداً ستغمرنا لجة العدم باحزابنا

(١) المقال مدرج في كتابي (الغريال) تحت عنوان (عواصف العواصف)

واوصابنا . بجائعنا ومخومنا . بفقرنا وموسرنا . بوجيها وحقيرنا . وسنقوض
الايام اركان ما شدناه من البنايات السياسية والاقتصادية . فلا يبقى الا الخالد
والجميل والحق فينا . ومن ذا الذي يبقى ليخبر عن الخالد والجميل والحق فينا ان
لم يكن ابن الادب وابن الفن ؟ »

ثم اسأل عن ابناء الادب والفن عندنا الذين سيخلدون هذا الجيل من
وجودنا في سفر الاجيال فلا اجدهم في الكثير من « بلابل النيل وشحارير
لبنان وحساسين سوريا » بل في فئة قليلة من الذين « قد لمست الحياة افواههم
بجمرة جديدة فانقذت قلوبهم بنار ما عرفتها قلوب من حولهم من المنتمين
الى مملكة القلم . بعضهم لا يزال في رحم السكينة المولدة . وبعضهم يتنفس
الهواء الذي تنفسه ويطأ الاديم الذي نطأه . ومن هؤلاء ، بل في طليعة
هؤلاء ، شاعر الليل . شاعر العزلة . شاعر الوحشة . شاعر اليقظة الروحية .
شاعر البحر . شاعر العواصف . — جبران خليل جبران »

بلغت تلك النقطة من المقال واذا بي اسمع بكاء . واذا بدموع جبران
تترقق على خديه . واذا بجبران يشهق كالطفل في بكائه . فطويت المقال
ووضعت في جيبي وجلست صامتاً بين الارتباك والدهشة ارقب جبران ولا
اشاء ، بل لا اقدر ، ان اقول كلمة قبل ان اسمع منه كلمة . واخيراً ألم جبران
عبرانه بطرف مندبلة وقال وملح الدموع لا يزال متفشيّاً في صوته :

« اعذري يا ميسا . اعذري يا اخي . اعذري يا حبيبي . ولا تسلمي ان
افسر لك دموعي . فالدموع لا تفسر بالكلام ولا تفيض الا حيث يتعذر
الكلام . وانت تفهم دموعي لان بك وحدة كوحدتي ، ووحشة كوحتي ،
وحرقة كحرقتي . وانت تفهم دموعي لانك تفرح مثلاً افرح عند ما تعثر على
روح تفهم لغة روحك . ما اصعب ان تعاشر الناس وتكلمهم بلغتهم فيحسبون

ان لا لغة لك سواها . وعندما تكلمهم بلغتك تجدهم لا يفهمون منها حرفاً
وتجدك مضطراً اما الى الصمت واما الى تدريسهم الالف والباء من هجاء لغتك
وما اكبر بهجتك عند ما تقع على من يعرف لغتك مثلما تعرفها . وانت تعرف
لغتي يا ميسا وانا اعرف لغتك . تابع القراءة اذا شئت .
فاعذرت عن متابعة القراءة وقلت :

« امن العدل يا جبران ان نلوم الناس ولا نلوم انفسنا ونحن من الناس ؟
ام من العدل ان نطلب منهم ما لا نطلبه من نفسك ؟ انت تطلب ان يفهمك
الناس . وقد يكون انهم لا يفهمونك لانك لا تفهم نفسك . فهل انت
واثق من فهمك لنفسك ؟ »

« لا لست واثقاً يا ميسا . ومصيبتى في اننى اتكلم كما لو كنت واثقاً .
» لعل ذلك مصدر العواصف التي تجتاح وحدتك . ومنبع المرارة التي
تفيض من قلبك . ومنبت التمرد الذي اتخذته قوساً لك ودرعاً . فكىم نتمرد
على الغير جاهلين اننا لا نتمرد الا على انفسنا الجاهلة . وكم تهب في داخلنا
عواصف تجلو ما اكد من آفاق ارواحنا فتحسبها آتية من الخارج لتعكر
ما صفا من آفاق ارواحنا . أو لا ترى ان ما نخبر عنه باقلامنا
ليس الا زبداً يطفو على وجه حياثنا . اما اعماقنا الساكنة فلا تدر كها
اقلامنا ؟ »

هذا صحيح يا ميسا . وانا تمرى ساعات ارى فيها كل ما كتبته حتى
الآن فضولاً في فضول . لكننى اشعر ان فى كىمة لم انطق بها بعد . وان
يرتاح لى بال حتى انطق بها . لعلنى احاول المستحيل عند ما احاول ان افرغ
زبدة حياتى فى كىمة او فى كتاب . لكننى لا بد من ان اغمس قلبى فى اعماق
الساكنة لتتطرق بما فيها — ولو ببعض ما فيها . وماذا عسانى افعل غير ذلك ؟

انا كالمرأة الحامل : ليس لي الا ان اضع بين ايدي الحياة ما احملة في احشائي
وانا اعرف ان المرارة ليست جميلة وان الحلاوة اجمل . لكنني ساقى مرًا
ما دام في قلبي مرارة . »

« ستبقى مرًا يا جبران ما دمت دولابًا يدور يمينا بين دوالب تدور
يسارًا — كما تقول في « العاصفة » . لكنني اراك قد بدأت تغير دورتك .
ففي آخر « العاصفة » بعد ان تفرغ كل ما في قلبك من المرارة على الناس
ومدنيهم وطقوسهم تعود فتسأل نفسك : « نعم . ان اليقظة الروحية هي
اخلق شيء بالانسان . بل هي الغرض من الوجود . ولكن اليست المدنية بما
فيها من التلبس والاشكال من دواعي اليقظة الروحية ؟ وكيف يا ترى
نستطيع انكار امر موجود ونفس وجوده دليل على اثبات صلاحيته ؟ قد
تكون المدنية الحاضرة عرضاً زائلاً . ولكن الناموس الابدی قد جعل
الاعراض سلمًا تنتهي درجاته بالجوهر المطلق . » — فكأنك بهذا القول
تعرض على الناس سلامًا ، وكنت لا تعرض عليهم الا حربًا . وكأنك
ترضى ان تدور معهم الى اليسار وكنت لا تدور الا الى اليمين . »

« هوذا الافلاك يا ميسا بما فيها من اجرام لا تحصى . لكل جرم دورته
وسبيله . وكلها يدور حول جرم واحد فيؤلف عالمًا واحدًا . وهذا العالم
يدور حول ذاته وحول عالم سواه . والعوالم كلها تؤلف عالمًا واحدًا
كاملاً . كلنا دورات في دورات . وكلنا ضمن دائرة الحياة الكبرى . »
« فما اجهلنا يا جبران نرضى بان ندور دورتنا ونشكر على سوانا بان
يدور دورته . ولولا دورة سوانا لما كانت لنا دورتنا . »

« نعم . ما اجهلنا نرى سبيلنا السبيل السوي . ونرى كل سبيل سواه
معوجًا . ولو استقام سبيلنا لاستقام كل سبيل . لان كل السبل تؤدى الى

سبيل واحد . لكن هو الشباب يا ميشا — نزقه اسرع من حكمته . وغضبه اقوى من عدله . وانا كنت حتى الان كثير النزق شديد الغضب . — ما قولك بقليل من الوسكي مع الكازوزه ؟ لقد اشتريت البارحة صندوقاً من احد مهرني المشروبات الروحية . ودفعت ثمنه ٣٥ دولاراً . ذاك ثمن بخس بالنسبة لاثمان هذه الايام . والوسكي التي اشتريتها مثل وسكي هذه الايام — مزيج شيطاني لا يعرف اجزاءه الا الذين ركبوه . قل لعن الله القسس . هذه بلاد قسس و كنية وفريسيين . لقد حرّموا المسكرات ظناً منهم ان الله لا يقبل في سمائه الاّ من كان على شاكلتهم — نظيفاً من الخارج اما في الداخل فمملوءاً اقدارة وثثانة . ولقد حرّموها ليجعلوا من تحريمها متجراً لهم راجحاً . »

وسكب جبران كأسين من الوسكي . فذقت كأسني وتركتها اذ لم اقدر على اقتحام طعمها وقلت لجبران :

« اعجب لك يا جبران تشرب مثل هذه الوسكي . فهي قتالة . » فاجابني وقد جرع جرعة كبيرة :

« لا بأس بها يا ميشا . ومن ثم فالكحل خير من العمی . ماذا العمل وتلك مشيئة القسس الاطهار فينا ؟ »

« دعنا من الوسكي ومشية القسس الاطهار . وهات اخبرني الى اين وصلت في كتابك « السابق » وهل اضفت شيئاً جديداً الى مواد الكشائية والفنية ؟ »

« لم ازد شيئاً على المواد التي اطعمتك عليها . والكتاب اليوم في يد الناشر وسيصدر قريباً . ويعز عليّ انك تفضل « المجنون » عليه . »

« ما همك والاثنان لك ؟ اني افضل « المجنون » لانه مرارة صرف . »

اما «السابق» فمن يج من مرارة فقدت حمتها وحلاوة لم تكتمل بعد حلوتها .
واين انت من كتابك الجديد الذي تفكر به لاحقاً للسابق ؟ »

« لقد بدأت باول قطعة منه ولم انته منها بعد . ولن أقرأها لك حتى
تكتمل . ذلك الكتاب يملاً الآن كل حياتي يا ميسا . فانا انا وياها واقوم
وياها وآكل واشرب وياها . »

في اليوم التالي سافر جبران الى بوسطن . وصدر مقالتي عن «العواصف»
في جريدة السائح . فكتب جبران اليّ يقول :

« قرأت الساعة مقالاتك في «العواصف» فماذا يا ترعى اقول لك

يا ميخائيل ؟

لقد وضعت بين عينيك وصفحات كتابي مكبرة بلورية فظهرت اكبر
مما هي حقيقة - وهذا مما يجعلني ان اخجل من نفسي . لقد القيت بمقالتك
مسؤولية كبيرة على عاتقي فهل استطيع ان اقوم بها - هل استطيع تحقيق
الفكرة الاساسية في نظرياتك ؟ اتبينك منشئاً هذه المقالة النفيسة وانت
تنظر الى مستقبلي لا الى ماضي - لان ماضي كان خيوطاً ولم يكن نسيجاً ،
كان حجارة مختلفة الحجم والصورة ولم يكن قط بناءً . اتبينك تنظر اليّ
بعين الامل لا بعين النقد . فاندمل على الكثير من ماضي وفي الوقت نفسه
احلم بالمستقبل وفي نفسي حماسة جديدة . فان كان هذا ما اردت ان تفعله
بي ولي عند ما كتبت نقدك فقد نجحت يا ميخائيل . »

لقد صدق جبران في قوله اني نظرت الى مستقبلي لا الى ماضيه . فقد
اخذت اشعر من محادثاتي الكثيرة معه انه مشرف على فجر حياة جديدة .
وان العواصف التي اثارها فيه نيتشه فكادت تقتلع جذوره من تربتها الشرقية
ونتركه عالقاً بين الارض والسما قد بدأت تهدأ وان جبران الذي انسلخ عن

نفسه المؤمنة بجمال الحياة وحكمتها والمستأمنة لمشيتها السرمدية قد عاد الى « وادي الاحلام » يبحث عن تلك النفس وينبشها من لحدها ليجدد معها موافقه . وعلاوة على ذلك فحجر الرحي - رحي الفاقة - الذي كان يحمله في عنقه منذ فقد امه واخاه واخته اوشك ان يتحول الى قلادة من ذهب . فقد صار جبران ينام من غير ان يفكر بحاجاته اليومية من اكل وشرب ولباس ومأوى . بل انه اصبح ، في كل شهر تقريباً ، يودع قيمة من المال في البنك . والخمسة والسبعون دولاراً من ماري هاسكل ما فتئت تأتيه في مواعيدها . فاستعاض عن نور الغاز في محترفه بنور الكهرباء . وعن وجاق الخطب بوجاق من الغاز . وجاء ب تلفون .

اما « المجد والعظمة » اللذان كان جبران يحلم بهما منذ صباه فقد اخذ يتذوق حلاوتهما من السنة الناس الذين كانوا يستأسفون كتاباته ورسومه . فلم يعد في مقدوره ان يشرب من البئر ويرمي فيها حجراً - ان يتقبل حلاوة الشهرة من السنة الناس ثم ان يكوي تلك اللسانة بنار نغمته ومخبريته . بل صار يبذل كل جهده ، بلسانه وقلمه وريشته ، ليكون عند ظن الناس به ، وليفوق ظنهم به . وكل ما ازداد توفيقاً من هذا القبيل كلما اشتد عنف الحرب الناشئة بين نفسه الظاهرة ونفسه الباطنة - نفسه التي كان يعرضها على الناس ونفسه التي كان يسترها عنهم فلا تراها الا عين روحه الساهرة

نبا كاذب

أفقت من نومي صباح يوم من ربيع سنة ١٩٢١ وامام عيني بقايا صورة مزعجة رأيته في الحلم وعبثاً كنت احاول ان امحوها من فكري . فقد رأيته واقفاً على حافة بئر مستديرة عميقة ولا ماء فيها . ورأيت في قعر البئر شجرة يابسة ذات ساق ضئيل قصير وفروع قليلة لا اغصان لها ولا اثر للورق او للثمر عليها . ورأيت تحت الشجرة رجلاً مضطجعا على جانبه الايمن وقد توسد ذراعه . ثم رأيت الرجل ينهض متواكلاً ويفرك عينيه ويتأمل الشجرة ويتسلق بنظره جذران البئر الملسة كأنه يبحث عن واسطة للنجاة . ورأيت في وجهه الهزيل الاصفر المقنع بالحزن والألم بقعاً سوداء وخضراء وصفراء . وتخلته في كل حركة من حركاته كأنه اليأس بعينه ، او كأنه بقية من الحياة تسرولت بسر اويل الموت . فناديت به باعلى صوتي : « جبران ! » وأفقت مذعوراً من صوتي ومن الصورة التي رأيته

ما صدقت ان اجتمعت بجبران في ذلك اليوم لكذب عين يقظتي عين منامي ، وليمحو وجهه النضر رسم وجهه الشاحب من خيالي . ومن غير ان اطلعه على حلي اخذت اسأله عن صحته حتى انه تعجب لكثرة سؤالاتي وقال :

« تدهشني يا ميشا شدة اهتمامك بصحتي اليوم اكثر من كل يوم . فكانك تشعر بالخلل الطارئ عليها والذي لم اكشفه بعد لاحد . كنت اظنني من حديد . لكن هذه الآلة العجيبة الصنع والتركييب التي ندعوها

الجسد نثايبها علل شأن كل آلة مركبة من اجزاء كثيرة . بل ان علمها
بعض من اجزائها . فانا اخذت اشعر في الايام الاخيرة برعشة في قلبي ماشعرت
بمثلمها من قبل . وهذه الرعشة تشتد علي في بعض الاحايين الى حد ان تضيق
انفاسي . فيصعب علي ان اصعد الدرج من اسفل البناية حتى منزلي .
« هل استشرت بشأنها طبيباً يا جبران ؟ »

« انا اكره الطب ولا اوئمن بالطباء . فهم يزورن الجسد اجزاء
متعددة ويحاولون ان يداووا الجزء جاهلين ان علة الجزء هي علة الكل . وان
مصدرها قد لا يكون في المحسوس بل في غير المحسوس . وكيف تداوي
ما ليس محسوساً بالعقاقير والطلاسم الطبية المحسوسة ؟ مع ذلك قد اضطر الى
مخاطبة طبيب . لعله يعرف جسدي وعلمه خيراً مني . »

« ليس خفقان قلبك الا نتيجة جورك عليه يا جبران . انصفه ينصفك .
انت ننهشه نهشاً بقلبك وریشتك . وانت ننبش منه كل خباياه لتعرضها على
الناس . وتسرق كل دقة من دقاته لتجعلها نعمة في كلمة او خطأ في صورة .
وانت تسهر الليل وتقصي جانباً كبيراً من النهار مطارداً قلبك حيثما ارتحل
واني اسنقر . وانت فوق ذلك تجهد ما فيه من لحم ودم بكثرة ما تتناوله من
القهوة ودخان التبغ والمشروبات الروحية . نخفف من كل هذه . »

« لم تترّاني انقطعت عن القهوة نباتاً ؟ اما الدخان فساحاول ان اقلل
منه . لكنني لن استغني عنه . واما المشروبات الروحية فاني اعتقد انها تنفع
قلبي لا تضره . لكن الداء هو اعمق من كل ذلك يا ميسا . وقد لمست بعضه
فيما قلته . فماذا اعمل ؟ اأقطع عن الكتابة والتصوير وهما كل حياتي ؟
أأترك « النبي » وهو ما يزال جثيناً — وهو خير ما جلبت به روحي حتى
اليوم ؟ بل سامضي به حتى النهاية وان انتهت حياتي بنهايته . ولكن قل لي

يا مديشا : ما الذي جعلك تكثر السؤال عن صحتي اليوم ؟ أرايت شيئاً
جديداً في وجهي ؟

فاخبرته اني رأيت حلمًا مزعجاً ولم اخبره بتفاصيله . وذلك جرتنا الى
التحدث عن الاحلام واصنافها . وكان كلانا يؤمن بان النفس في النوم
تستجلي حالات كثيرة من حالات حياتها على مر الاجيال . قد يكون بعضها
تذكريات حقيقية من ماضي محقق كاحلام الطيران التي تعود بالانسان الى
زمان كان فيه طائراً قبل ان يصير انساناً . وقد يكون بعضها اشباح رغائب
دقيقة لم تظفر بالتحقيق . او رسوم امور آتية مقررة في سفر الزمان حيث
يلتقي الماضي والمستقبل في الحاضر الابددي . او خليطاً مشوشاً من الماضي
والحاضر والمستقبل بما فيه من قلق جسدي وروحي . وفي اكثر الاحوال
تكون رموزاً تحتاج الى تفسير . ولا يندر ان تأتي جلية كأن يرى انسان
في نومه مدينة لم يرها قط في يقظته . ثم يتفق له بعد حين ان يزور مدينة
مثلاً بالتام .

فرويت لجبران حلمًا رأيتُه منذ سنين حين كنت طالباً في روسيا .
وكان لا يزال جلياً في ذاكرتي كأني ابصرته الليلة البارحة . وفسرت
رموزه لجبران كما فهمتها وبينت له كيف ان ذلك الحلم كان بمثابة خريطة
لحياتي بمعانيها الواسعة لا بدقائقتها الصغيرة . فقال جبران :

« اما انا فلا ازال اذكر حلمًا حلمته من زمان . وكما ذكرته
ارتعشت . فقد رأيتني جالساً على صخرة في وسط نهر واسع الخاضة ، كثير
الرغوة ، شديد العريضة ، ليس على ضفتيه اثر لانس او لجن . ومع اني لا
احسن السباحة ، لم اكن في خوف من طغيان النهر . بل كنت اشكر الله
لاتني في مأمن من المياه الصاخبة . واعجب كيف توصلت الى الصخرة ،

وافكر في كيفية العودة الى اليااسة . وانا كذلك واذا بافعى عظمة هائلة
تخرج من النهر وتسلق الصخرة التي انا عليها . فترتعد فرائصي منها . واحاول
ان ارفسها . ثم امسك بخناقها لادفعها عني ولكن بغير جدوى . اما هي
فتأخذ تلتف عليّ دورة بعد دورة . ويشدد ضغطها وثقلها على اضلاعي الى ان
تجنس انفاسي . فاجمع كل قواي لاصرخ طالباً الاغاثة وعندها افيق من
نومي وقلبي يقرع اضلاعي قرعاً وقطرات العرق البارد تبلل جبتي . «

قلت : « وما تفسيرك لمثل هذا الحلم يا جبران ؟ »

قال : « فسرّه كما شئت . اما انا فقد رأيت فيه رمزاً لحيايتي . مثلاً
رايت انت في حلمك رمزاً لحياتك . »

ما أبهت كثيراً للعلم في ذلك الوقت . ولا اخاله عبر بخاطري مرة بعدها
في حياة جبران . اما بعد مماته فاكاد لا اذكر جبران وانفحص معاني حياته
الا ذكرت ذلك الحلم ورأيت فيه رمزاً لتلك الحياة . فالنهر الصاخب هو
العالم بامجاده ومساخره . وملذاته واوجاعه . ورغائبه واطماعه . والصخرة هي
حقيقة الوجود الثابتة في تيار الحياة العالمية . وقد ادر كها جبران بخياله
النشيط واطمأن اليها بروحه . والافعى الخارجة من النهر هي ميول جبران
العالمية وتعطشه الى مجد العالم وعظمته وملذاته . وهي التي افسدت عليه
طمأننته الروحية ونشوته الخيالية وقضت على امنيته الكبرى — امنية التوفيق
بين اعماله واقواله والتوحيد بين ذاته الظاهرة وذاته الخفية .

في صيف تلك السنة انفقنا انا وجبران ونسب عريضه وعبد المسيح
حداد ان نقضي عطلة قصيرة في البرية . فانطلقنا في اواخر حزيران الى مزرعة
صغيرة تبعد نحو مئة ميل عن نيويورك اسمها كاهونزي . وهي واقعة في قلب
غاب تمتد اميالاً كثيرة شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً . فيها انهار وجدول

وبحيرات ومنخفضات وتلال واما كن مدغلة قلما تطأها رجل انسان . في تلك العزلة الطاخة بالسلام ، المعطرة بالسكينة ، المكحلة بالجمال قضينا عشرة ايام مرت كعشر دقائق . فقد كنا كاربعة عصافير افلتت من اقفاصها . او كاربعة احدث اعتقوا من المدرسة ومن تهديد معلمهم واوامر والديهم . وكنا لا نمشي الا معاً ، ولا نأكل الا معاً ولا ننام او نقوم الا في ساعة واحدة . حتى ان اهل المزرعة والمصطافين فيها اطلقوا علينا لقب « الاربعة الكبار » - وهو لقب كان لا يزال شائعاً على السنة الناس وكانوا يعنون به ممثلي الدول الاربع الذين كانت لهم اكبر يد في تنظيم معاهدة فرساي - ولسن ولويد جورج وكنصو واورلاندو . ولا وجه شبه بيننا وبينهم الا من حيث العدد .

وكان نسيب عريضه قد خبر تلك المزرعة وضواحيها من قبلنا بسنين . فكان دليلنا في تجوالنا وتطوافنا . وذات يوم قادنا الى شلال يبعد عن المزرعة بضعة اميال . فما بلغناه حتى نسينا كل مشقة تكبدناها في الوصول اليه . اذ وجدنا انفسنا في قعر واد حجبته الاشجار والادغال عن الابصار وكادت تحجبه عن الشمس . كانه متنسك لا ننقطع صلاته ليل نهار . وفي صلاته دويّ الرعد ، وهيبة الوحدة ، ورهبة المثل امام العزة الصمدانية وجهاً لوجه .

اقتربنا من اسفل الشلال على قدر ما سمح لنا بالاقتراب منه . وهناك وقفنا بضع دقائق كالمسحورين . اشعة الشمس تكوي وجوهنا فيبددها الشلال برشاشه المتطاير في الهواء كمسحوق دقيق من الماس . وابصارنا تغلغل في تجاعيد المياه الغزيرة الهاوية من علوها الشاهق فتردها الوان النور المتكسرة عليها كليلة حائرة . واصواتنا تحاول ان ننطق بما فينا من دهشة

فتخفها هلهلة القطرات المتسابقة الى البحر . والاشجار عن جانبينا نخفي
ثم تسبقهم . وتتاود ذات اليسار وذات اليمين . والاعشاب ما بينها في
رعشة دائمة .

واخيراً اخذنا نفثش عن مكان نجلس فيه . فرأينا صخرة في وسط
النهر على مقربة من مصب الشلال كأنها معدة لمن كان مثلنا يطلب منادمة
المياه الزاخرة في خلوة من الطبيعة مثل تلك الخلوة . وكان بيننا وبين تلك
الصخرة شقة واسعة من المياه المزبدة . لكنها لم تكن لتحرمنا لذة الجلوس على
تلك الصخرة . فاخذنا نرمي في النهر حجارة كبيرة وصغيرة الى ان تيسر لنا
ان نجمر من الضفة الى الصخرة

جلسنا على تلك الصخرة ووجهتنا الشلال . ومع انه لم يكن بيننا ولا
واحد يحسن الغناء ، ما شعرنا الا ونحن نغني . وكان من الواجب ، ان نحن لم
نخجل من انفسنا ، ان نخجل من اصواتنا المتهدجة ترتفع في آن واحد
ومكان واحد مع صوت ذلك الشلال . لكن هو الشلال جنى على ذاته .
فلولاه لما ارتفع لاحدنا صوت . اما اغانيها فكانت كلها من الاغاني القومية
القديمة المعروفة في لبنان وسوريا . مثل « العتابا » و « الميجانا » و « ابو الزلف »
و « المواليا » . ومن بعدها اخذنا نسرد ما نذكره من الشعر العامي القديم .
فانشدنا جبران « موالاً » كان شديد الإعجاب به ومطلعه :

« يا زين عن درب الهوى ضعنا من كثر ما فيكم تولعنا .
مشتاق اليكم والمجال بعيد يا ريتنا كنا تودعنا »
والذي زاد في زهونا وانسانا خشونة اصواتنا قليل من العرق شربناه
ممزوجاً برشاش الشلال . وعند ما نفذ ونفدت بضاعتنا الغنائية نزعنا احذيتنا
وانحدرنا الى النهر ندغدغه تارة بايدينا وطوراً بارجلنا . شاعرين كما لو كنا

نزع عنا كل اثقال المعيشة ونظهر انفسنا من كل ادران الماضي ومخاوف المستقبل .

وآن وقت العودة . فودعنا الشلال حاملين صلاته في ارواحنا وجمال هيكله بين اجفاننا . ورجعنا ادراجنا سالكين الى المزرعة شعباً تكتنفها الاشجار والادغال . وسار نسيب وعبد المسيح في المقدمة ومشيت انا وجبران في المؤخرة . وبيننا وبين رفيقينا مسافة لا يمكنهما معها سماع حديثنا ولا يمكننا سماع حديثهما . وكنت وجبران نتحدث بالانكليزية ، شأننا في كل احاديثنا عن الادب والفن والامور الروحية . وكان حديثنا في قطعة قرأها لي من امد قريب عن المحبة وقال انها ستكون الاولى من سلسلة قطع على شاكلتها ينوي تأليفها ونشرها في كتاب سيدعوه « النبي » . وكان قد سبق لي ان ابدت له اعجابي بتلك القطعة وارتياحي لانتقاله من « التمرد » على الناس وحياتهم الى تفهم اسرار تلك الحياة وكشف ما فيها من جمال ينضج من معين الجمال الصلي . وانتهى بنا الكلام الى الصمت الذي هو افصح من كل كلام

قطعنا مسافة من الطريق على وقع افكارنا الصامتة . والاشجار عن جانبينا تستقبلنا وتشيعنا صامتة . والطريق تحملنا كأنها بساط من ريج ونحن كذلك ، واذا بجبران يقف فجأة ويضرب الطريق بعصاه ويناديني « ميشا ! » فاقف مثله والتفت اليه . فارى بهجة الشلال قد طارت من عينيه وحلت محلها سحابة من الكآبة المريرة . ثم اسمعه يناديني ثانية باسمي ويقول :

« ميشا ! انا نبا كاذب » — (I'm a false alarm) ثم يطرق ويعود

الى الصمت

من كل الوقفات التي وقفتها وجبران في خلال خمس عشرة سنة لست
اذكر وقفة كانت ابعداً في نفسي من تلك الوقفة . ومن كل ما قاله لي
منذ التقينا حتى افترقنا لم يهزني شيء مثلاً هزني تلك الكلمات الثلاث
اهي الساعات التي قضيناها في منادمة الشلال ؟ اهي روح الكرمة التي
شربناها ممزوجة بروحه ؟ ام هي هيبة الحقيقة العارية المهيمنة في الغاب دفعت
جبران ليقف تلك الوقفة ويفوه بتلك الكلمات ؟ — لست ادري . غير انني
شعرت بروح رفيقٍ تُعصر من الالم وتستغيث . ولعل الطبيعة التي لا تعرف
التكتم والتستر ، فلا تظهر بغير مظهرها ولا تستحي بحالة من حالاتها ، سطت
عليه بكل ما فيها من سحر التعري والصدق والامثال وباسرع من لمح الطرف
انارت كل زوايا قلبه وخزائن نفسه فجعلته ينجل من كل ما تخبأ فيها من
ضعف تردى برداء القوة ، وتصنع امتسح بمسحة الجمال ، وشهوة نهمة
بدت كأنها العفة الصائمة . فرأى نفسه نبأً كاذباً وهاله ان يكون ذلك
النبأ في حضرة الطبيعة التي لا تعرف الكذب ولا الغش . وهاله اكثر من
ذلك ان يكون رفيقه الماشي بجانبه ممن صدقوا النبأ . فلم يتالك من الاعتراف
له . بل لم يجد كالا عترف لصديقه منقياً لقلبه ومطهراً لنفسه . ولم يجد افضل
من الطبيعة شاهداً على صدق اعترافه .

ومثلاً هال جبران ان اكون مخدوعاً بظواهر حياته عن بواطنها ، هالني
ان يمضي في اعترافه امامي فيجلد نفسه العاتية المتمردة امام عيني وينزع عنها
دروعها العديدة ، ويتركها عريانة وبلا سلاح . ومن ثم فمن انا لاقتبل
اعتراف نفسي وان تكن اختاً لنفسي ؟ وقد تكون نفسي احوج الى الاعتراف
منها . لذلك عندما حاول جبران ان يتوغل في تشريح « النبأ الكاذب »
غيرت مجرى الحديث واسرعت في السير .

في مساء ذلك اليوم خرجنا نحن الاربعة نتمشى على الطريق العمومية ،
وكانت الشمس قد غابت واشباح الغسق قد انتشرت في الغاب . وكنا
في جذل واحادشنا تتنقل بسرعة خطواتنا . ثم اخذنا نتبارى في تصنيف
« القرادي » . وعند ما مللناه سكتنا هنيهة كأننا في هدنة . وفي اثناء تلك
الهدنة خطر لي بيت من الشعر فانشدته على مسمع الآخرين وهو :

« اسمعيني سكيئة الليل لحناً من نشيد السكيئة الابدية »

فما كان من احدهم الا ان اردف البيت ببيت من عنده على ذات
الوزن والقافية . وهكذا رحنا ينظم واحدنا شطراً والآخر يكمله الى ان تمت
لنا قصيدة من ثلاثة عشر بيتاً . وها انا اثبتها ، لا لما فيها من كنوز شعرية
بل كأثر تاريخي وعلى سبيل التفكهة . ولو سألتني القارئ لمن هذا البيت او
ذلك الشطر لاجبته بالتقريب لا اكثر . لذلك اترك له الحق في رد المصاريع
الى اي من الاربعة . واليه القصيدة :

« اسمعيني سكيئة الليل لحناً	من نشيد السكيئة الابدية
وافتحني يا نجوم عيني علي	ان ارى بينك الطريق الخفية
واجعلي يارياح منك بساطاً	واحمليني الى الرياض العلية
واخطفي يانسائم الليل روحي	وخذيها مني اليك هدية
ودعيني هناك اسرح حرّاً	انما العبد يشتهي الحرية
طال بجمني وطال في الاسرياسي	واحتمالي لحالي البشرية
انا مالي وللورى فارفعيني	ودعهم في بؤسهم والرزية
ملّ قلبي بغضاءهم وهواهم	ملّ قلبي سبابهم والتجبة
ولساني قد صار يخشى لساني	وجناني اضحى علي بلية
وفراشي شو كاً ونومي ارتعاشاً	وبيقني شكاً وبرّي خطية

وشرابي تعللا واواما وطعامي مجاعة روحية
ولباسي رماد فكري تدريره رياح نثيرها الامنية
تلك حالي - حرب عوان فان اظفر فنفسى قتيلة اوسنية «

ودعنا كاهونزي وعاد كل منا الى نيره . وسافر جبران الى بوسطن
ليقضي ما بقي من الصيف مع اخته مريانا . وكان من عادته ان يصرف موسم
الميلاد ورأس السنة وايام الصيف معها . وكان آخر ما قلته له عند ما ودعته
في ذلك الصيف :

« دارِ قلبك يا جبران . دارِ قلبك . »

۳

الفجر

=====

=====

=====

=====

الضباب يتبلور

« اخي ميشا

مذجئت هذه المدينة وانا انتقل من طبيب اختصاصي الى طبيب اختصاصي ، ومن فحص دقيق الى فحص ادق . كل ذلك لان هذا القلب قد فقد وزنه وقافيته . وانت تعلم يا ميخائيل ان وزن هذا « القلب » لم يكن قط مطابقاً للاوزان وقافيته لم تكن ابدأً مماثلة للقوافي . ولما كان العرض تابعاً للجوهر والظل للحقيقة كان من المقرر المحتوم ان تأتلف هذه الكتلة في صدري مع ذلك الضباب المرتعش في الفضاء — ذلك الضباب الذي ادعوه « انا » .

لابأس يا ميشا ، فكل ما قدّر يكون . غير انني اشعر بانني لن اترك لحف هذا الجبل قبل طلوع الفجر . وسيلقي الفجر نقاباً من النور والبهاء على كل شيء . »

(من رسالة بعث بها جبران الي من بوسطن في اواخر صيف

سنة ١٩٢١)

« انا » — هي الف الوجود وياؤه . من عرفها عرف كل شيء . ومن جهلها جهل كل شيء . من عرفها عرف لذة الالم ، وتذوق الطائنة الروحية حتى في انكسار حالاته . ومن جهلها جهل مرارة اللذة ولم يعرف سوى الالم حتى في اسعد اوقاته . والفرق بين الناس ليس على قدر ما يملكه ذاك او هذا من مال او عقار او جاه او موهبة او صيت او سلطة وما اليها من صنوف

التفاوت البشري . بل الفرق على قدر ما يضيق الواحد منهم أنا ويوسعها الآخر .

ما الفرق بين القائل : « من ضربك على خدك الايمن حول له الايسر كذلك » وبين القائل : « عين بعين وشن بسن » الا الفرق بين من ادرك ان كل انا منبثقة من انا الشاملة . فهي شاملة مثلها . فالضارب والمضروب فيها واحد . وبين من حصر انا ضمن حظيرة من الاوهام فراح يثار لها من كل متعدي عليها جاهلاً أنه المتعدي والمتعدي عليه وانه يثار من ذاته لذاته . وما الوحي الا انفتاح كوة في الروح تنفذ منها اشعة انا الشاملة وتبدد ضباب الفردية المحصورة فتبصر الروح ذاتها شاملة غير متناهية — في حضنها الموت والحياة ، وفي قلبها الازلية والابدية . واذ ذاك فما « القضاء » الا مشيئة الكل ، في الكل ، وللكل . فهو فوق خيرنا المحصور وشرنا المحدود . ولا « القدر » الا ما تحتمة النفس على ذاتها ما دامت مصرة على الاحتفاظ بالضباب الذي ندعوه انا .

غير ان سواد الناس لا تزال كوى ارواحهم مغلقة دون اشعة انا الشاملة . ولذلك لا يزال ما يدعونه انا ضباباً . ولذلك كان كل ما يصدر منهم ضباباً في ضباب . وكانت حياتهم مقايضة مستمرة بين اللذة والالم . اما الذين انفتحت كوى ارواحهم فابصروا انفسهم في كل نفس ، واتصلت حياتهم بكل حياة ، وطبقوا اعمالهم على افكارهم ، فهولاء هم رسل الحق وهداة البشرية اليه . ولا عجب لو عبدهم الناس . فهم قد اكتشفوا الاله في الانسان .

هل عرف جبران الوحي ؟ — لقد عرفه مثلاً عرفه كل ذي خيال طليق فانت تلح له وميضاً منقطعاً في بعض مقالات « دمة وابتسامة » . ثم يغيب

عنك ذلك الوميض من بعد ان استسلم جبران لسحر نيتشه فتار على الناس
وكاد يغرق في رغبة ثورته ويخنق بعجاج معاركه من غير ان يُغرق احداً
من الناس او يخنق طقساً من طقوسهم . فكأنه في تلك الفترة من حياته
الروحية والادبية كان يثير حرباً - بل حروباً - انما على جبهات مختلفة .
فعلى الجبهة الواحدة كان يحارب الفقر . وعلى الاخرى الادب والفن لينال
منهما القسط الذي كان يحسبه من حقه . وعلى الثالثة الناس ليعلمهم على
إكبار ادبه وفنه . وعلى الرابعة قلبه ومن احتله او حاول احتلاله من النساء .
فكان في شغل عن جوهر انا الشاملة وموحياتها . بل انه اوصد دونه كوى
روحه بما اثارته حروبه العنيفة من عثير وضباب .

لكنه ، بعد ان تحصن من الفقر ولو بعض التحصين ، وتمكن من ادبه
وفنه ، وانس من الناس ارتياحاً اليهما ، واستقر قلبه على حب امرأة واحدة ،
ثاب الى نفسه يسترشد بها ويستفسرها ويفتح كواها لاشعة الوحي . فلم ترذله
نفسه ولم تخيه . بل راحت تعظه وتعلمه وتصيغ له من الضباب الذي كان
يدعوه انا جوهره نورانية تنعكس فيها كل ذات من غير ان تحدث اقل
تعكير في صفائها . او اقل تشويش في جمالها :

« وعظمتي نفسي فعلمتني واثبتت لي انني لست بارفع من الصعاليك ولا
ادفن من الجبابرة . وقبل ان تعظني نفسي كنت احسب الناس رجلين : رجلاً
ضعيفاً ارق له او ازدري به . ورجلاً قوياً اتبعه او اتمرده عليه . اما الآن
فقد علمت انني كوتت فرداً مما كوّن البشر منه جماعة . فعناصرى عناصرهم .
وطوبيتي طوبيتهم . ومنازعي منازلهم ومحجتي محجتهم . فان اذنبوا فاننا المذنب
وان احسنوا عملاً فاخرت بعملهم . وان نهضوا نهضت واياهم . وان تقاعدوا
تقاعدت واياهم . . . »

انّ بين هذا القول وقوله : « انني اكرهكم يا بني امي لانكم تكرهون
المجد والعظمة » لوهدة عميقة . ولكنهما ، على كل ما بينهما من التناقض ،
لموجتان من بحر واحد . جبران الذي يكره الناس القانعين من حياتهم بغير المجد
والعظمة هو نفس جبران الذي يرى ذاته شريكاً لكل ائيم في اثمه . ولكل
عبد في عبوديته . ولكل ضعيف في ضعفه . ذاك جبران في عالم الظواهر .
وهذا جبران في عالم البواطن . ذاك ضباب يعميك عما فيه من نور . وهذا
نور ينسيك ما حوله من ضباب . ذاك هو القشرة . وهذا هو اللب .
هكذا خدمت ثورة هذا الثائر الذي كان يدعو نفسه ، وبهاي اذا
ما دعاه الغير ، ثائراً ومتمرداً . وهل الثورات بكل انواعها غير فوران تلييك
رغوته عن صريحه ؟

ما اتسعت ذات انسان فعانت الذات الجامعة الا رآه مضطراً الى نبذ
كل محدود ومحصور . ومتى نبذ الانسان المحصور والمحدود اصبحت عنده كل
مقاييس الناس وموازينهم الاعيب صبيانية . فاصبح لا يرى العلة الا رأى فيها
النتيجة . او البداية الا ابصر فيها النهاية . وبكلمة اخرى اصبح لا يرى الا
دوائر واشكالاً كروية حيث يرى غيره خطوطاً مستقيمة ومكسرة ،
ومسطحات ومربعات ومكعبات . فصار لا ينطبق منطق على منطق الناس .
ولا يماشي فكره افكارهم . هم يخاطبونه بعقولهم واستشاجاتها وهو يخاطبهم
بخياله وومضاته . فاذا ما رأى قاتلاً وقتيلاً قال في كليهما انه القاتل والقتيل
في وقت واحد . واذا ما سمع منشداً ونائحاً كان الانشاد والنوح عنده سيين
على حد قول المعري :

« وشبيه صوت النعي اذا قيس بصوت البشير في كل واد »

وقد تعجب ، مثلما اعجب ، لهذا الخيال الشرقي كيف انه ينفذ ابداً من

البدایات الى اللابدایة . ومن النهايات الى اللانهاية . ومن المحسوس الى غير المحسوس . فمذاهب الشرق كلها ، على وفرتها واختلافها في الظاهر ، تلقي في ذلك الجو الفسيح حيث المسبب والمسبب واحد . وكل ذي خيال طليق لا بد من ان يدرك ذلك الجو بخياله . ولكن الويل كل الويل لمن كان خياله انشط من ارادته . فهو كالطيارة التي يطلقها الاولاد في الهواء مشدودة بخيط في ايديهم . فلا تتذوق حرية الفضاء حتى يجذبها الخيط الى عبودية الارض ومن كان كذلك لن يتحرر من ربة الارض ولا بالموت . تلك كانت حال جبران مع خياله وارادته . والمجد كل المجد لمن كان نشاط ارادتهم كنشاط خيالهم . هؤلاء ، وان مشوا بارجلهم على الارض ، فقلوبهم ابدأ في السماء . وهم قد تحرروا من الموت قبل ان يموتوا . وما اقل ما هم في تاريخ البشرية !

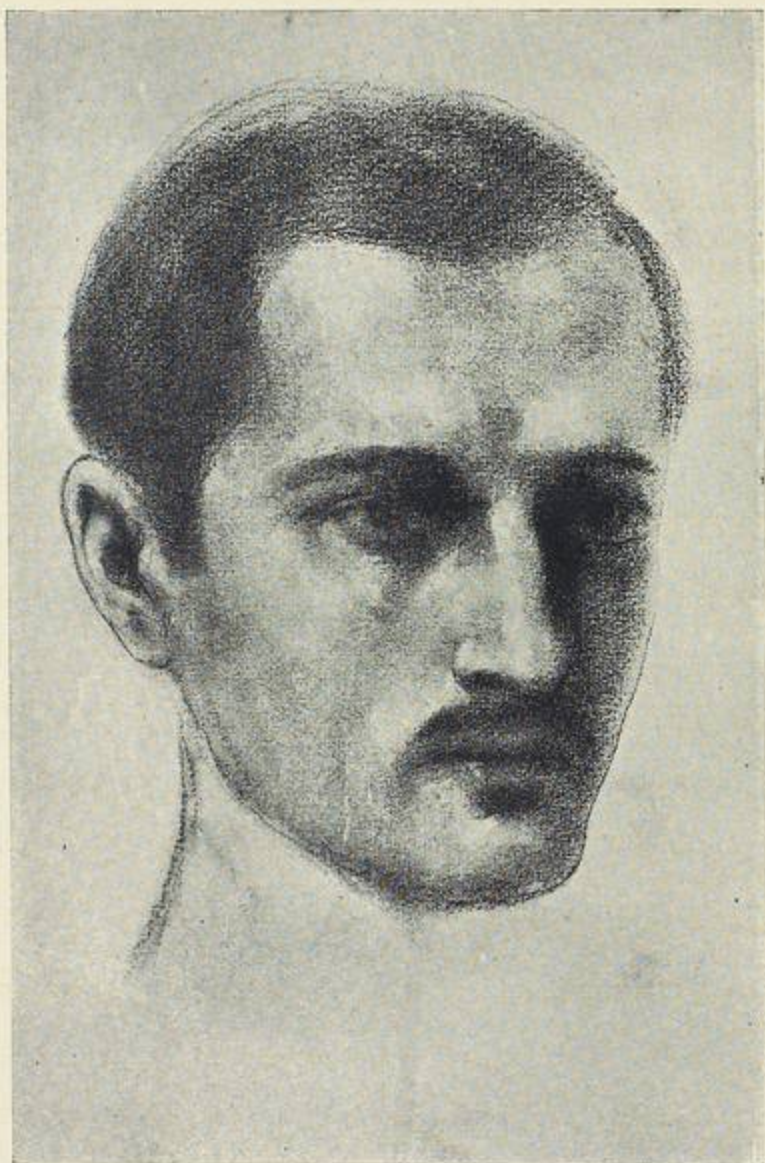
« ميسا . ميسا ! نجاني الله واياك من المدينة والمتدينين . ومن اميركا والاميركيين . ونحن سننجو باذن الله . وسنعود الى قم لبنان الطاهرة ، واوديته الهادئة . وسنأكل من عنبه وبقوله ، ونشرب من خمره وزبته . وسننام على ييادره ، ونسرح مع قطعانه ، ونسهر على شبابات رعانه وخبر غدرانه . — ما بالك لا تدخن ؟ اشعل سيكارة ، ولا تخش من الدخان ان يحجب وجهك غني . — أمل راسك الى اليسار قليلاً . هكذا هكذا — آ . لقد صح لي النور الذي ارغب . وسأنتهي منك باقل من ساعتين . — التصوير كالنظم يا ميسا : اذا تملكك الموضوع واهتديت الى القالب المناسب نظمت القصيدة بسرعة وبغير عناء ، فكانها نظمت ذاتها . كذلك اذا أنست من تصويره ، او فيما تصويره ، قوة تستفزك الى التصوير . فالصورة تصور

ذاتها فتصبح الريشة في يدك بعضاً من يدك . وتصبح اناملك كأن في راس كل منها عيناً . وكأن كل هذه العيون تبصر بمقدرة واحدة . استرح قليلاً اذا كنت قد تعبت »

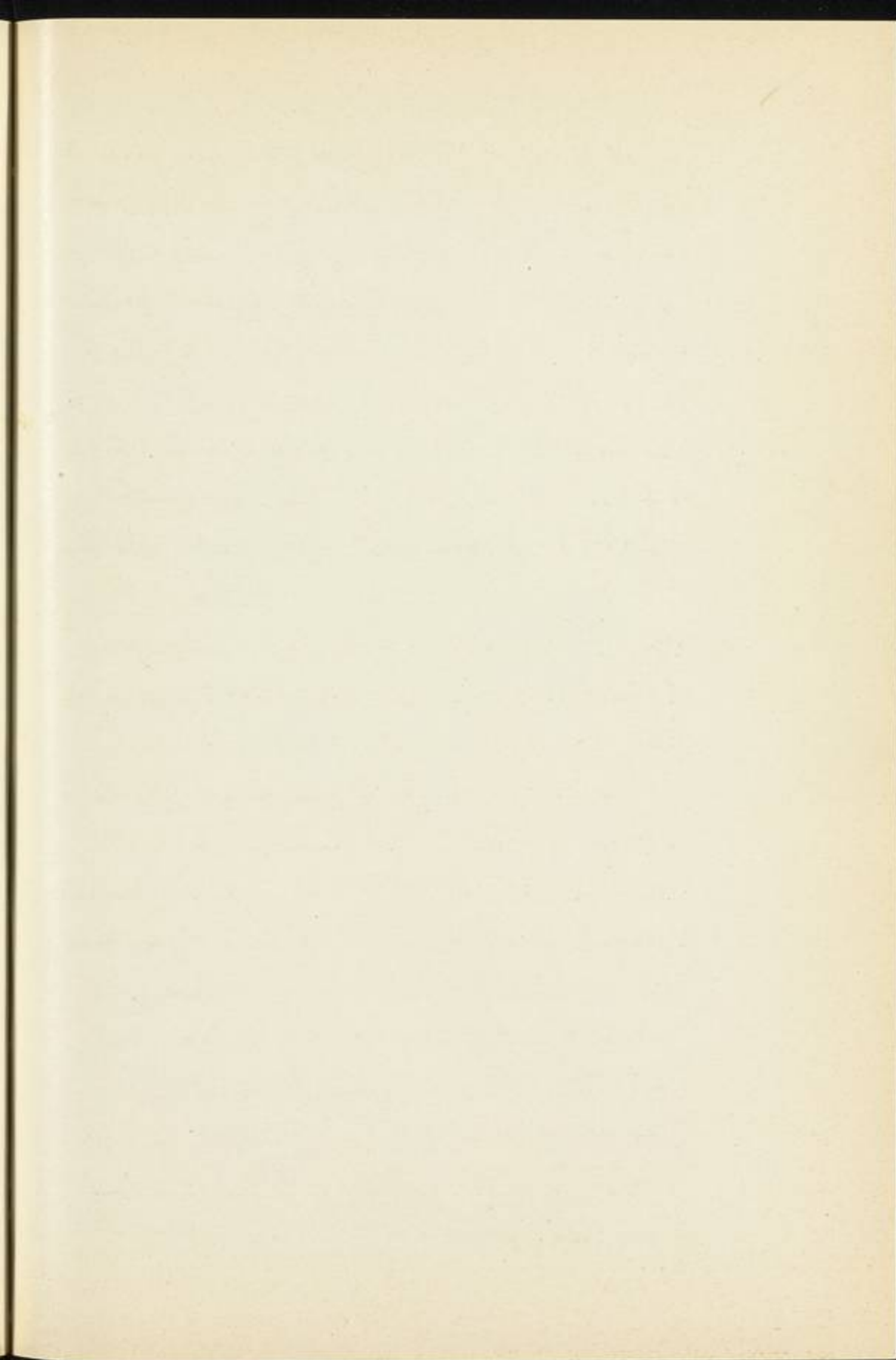
كنت جالساً في كرمي عَلَى دكة التصوير . وعلى مقربة مني المنصب . وعلى المنصب لوحة من الكرتون الابيض بقياس ٤٢×٥٥ سنتيمتر . وجبران يصورني عليها بقلم من رصاص حسب عادته مع كل من صورهم في حياته من الرجال والنساء . ومنهم رودين ، وطاقور ، وميسفيلد ، - شاعر بريطانيا - والمصور الاميركي ريدر والكاتب الاسوجي ستروندبرغ وسواهم . مكتفياً بتصوير الرأس لا غير

كنت ارقب حركات جبران وهو يصورني فتدهشني بسهولة ورشاقته . فكان بعد ان يحدقني هنيهة يهجم على المنصب بقلمه الرصاصي الذي لم يكن يتجاوز الاربعة قراريط ويعمله في لوحة الكرتون . ثم يأخذ ينقل بصره من اللوحة الى وجهي ومن وجهي الى اللوحة . ثم يبتعد قليلاً عن المنصب ويأخذ يزورني تارة واللوحة اخرى . ثم يعود الى اللوحة بقلمه او بالمحاجي (المحاية) الذي لم يكن اكبر من حبة الفول . وبعد ان يفركه بين ابهامه والسبابة حتى يتكئون له رأس كرأس القلم يأخذ يصلح به بعض الخطوط او الاظلال ، وكثيراً ما كان يستعيز عن المحاجي باصبعه - بالسبابة احياناً واحياناً بالوسطى - لينخف من ظل او ليمد ظلاً . كل ذلك ووجهه مشرق بلذة العمل ، ولسانه جَذِلٌ يجاري بالسرعة قلبه . وانا ، اذ انست منه تلك الرغبة في الكلام ، تركت له كل الحديث . فما كنت اقاطعه الا لاستزیده .

» ليس يتعبني من كل من اصورهم مثل النساء يا ميسا . فقلما ترضى



المؤلف بريشة جبران ٠ - ١٩٢٢



الواحدة منهم بصورتها كما تراها عيني ووبرزها قلبي . لانها ، ان تكن عليها مسحة من الجمل ، لتوقع مني ان اصورها اجمل من فينس . وان تكن خلواً من الجمل ، تحسب من واجبي ان اجعلها جميلة . وانا لا اخبر فني لاحد . فالمعاني التي اراها في الوجه الذي امامي هي التي اصورها . والوجه يعكس كل معاني الروح لمن يعرف كيف يستجلبها . والفن كل الفن في تصويرها فهي مركبة من دقائق لا تحصى . تبصرها عين الفنان اذا كان اهلاً لان يدعى فنانياً وقلاً تبصرها حتى عين صاحبها . اما الآلة الفوتوغرافية فعمياء عن الكثير منها . ولو لم يكن الامر كذلك لقامت الآلة الفوتوغرافية مقام الفنان . لكنها لا ولن تقوم مقامه . ومن الان حتى انقضاء الدهر لن تقوم آلة مقام انسان . —

« لا بد يا ميسا ، لا بد لي ولك من الرحيل عن هذه البلاد . فالويل لمن كان مجهولاً فيها لانه ليس اثن من خرقة . والويل لمن نال فيها ولو بعض الشهرة لانه يصبح مثل ممسحة . انا اليوم ممسحة يا ميسا . ونفسي تطالبني بعزتها . وفكري بطالبي بحريته . وجسمي بطالبي براحته . ولن استعيد عزة نفسي وحرية فكري وراحة جسمي الا في لبنان . ولو كنت تعرف الصومعة التي اخترتها لي ولك هناك لكنت تجذبني من يدي في هذه الدقيقة ونقول : هيا بنا اليها . هي صومعة اصلية يا ميسا لا تقليدية كصومعتي هذه . »

فقلت بلجاجة . « هات اخبرني عنها بالتفصيل »

« هي دير قديم مهجور في ضاحية من ضواحي بشري اسمه مار سركيس قائم في جبهة وادي قاديشا ، في سفح جبل الارز . اما غرفه القليلة ، ومنها كنيسة صغيرة ، فمحفورة حفرأ في قلب الجبل الكلسي . وامامه منحدر من

الارض لا تزال فيه بعض اغراس قديمة من الكرمة . هي خلوة يا ميسا
لا اظن في السماء اجمل منها . وانا قد فوضت محامياً في طرابلس لبيتاعها لي
لكنتي اخشى من الرهينة - قاتل الله الرهبان والرهبنيات - ان تمتنع عن
بيعها لي . لانني ، كما تعلم ، رجل كافر في نظر الرهبان والرهبنيات .
مع ذلك ، لي ثقة كبيرة بصدقي المحامي . فهو لا شك سيدبر الامر
بحنكة ودراية .

« هناك سنعتزل العالم يا ميسا . وسنحلم ما طاب لنا ان نحلم . وسنكتب
ما شئنا ان نكتب . وسنقتني مطبعة كاملة المعدات نذيع بواسطتها احلامنا
للناس . وسنعمل من الطباعة فناً جميلاً . وسنعمل في الارض فتحول اليابس
منها اخضر . والقاحل خصباً . وستباركنا الرياح ، ونفرح بنا الشمس ،
ويحمل الينا الوادي انفاسه الملهمة . »

قلت وقد شاقني وصف جبران لتلك الصومعة ، وايقظ في نفسي امية
قديمة عميقة .

« نحن اليوم في تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة ١٩٢٢ . فما قولك لو
استقبلنا ربيع السنة القادمة على كشف وادي القديسين ؟ »

فاجابني ، وكان في جوابه شيء من التردد . وكان تردده كلما تصببه
على نار متأججة : « لي علاقات كثيرة هنا لا يمكنني قطعها في شهر او اشهر
وعندي بعض اشغال لا بد من تميمها . ومنها نشر كتابي « النبي » -

قلت : « ما زلت ههنا فعلاقاتك تزداد من يوم ليوم . وما دامت لك
اليوم اشغال لا يمكن انجازها في لبنان فستبقى تولد لك اشغالا جديدة من
نوعها . فلا تسكن مار سركيس الا في احلامك . »

« لا بل سأسكنه - سنسكنه يا ميسا - بالجسد . اذا كنت قد

مللت هذا العالم - عالم الماكينات والخيالات - فانا قد ملته مثلك واكثر .
وانت وانا لم نجد منه ملجأً اجمل واهناً واقدس من مار سر كيس . وانت
ستحب تلك الصومعة مثلاً احبها .»

قلت : « لقد جعلتني احبها منذ الان . وستزورها احلامي مراراً عديدة
قبل ان تزورها عيناى وتطأ ترابها قدماى . ألا قربنا الله منها او قريباً منا .»
تحدثنا طويلاً في مار سر كيس . ولا شك في ان الاقدار التي كانت
تصغي لحدثنا كانت تضحك منا . لانها كانت تعلم ان جبران لن يدخل
تلك الصومعة الا محمولاً على الايدي ، وفي نعيش من صنع تلك الماكينات
التي كان بود ان يهرب منها . وانني لن ازورها لا تقطع فيها الى التأمل .
بل لا طرح سلامي على جثمان رفيقي معطراً بانفاس طاقة جمعتها يدي من
ازهار جبل الارز المقدس .

المصطفى

عند ما اطل جبران بخياله على عالم الوحدةانية الكاملة ، حيث الحياة
إلقة ابدية ، تضاءلت في عينه كل العوالم التي سكنها من قبل والتي كان
يحسبها حقيقة ولم تكن الا وهماً . وصار اذا ما ذكرها فكما يذكر الطائر
قشرة البيضة التي تقف منها . او كما يذكر النهر الصخور والادغال والاوحال
التي مر بها قبل ان يبلغ البحر . او كما يذكر من تسلق جبلاً الاودية
والهضاب التي اجتازها قبل ان يدرك القمة . وصار كيفما اطلق خياله في
جوّ عالمه الجديد رأى كل ما فيه يعانق بعضه بعضاً عناق محبة لا حواجز
فيها ولا حد لها . فراح يمجّد الحياة — وقد دعاها من قبل عاهرة — ويهتف
من اعماق قلبه :

« ما اكرم الحياة وما اسنى هباتها !

« ليت لي الف يد منبسطة امام السماء والارض بدلاً من هذه اليد
المستحبة القابضة على حفنة من تراب الشاطئ » — ويشتهي لو كان له الف
عين ليرى كل ما في الحياة من جمال . والف اذن ليسمع كل انغامها الساحرة
ولانه شاعر — وداء الشاعر بث مشاعره وافكاره بالكلام ، ولانه مصور —
ومحنة المصور تصوير ما يراه من الحياة ، راح يفكر في « كيف » ينجز
الناس بالكلام والخطوط والالوان عن الجمال الذي رآه في عالمه الجديد
و « كيف » هذه ذات قيمة عظيمة في نظر الشاعر والفنان . اللهم اذا
كان الشاعر شاعراً والفنان فناناً . فهي من الشعر والفن بمثابة الجسد من

الروح . وهي لا تُنحصر في تُنميق الكلام وتُنسيق الخطوط والالوان . بل هي القلب الذي يُفرغ فيه الكلام من بعد التُنميق ، والخطوط والالوان من بعد التُنسيق . والفنان يعنى بقواله عنايته بما يسكب فيه . لذلك عند ما تُنسم جبران بخياله جمال الروح الكلي ، وشاقه ان يخبر الناس عنه ، كان همه الا كبر ان يخلق القلب الفني اللائق به . فما هو القلب الذي خلقه ؟

لقد خلق جبران رجلاً دعاه « المصطفى » وجعل روحه نيرة الى حد ان سامعيه كانوا يخاطبونه « يا نبي الله » . وفي انتقاء الاسم وحده ما يجعل على التجلة والاحترام . فكلمة تسميها من فم انسان عليه وشاح النبوة لا كبر وقعاً بما لا يقاس من الكلمة عينها تسميها من رجل عادي . وهكذا ، بكلمة واحدة ، رفع جبران الفنان قيمة شعر جبران الشاعر الى مستوى النبوة حتى قبل ان يفوه به .

لكن جبران الفنان عرف كيف يخلع على مصطفىاه وشاح النبوة . فهو يُبرزه لك رجلاً غريباً في مدينة اسمها « اورفليس » صرف فيها اثني عشرة سنة في انتظار سفينته التي كانت لتعود به الى الجزيرة التي هي مسقط رأسه . ثم يصعد به اكمة خارج المدينة حيث يبصر سفينته مقبلة في الضباب . فيفتح لك قلبه ويربك ما يتميل فيه من العواطف المتضاربة بين لذة الانعتاق من الغربة والَم الوداع . فتفهم الى اي حد احب مدينة غربته واهلها والى اي حد احبوه . ومن بعد ذلك يهبط به المدينة . واذ يبصره اهلها ويدركون انه مودّع يتركون كل اعمالهم ويتقاطرون اليه ويلحون عليه بالبقاء بينهم . فلا يجيبهم الا بالصمت والدموع . واخيراً يسير واياهم الى الساحة الكبيرة امام الهيكل . وهناك تخرج من الهيكل رائية اسمها « الميتر » . فيرمقها

المصطفى بجنان كلي « لأنها كانت اسبق الناس الى اكتشافه والايمان به حين لم يكن قد مرّ عليه في مدينتهم الا يوم واحد . »

الميترا هذه تدرك ان لا مردّ لعزم المصطفى لانها تعرف عظم شوقه الى « ارض تذكاراته ومسكن امانيه الكبرى » . فتطلب اليه ان يحدثهم قبل الوداع عن انفسهم وعما عرفه بالوحي من كل ما هو بين الولادة والموت . بادئة بالحب او المحبة . وهكذا تفتح المجال فسيحاً للمصطفى ليكشف لسامعيه علائقهم بعضهم مع بعض ومع الحياة ، لا كما يرونها باعينهم المتقنعة بالاوهام ، بل كما يراها هو بعين روحه الصافية في عالم الروح الصافي . فيمضي في حديثه الطلي . ولا ينتهي من علاقة حتى يسأله بعض السامعين ان يحدثهم في اخرى . وبعد ان يلقي عليهم خمساً وعشرين موعظة في خمس وعشرين جهة من جهات الحياة الانسانية يودعهم وداعاً مؤثراً وينصرف عنهم الى بلاده

هذا هو القالب الذي اختاره جبران ليسكب فيه خلاصة افكاره في الناس وحياتهم . وهو ، كما ترى ، قالبٌ جميل يليق بما يحمله ، وما يحمله يليق به . لكنه - ويا للأسف - لم يكن كله من صياغة جبران . فشكّله الاجمالي مستعار من نيتشه وزردشته . فكان جبران الذي تخلص من سطوة افكار نيتشه لم يتخلص من سطوة اساليبه البيانية والفنية . ولم يكن يعلم انه لم يتخلص .

نيتشه اتخذ زردشت - وهو نبي - بوقاً لافكاره . وجبران اتخذ نبياً دعاه « المصطفى » .

زردشت نيتشه يسير غربياً بين الناس ناثراً عليهم افكاره . وعند ما تعب روحه من الغربة بينهم وتحن الى العزلة الملهمة يتركهم ويعود الى

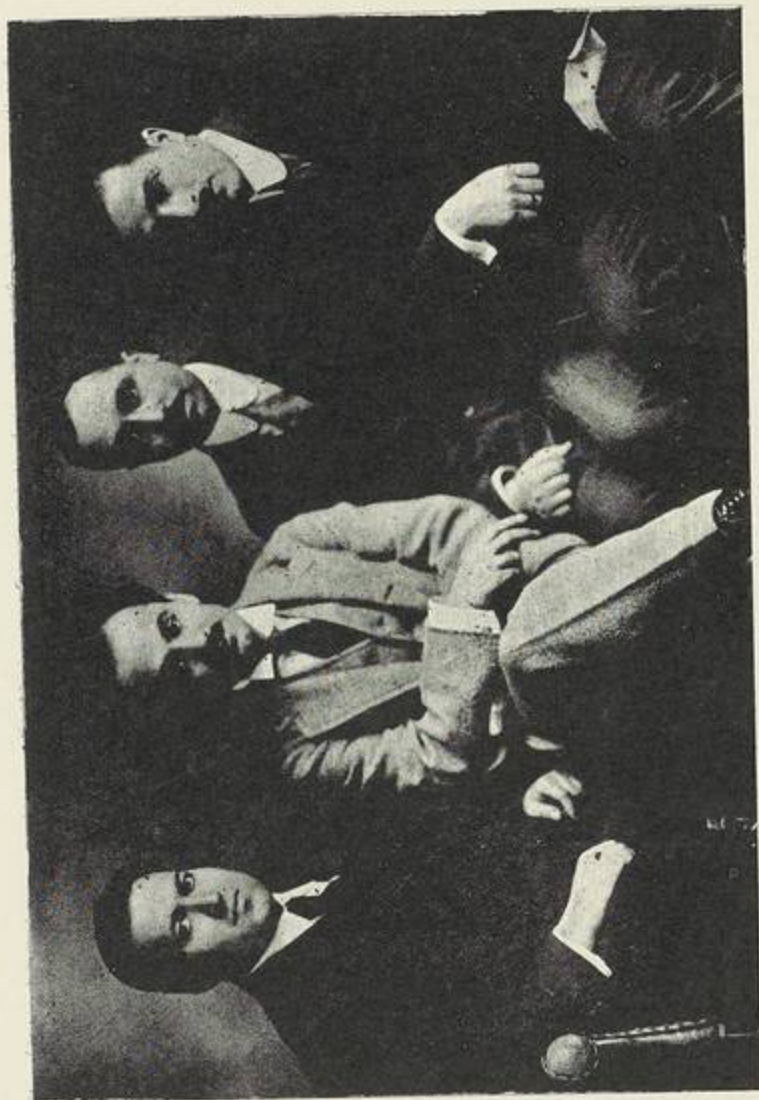
« جزائره السعيدة » . ومصطفى جبران ينثر مواعظه على الناس ثم يعود بعد غربته بينهم الى « الجزيرة التي هي مسقط رأسه » .

زردشت نيتشه يودع تلاميذه في آخر القسم الاول من الكتاب ويقول لهم في ما يقوله : « وانا لن اعود اليكم الا متى انكرتموني كلكم » . ومصطفى جبران يودع اصحابه قائلاً في بعض ما يقوله لهم : « اما اذا تلاشي صوتي في آذانكم ، وطار حبي من ذا كرتكم ، فاني عائد اليكم مرة ثانية » . زردشت نيتشه ، في اول القسم الثالث ، يتأهب للعودة من الجزائر السعيدة الى العالم . فيصعد جبلاً عالياً وفي صعوده يكشف قلبه وآلامه . ثم يُشرف على البحر فيخاطبه هكذا : « وانت ايها البحر القاتم ، الحزين ، المنبسط تحتي ! ايها القدر وايها البحر ! اليكما انحدرا الآن » . ومصطفى جبران يصعد هضبة خارج اورفليس ويخاطب قلبه طويلاً ثم يرى البحر فيخاطبه هكذا : « وانت ايها البحر الشاسع ، ابتها الام الهاجعة ، فيك وحدك السلام والحرية للجدول والنهر . سيدور هذا الجدول دورة بعد . سيهمس بعد همسة في هذه الغاب . ومن بعدها سأتيك قطرة لا تحد الى محيط لا يحد » .

وكما ان زردشت هو نفس نيتشه . كذلك المصطفى هو نفس جبران . وكما ان نيتشه طرح على زردشت تقابلاً من التمويه الرمزي والمجازي يحجبه عن عيون الذين يجهلون من قارئيه . هكذا طرح جبران على المصطفى تقابلاً من المجاز والرموز يحجبه عن من ليس يعرفه . اما من عرف جبران كما عرفته فلا يصعب عليه ان يراه ويرى بعض ظروف حياته وكل اشواقه في المصطفى وظروفه واشواقه . فما اورفليس التي كان فيها غرباً يترب رجوع سفينته الاً نيويورك او اميركا . وما « الميترا » التي اكتشفته وأمنت به قبل كل

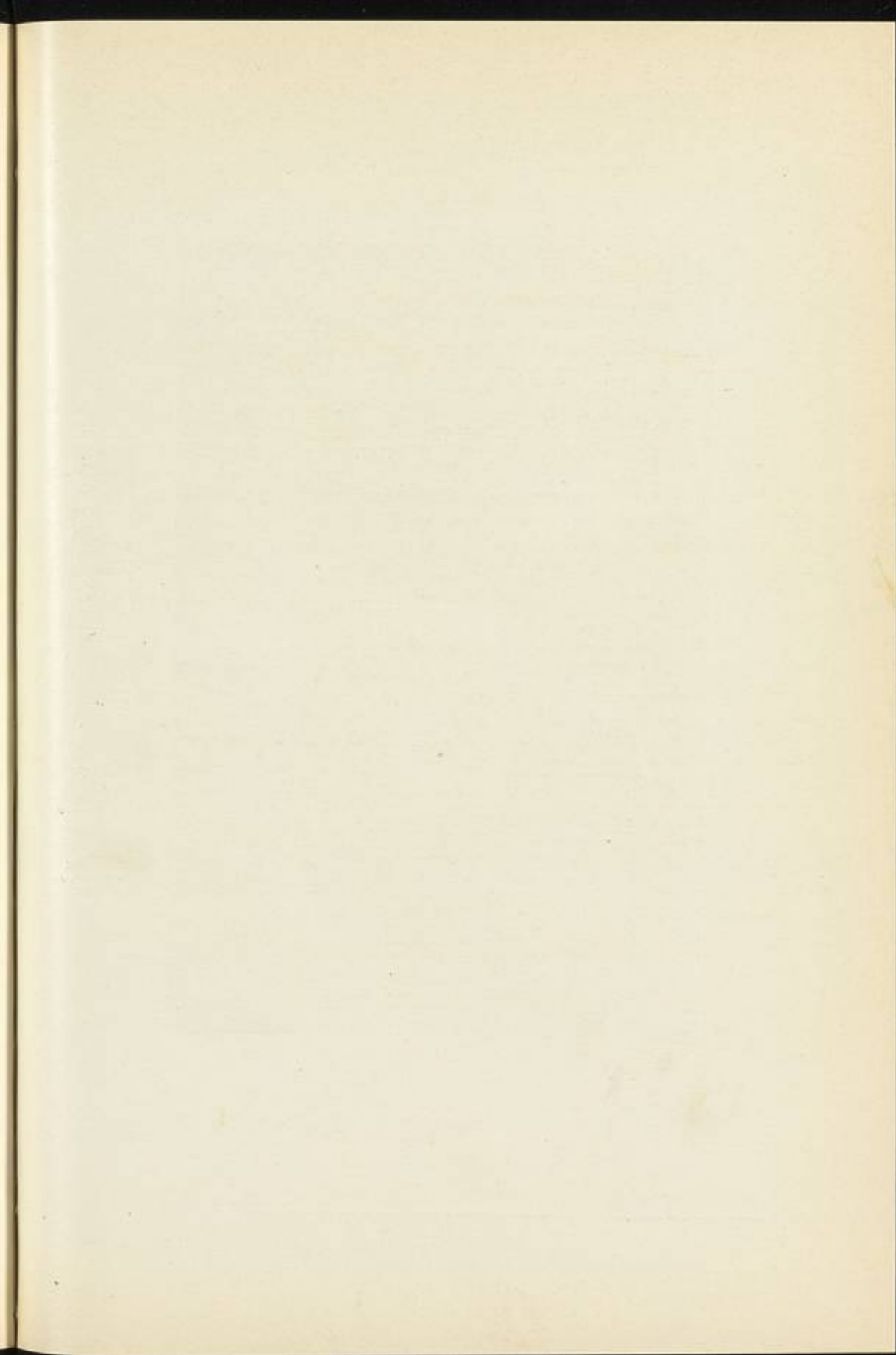
الناس إلا ماري هاسكل . ولا « الجزيرة » التي كان يشواق العودة إليها
غير لبنان . ولا وعده لاهل اورفليس بانه سيعود اليهم سوى ايمانه بعقيدة
التناسخ القائلة ان الموتي الذين لم ينهوا دورة الحياة الكاملة يعودون حتماً الى
الارض ليحددوا عليها ويكملوا العلائق التي تركوها عند موتهم . ولك ، ان
انت شئت ، ان تُخيل في غربة المصطفى في اورفليس غربة الروح عن ربها
اثناء دورتها الارضية . وان ترى في عودته الى « الجزيرة » عودته الى
مصدر الحياة الاسمي . فالشاعر يترك المجال فسيحاً لخيالك . وفي ذلك سرٌّ
من اعظم اسرار فنه

لئن دفع جبران في كتابه « النبي » جزيرة كبيرة لنيشئه من حيث
القالب ، فهو من حيث الروح التي سكبها في ذلك القالب لم يدفع جزيرة الا
لخياله . اما تلك الروح فهي من ينبوع الروح الفياضة الذي تستقي منه كل
روح . فاذا ما رأيت تشابهاً فائق الحد بين ما يبديه جبران من النظرات
بلسان المصطفى وبين ما نقرأه في اثار بعض الصوفية ، وبالاخص في كرازة
بعض الانبياء والرسل ، فلا تتسرع بحكمك على جبران ولا ثقل انه قد نقل
ما ليس له . بل قل انه قد تناوله بخياله من حيث تناوله من قبل ، ويتناوله
اليوم ، كل خيال انعتق من كابوس المقاييس والموازن وجميع ما نقيسه
من المحدودات المتناقضة . فهو من هذا القبيل لم يأت بشيء جديد - وهل
من جديد تحت الشمس ؟ لكنه قال ما قاله بأسلوب يكاد يكون جديداً
بنضارته ، وانسجامه ، وجمال الوانه واتساقها ، ووفرة انغامه وأتلافها ، مع
قلة كلامه ، وقوة الحياة النابضة في كل نبرة من نبراته ، وسكته من
سكاته . حتى انك لو شئت ان تجد فيه عيباً يستحق الذكر لما استطعت .
الا اذا قصدت التنكيث والتعنت . او كنت ممن لا يستسيغون كثرة



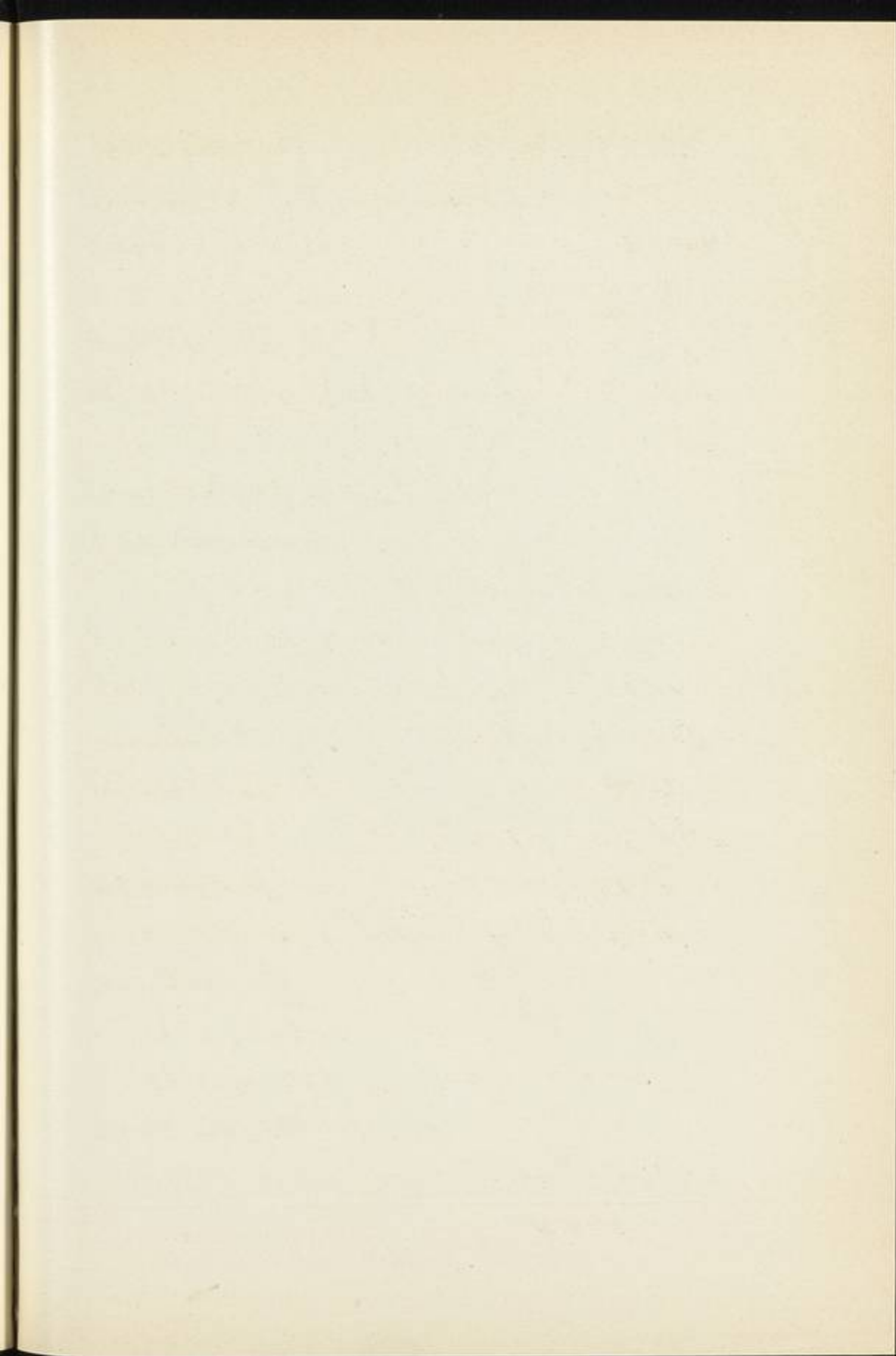
«الرابعة» — ١٩٢٠

من اليمين الى اليسار : المؤلف • عبد المسيح حداد • بيجران • نسيب عريضة





جبران والمؤلف (عن يمينه)
في غابات كاهونزي



الطلاء في الكلام . فقد تعيب عليه وفرة المجاز والاستعارة والكناية .
 وحينئذٍ ليس اسلوب « النبي » عندك غير طلاس في طلاس . لان جبران
 في هذا الكتاب ، اكثر منه في اي كتاب آخر ، بلغ اقصى مقدرته الفنية
 في انتقاء التشايبه المبتكرة وابتداع الاستعارات والمجازات الناتئة كتماثيل
 محفورة في صخر . لكنها تماثيل مبهمه لمن لا ميل فيه الى مثل هذا النوع من
 الفن . او لمن حُرِمَ التمتع بها في حلتها الانكليزية . فهي في الترجمة تفقد الكثير
 من روعتها وطلائها لا سيما اذا كان المترجم قليل الحظ من الذوق الفني
 وقصير الباع في اللغة التي يترجم منها او اليها
 وماذا الذي قاله جبران بلسان نبيه ؟

في « النبي » اشرف جبران بخياله على الحياة فرأى جوهرها واحداً
 وهو المحبة . ورأى الناس شركاء اسواء في جوهرها لا يتميز واحد عن
 الاخر الا بقدر ما ادرك الواحد ذلك الجوهر وجهله الآخر . وهذا الجوهر
 يذيع ذاته لكل الناس على السواء . لكن بعضهم لا يسمعه ولا يبصره لكثرة
 ما في اذنيه من اصوات الحس المشوشة ، وما على بصره من غشاوات الوهم
 الكثيفة . اما الذي طهر اذنيه من جلبه الحواس الخارجية ومزق غشاوات
 الوهم عن بصيرته فليس يسمع او يبصر من الحياة الا جوهرها الصافي .
 وعندئذ فهو لا يحب بعضها ويكره بعضها بل يحبها بكليتها ويمثل لها فيصبح
 واحداً واياها

لذلك يقول المصطفى لاهل اورفليس :

« اذا ما احببتم فلا تقولوا : ان الله في قلوبنا . بل الاخرى بكم ان
 تقولوا : اننا في قلب الله . »

ومن كان في قلب الله هل يرى من فاصل بينه وبين انسان ؟ اولايصبح

كل انسان فيه وهو في كل انسان ؟ ومن كان كذلك كيف له ان يقول .
اعطيت فلاناً او اخذت من فلان ؟ اوليس هو الآخذ عندما يعطي والمعطي
عندما يأخذ ؟ واذ ذاك ففضل من يعطي كفضل من يأخذ — لا اكثر
ولا اقل .

ومن كان في قلب الله كيف له ان يدين اثماً باثمه ؟ أفي الله اثم ؟ —
حاشي . انما الاثم في الانسان الذي لم يتوصل بعد الى ذاته الالهية . والناس
في الاثم سواء :

« انتم لا تقدرون ان تفصلوا بين العادل والظالم ، وبين الصالح والشرير
من شاء منكم ان يرفع الفأس على شجرة ليقطعها باسم الصلاح عليه ان يتفقد
جنورها اولاً . الحق اقول لكم انه يجد الجذور الصالحة والطارحة ، والمثمرة
وغير المثمرة ، ملتفة معاً في قلب الارض الصامت ٠٠٠ وكما ان ورقة واحدة
على الشجرة لا تصفر الا بمعرفة الشجرة كلها ، هكذا لا يرتكب احدكم
جريمة الا بارادتكم الخفية المشتركة . »

ومن كان في قلب الله كيف له ان يقيم حواجز بين شيء وشيء ، حتى
بين نفسه وبين ما يأكله ويشربه ؟ :

« ليت لكم ان تحبوا باريح الارض ٠٠٠ ولكنكم ما دتم مضطربين الى
القتل لتأكلوا ، والى سلب صغار البهائم حليب اماتها لتطفئوا عطشكم ،
فليكن اكلكم وشربكم نوعاً من العبادة . ولتكن موائدكم مذايح
تقدمون عليها الطاهر والبريء من مواليد الغاب والسهل ذبائح لكل ما هو
اطهر واكثر براءة منه في الانسان ٠٠٠ وعندما تذبجون بهيمة قولوا لها في
قلوبكم : ان القدرة التي تذبحك تذبحننا ٠٠٠ وما دمك ودمائنا الا العصير
الذي يغذي شجرة السماء »

الى مثل هذا المستوى يرفع المصطفى سامعيه . مستعيناً في حديثه بالطبيعة ومظاهرها . ومانحاً لهجته بمسحة ظاهرة من لهجة بعض اسفار « العهد القديم » ومستعيراً من الانجيل بعض الرموز والقوالب اللفظية مثل : « لقد قيل لكم كذا وكذا اما انا فاقول لكم كيت وكيت . . . » والحق الحق اقول لكم « وسواها . الا انه يفعل كل ذلك بمحاذقة ولباقة وفن تنسيك ما في حديثه من مستعار ، وتحملك على اجنحة قوية سريعة الى حيث تقصد ان تحملك . فلا تودع المصطفى الا تحس بانه قد اودع حشاشتك حشاشة السنين التي صرفها في التأمل والألم . وانه — ان كنت مغمض الروح — قد فتح في روحك كوة واسعة تطل منها على الروح الكلي

وضع جبران لكتابه « النبي » اثني عشر رسماً . عشرة منها بالادهان المائية واثنان بالرصاص ، وهما رسم المصطفى في اول الكتاب و « اليد المبدعة » في آخره . اما المصطفى فاول ما يستوقفك من وجهه عينان واسعتان ذاهلتان تبدوان كأنهما لا تنظران الى شيء ولكنهما تبصران ما هو ادق من الاشياء واقصى من مجال الابصار . ثم تنظر الى فمه بشفتيه المتلاصقتين فتكاد تحسبهما متورمتين بحمى الشهوات الجسدية لولا ما فيهما من حزن عميق وصمت يترفع عن الشهوات وكل ما فيها من ضوضاء النزاع والغيرة والاستئثار . وعلى الوجه كله ، بما في تقاطيعه من صلابة وقوة ، تطفو سحابة شفاقة من الكآبة القصوى التي تكاد تلامس الفرح الاقصى . اما الشعر فقد انسدل عن جانبي الوجه الى تحت الذقن بسهولة وخفة ونعومة تنسيك انه شعر وتجعله يبدو كهالة من نور . هو وجه تحديق اليه طويلاً فتري فيه ميدان عراك عنيف بين ما استتر تحته من اهواء الارض واشواق السماء

وترى الغلبة بجانب السماء . لكنها غلبة لم تلتئم بعد الجراح التي سببتها . ولم
تُلحَد بعد الاشلاء التي تركتها مبعثرة في ساحة القتال

واما « اليد المبدعة » فيدُ منبسطة تكاد تلمس قوة الفن في كل اصبع
من اصابعها . وفي وسط كفها عين مفتوحة تبصر كل شيء . ومن حولها دائرة
من الاجنحة المتلاصقة باطرافها وكأنها في زوبعة من الحركة السريعة . ومن
حول الاجنحة سديم او ضباب تطوقه دائرة من الاجسام البشرية المشبكة
بعضها ببعض . هذه يد الله . في لمسها بصر . وفي بصرها خيال . لتخيل
الاشكال قبل ان تكونها . ثم تلمس السديم فتكوّن الاشكال . ولعل
جبران عندما رسم هذه اليد ، عاد بالذكري الى « يد الله » من صنع
رودين . لكنه اذا ما اخذ منها الفكرة الاساسية ، فقد اعطاها من فنه
كياناً استقلت به كل الاستقلال عن يد رودين

ما بقي من الرسوم قد جاء بمثابة تعليق على المتن ، واحياناً بمثابة متن
فوق المتن ، فيه رموز بعيدة ، وانسجام فني بديع . ولكن في تقاطيع بعضه
نعومة تبلغ درجة من الاسترخاء والانوثة قد تستجيبها في فن امرأة الا انك
تستجيبها في فن رجل . اما من حيث قوّتها الرمزية ، والفكرة التي ترمي
اليها ، فلا يسعك الا ان تجلها وتكبر الخيال الذي تخيلها واليد التي ابرزتها
امامك اشكالا محسوسة . مثال ذلك رسم الالم . وهو يمثل امرأة مصلوبة
على صداري رجلين تحبهما بالسواء او يحبانها بالسواء . فلا هي تستطيع ان
تقسم قلبها بينهما . ولا الواحد منهما يرضى باقل من قلبها كله . ولعمري هل
من الم اشد من الم الحب الذي يصبح صليبا للحب ؟ بل هل اعذب من الحب
يقود المحب الى آلام الصليب ، ومن آلام الصليب الى غبطة المحبة العلوية ؟

قبل ان سلم جبران « النبي » الى الناشر بشهر او شهرين اعطاني نسخة منه مكتوبة على ما كنة الكتابة . وارسل مثلها الى ماري هاسكل لتتظر فيها وتهديه الى كلمات قد يكون اساء استعمالها او عبارات قد لا يكون قلبها انكليزيا بحتاً . وتلك كانت عادته معها في كل كتاباته الانكليزية . اما النسخة التي اعطاني اياها فكان قصده منها — وان لم يكشفه لي بالتمام — ان ادرس الكتاب درساً وافياً واقول فيه كلمة عند صدوره . وكان قد قرأ لي كل موعظة من مواعظه حال فراغه من تأليفها — ما خلا الفاتحة والخاتمة لكنني بعد ان قرأت الفاتحة والخاتمة ورأيت جبران يحدث عن نفسه في تلك وهذه استنكرت منه ان يصور نفسه « نبياً » حتى تحت نقاب من التمويه الفني . فلو انه اتخذ من المصطفى بوقاً لا غير لافكاره واشواقه لكان الامر . ولقلت ان جبران الفنان والشاعر شاء ان يصور نبياً ويكشف عن روح نبي . كما نصور امراً نرغب فيه ونقصر دون الوصول اليه .

لكن جبران زبط ظروف حياة المصطفى بظروف حياته وصوره كمن بلغ في الواقع الحالة الروحية التي يحدث عنها . فكأنه صور نفسه بالغا تلك الحالة لا بخياله فقط بل في كل احوال معيشته وادوارها . ولانه خلع عليه وشاح النبوة فكأنه خلعه على ذاته ايضاً .

قد يكون ان جبران لم يقصد هذا القصد . لكن ذلك ما تؤدبه فاتحة الكتاب وخاتمته . وذلك ما ادّاه الكتاب كله الى اذهان الكثير من الناس وبالاخص اولئك الذين كتبوا فوق ضريحه في مار سركيس هذه الاية :

« هنا يرقد نبينا جبران »

وكأنه قام لهم من يحاسبهم عن الضمير في « نبينا » الى اين يعود . فغيروا
الكلمة الى « بيننا » . وهي التي قرأتها عندما زرت الضريح في صيف
سنة ١٩٣٢

ولاني استنكرت ذلك من الكتاب لم اكتب فيه ولا كلمة . وهذا
الفصل هو اول ما ا قوله فيه

حصص في السماء وحصص في الارض

زحل « النبي » عن قلب جبران فتسلمته المطابع ولفظته ، في خريف سنة ١٩٢٣ ، كتاباً صغيراً ، بسيط الهندام ، جميله ، وارسلته في الشباب التي تدرج عليها مواليد المطابع في هذه الايام والتي يخفرها ثنين النسيان ويطوقها غربال الزمان فلا يبقين منها الا على القليل القليل . وكان جبران قد فرش لكتابه الجديد بساطاً من الدعاية المستطرفة التي ننسيك انها دعاية لما فيها من جواذب اللطف والدمائة والفن . ففي نيويورك وحدها من مدن الولايات المتحدة جمعيات وحلقات واندية و « صالونات » لا تحصى تدعي علاقة ما بجهة ما من جهات الفن او الادب او الدين وما ينتمي اليها . بعضها للنساء ، وبعضها للرجال ، واكثرها مشترك بين الرجال والنساء الذين يروقه ان يسرقوا من ساعات اعمارهم المهدورة في سبيل الجسد ومنازعه بضع ساعات في الاسبوع يتلهون فيها بما يحسبونه ارفع من حاجات الجسد وملذاته . وبذلك يوهمون انفسهم انهم من طينة انقى واشرف من سائر الناس وانهم « يوفون قسطهم للعلمي » . ولا يخفى ما في ذلك الوهم من لذة التخدير والاغترار بالنفس .

من عادة تلك الجمعيات والحلقات والاندية والصالونات — على ما بينها من تفاوت في المراتب — ان تتبارى في دعوة الشعراء والكتاب والفنانين لالقاء المحاضرات ، او للقراءة من مؤلفاتهم . وجبران كان لا يردّ دعوة للقراءة حتى اذا جاءته من هيئة يستصغرها او يخنقها . وان هو تلكا في

ذلك كان ناشر كتبه يحثه ان لا يهمل فرصة تمكنه من الظهور بين الناس
لانه يعرف ان اسم الكاتب اذا شاع على السنة الناس كان من اقوى
العوامل في ترويج كتاباته . والكاتب الذي كثرت معارفه راجت
مؤلفاته . لاسيما اذا كان معارفه من ذوي « النفوذ » . لذلك ما صدر
« النبي » الا بعد ان كان جبران قد قرأ فصولاً منه في اندية اميركية
عديدة .

اما بين اخوانه المهاجرين في الولايات المتحدة فقد كان لجبران في
« السائح » اكبر بوق واعظم نصير . وجبران كان يعرف كيف ينثقي
الاخبار التي كان يقصد اذاعتها عن نفسه في السائح من غير ان يجعل صاحب
السائح يشعر بقصده . وصاحب السائح ، من فرط حبه لجبران ، كان يأخذ
عنه الخبر وبرزه في الجريدة بأسلوب منمق يزيد في اهميته اضعافاً . فكان
من جراء ذلك ان اقبل السوريون المهاجرون على كتب جبران الانكليزية
— والنبي بوجه خاص — يبتاعونها لانفسهم ويهدونها الى بعض معارفهم من
الامير كان آملين بذلك ان يرفعوا مقامهم في نظر جيرانهم وعملاتهم من اهل
البلاد . فكأنهم كانوا يقولون لهم : « انظروا . مؤلف هذه الكتب ابن
جلدنا وابن لغتنا . وهو يجيد لغتكم خيراً منكم . فما نحن بالقوم الخاملين
كما تتوهمون . » وذلك ابدأ شأن الضعيف بياهي بعزم ابن عمه او ابن خاله
وشأن الاقرع يفاخر بشعر اخيه او جاره . والفلس يذكر كماً كان عليه
من الثروة ابوة واجداده .

من الاخبار التي اذاعتها « السائح » عن « النبي » خبر قراءته في
كنيسة اميركية في نيويورك ، فقد كان منه ، ومن شتى الروايات التي
نقلتها الصحف العربية عنه ، ان اعتقد الكثير من الناس بان « النبي » اصبح

في اميركا كتاباً كنسياً مقدساً . الى حد ان البعض في لبنان كان يسألني
بكل جد :

« اصحيح ان « النبي » قد حلّ في كنائس اميركا محل الانجيل ؟ » !
اما حقيقة الخبر فهي ان في نيويورك كنيسة اسقفية (ايسكوبالية)
تدعى كنيسة القديس مرقس في الباورري . وهي من اقدم الكنائس في
المدينة . ولها قسيس اسمه وليم غثري . ولهذا القسيس نظر غريب في العبادة
وطقوسها واساليب تجييبها الى الناس . فهو يرى ان طقوس الكنيسة لم تعد
نفي بغايات الناس في هذا العصر الذي كثرت فيه انواع الملاحية . وان الناس
يتوانون في تأدية فروضهم الدينية لانها متحجرة وقاسية بالنسبة الى ما في روح
العصر من المرونة واللين . لذلك رأى ان يجعل من كنيسته شبه مسرح ، او
هيكل يوناني قديم ، فيه الرقص ، وفيه الشعر ، وفيه التمثيل - حتى
ومناجاة الارواح . مدّعياً ان في ذلك « جمالاً » . وان الجمال في كل
مظاهره يبعث على التخشع والعبادة . فقد شهدت هناك مرة امرأة جاء بها
غثري كانت تدعي ان الارواح توحى اليها الشعر . فكان من شاء من
الحضور او « المصلين » يعطيها « موضوعاً » . وهذا الموضوع قد يكون
كلمة ، او عبارة ، او اسم علم او اي شيء آخر . فتذهل هنيهة ثم ترشقك
« برباعية » تتسابق مفرداتها من فيها تسابق الرصاص من فم المترايز . وليس
في الرباعية معنى ، والشعر منها براء . غير ان الحضور كانوا مبتهجين لمثل
هذه الفرجة وكانت الكنيسة غاصة بهم حتى الابواب .

لقد نجح غثري نجاحاً باهراً من حيث اكثر عدد « المصلين » في كنيسته
لا سيما من بعد ان اصطدم بمطران الابرشية الذي شجب اعماله ، وهدده بالحرم
والتجريد من حله الكهنوتية ان هو لم يقلع عنها . فتنازلت الصحف الخلاف

ووسعت خرقة . فازدحمت كنيسة غثري « بالمصلين » والمثفرجين وطارت
« شهرته » في البلاد من ادناها الى اقصاها .

ذات احد دعاني جبران مع نسيب عريضة وعبد المسيح حداد الى
كنيسة القديس مرقس هذه ، قائلاً انهم سيقراءون من بعض كتاباته في
خلال الخدمة وسيمثلون « النبي » . فذهبنا . وكان اول ما سمعناه هناك من
كتابات جبران قصيدته المنشورة في « الليل والمجنون » . وهي قطعة لا صلة
بينها على الاطلاق وبين ما اعتاد الناس سماعه في الكنائس . اذ لا علاقة لها
بالدين لا بمعناه المحصور ولا بمعناه الواسع . فكان رجل ينشد ما يقوله
« المجنون » على توقيع الارغن . فيجيبه آخر بلسان « الليل » . وهكذا حتى
آخر القصيدة . وعند انتهاء الخدمة ظهر على المسرح رجل في قميص ابيض
عرفنا انه يمثل « المصطفى » . وهذا الرجل اخذ يحيل بصره ذات اليمين وذات
اليسار ثم راح يخاطب نفسه بما يخاطب « المصطفى » نفسه في اول الكتاب
وذاك بصوت غير طبيعي وبلهجة تمثيلية خالية من الروح . وبعد قليل اقبل
عليه نفر من رجال « اورفليس » ونسائها وفي مقدمتهم امرأة في حال يضاء
عرفنا انها الميتر . فالتقى المصطفى موعظتين او ثلاثاً من مواظله . وبها اختتم
« الرواية » .

عند ما خرجنا من الكنيسة ابدت جبران اسفي على ان الممثلين قد
شوهوا ما حاولوا ان يمثلوه . فوافقني جبران في ذلك لكنه اضاف : « ولكن ،
يا ليتك شهدت يا ميسا تمثيل النبي في كلية سمث للبنات . فقد اجاد البنات في
تمثيله ايما اجادة . اما هؤلاء فليسوا بممثلين » .

الا ان « النبي » ، وان ساعدته الدعاية ، ليس من الكتب التي لاتعيش
الا بالدعاية . ولا من الكتب التي تموت على دواليب المطابع فلا تحيها

لا الدعايات ولا الاعلانات . بل ان فيه من عصير الفكر الصافي ومن وهج الخيال المتوقد ما يكفل له حياة مترامية الاطراف ، متعددة الاصداء ، موقورة بالسنين . فجيران قد عرف كيف يجعل منه شجرة كاملة بفروعها واغصانها وكيف يدفن جذورها في تربة الحياة البشرية حيث تبقى حية ما دامت البشرية حية . فمادام الناس يولدون ويموتون ، ويأكلون ويشربون ، ويحبون ويتزوجون ، ويفرحون ويمزنون ، — مادام الناس ناساً سينبق بينهم من يفقش عن معاني الحب والزواج وسواهما من علائق الحياة ، ومن يرتاح الى تفسيرها كما هي مفسرة في «النبى» . وقد يبوخ اسلوب الكتاب الرمزى والمجازي كما باخت من قبله اساليب بيانية كثيرة . اما جوهره فلن يبوخ .

وكأني بجيران ، بعد ان اسلم «النبى» الى العالم لنفس الصعداء وقال في قلبه : « الان قد لفظتها ! » — والضمير عائد الى « الكلمة » التي كان يحس بها في فمه فلا يطلقها الا بعد ان يتثبت من انه قد اودعها خلاصة روحه وجوابه الاخير لنفسه عن الحياة وكنها وزبدتها . فقد عرف ان الحياة وحدة شاملة تنكسر عليها كل المقاييس الجزئية والفردية والزمانية والمكانية . وانها في قطرة الماء مثلها في الاوقيانوس . وفي ذرة الرمل مثلها في الجبل . فهي لا تتحد حتى في اصغر مظهر من مظاهرها . وكأني به ذكر ما كان من شأنه معها قبل ذلك من تأفف ونفجع وثورة وعصيان فضحك من نفسه وقال :

« عند ما طرحني الله حصاة في بحرة الحياة العجيبة احدثت على سطحها دوائر لا تحصى . لكنني بعد ان بلغت القاع اصبحت هادئاً . »
لقد كان على جيران ، وقد بلغ القاع ان يهدأ . لكنه لم يهدأ هناك ولم

يستكن . لأنه لم يبلغ القاع الا بحباله . فكان كومنى الذي اشرف على ارض
الميعاد فوطئها بعينه لا بقدميه . وذاق طعم لبنها وعسلها بروحه لا بفسه .
او كان كالغواص ينحدر الى قاع البحر مشدوداً بالحبال . فلا يلمس القاع
هنيهة من الزمن حتى تشده الحبال الى سطح البحر . والحبال التي كانت تربط
جبران بسطح الحياة وما عليه من امواج صاخبة وزبد مطاير كانت اشد من
ان يقطعها خياله . وهذه الحبال ظلت تحز مفاصل ايامه ولياليه ،
وتكبل اجنحة احلامه واشواقه ، وتحول دون السلام بين نفسه ونفسه
حتى آخر حياته .

ان كلمة تطلقها من فمك تصبح شهادة لك او عليك تجاه الناس . ان
خيراً خيراً وان شراً شراً . وليس ينقضها الا اعمالك . وجبران قد ادعى
في « النبي » شهادة في نفسه تكاد تكون الكمال بعينه . فمن يشهد مثل
تلك الشهادة عليه ان ينسى ذاته الفردية ليحدها في الذات العامة . فلا
يبغض انساناً لانه كل الناس . ولا يملك شيئاً لان كل شيء له . ولا
يهرب من الالم لانه الطريق الى الخلاص . ولا يدين مجرمًا لانه يدين
نفسه . ولا يطلب مجداً لان كل مجد باطل . وان هو لم يفعل كل ذلك
كانت شهادته كاذبة .

وجبران كان ادرى الناس بذلك . فهو كان يعرف ان « من نصب
نفسه للناس اماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره » — كما قال الامام علي —
« وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه . ومعلم نفسه ومؤدبها احق
بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم » . ولانه كان يعرف ذلك كان يتألم من
نفسه القاصرة دون اللحاق بخياله ، ويعزيها بقوله انها ستعود الى الارض لتغلب
في دورات تالية على ما استعصى عليها في دورتها هذه .

كان « النبي » لا يزال مخطوطة في حقيبة جبران عندما طفت على الولايات المتحدة موجة المقامرة بالاطيان والمسقفات . فكنت لا تسمع الابن اتباع امس بيتاً او قطعة من الارض بالف دولار فباعه او باعها في الغد بالفين او ثلاثة . فاندفع جبران مع من اندفعوا بذلك التيار . وتشارك مع رجل سوري في بوسطن في شراء بناية هناك . ودفعوا نحو عشرة آلاف دولار من اصل ثمنها وبقي نحو اربعة اضعاف تلك القيمة ديناً عليهما . وتوفى الشريكان على الاثر الى سيدة استأجرت منهما البناية لتجعلها مركزاً لجمعية نسائية . وكانت قيمة الاجر المتفق عليها وافية لدفع الفوائد واستهلاك الدين في خلال سنين قلائل . الا ان الشريكين اضطرا ان يجدثا في البناية تحسينات وتبديلات كثيرة لجعلها « لائقة » بثلث الجمعية وغاياتها . والتحسينات هذه كلفتهما من المال قدر القسط الذي دفعاه من الثمن . لكنهما كانا يمينان نفسيهما بارباح طائلة . وهكذا راح جبران يرى الثروة على قيد باع منه وفيها يرى الاستقلال المادي التام الذي كان يحلم به كل حياته .

ولكن سرعان ما انقلب الامل الى الم . فما هي الاشهور حتى قصرت السيدة المستأجرة عن الدفع مدعية ان جمعيتها لم تنجح ، وان آمالها بنجاح تلك الجمعية كانت كل ما لديها من راس مال . واذا ان البناية لم تعد صالحة للجمعية كذلك الجمعية تعذر على جبران وشريكه ايجارها . واذا لم يبق في ايديهما مال تعذر عليهما دفع الفوائد واستهلاك الرهن . فذهب مالهما وذهبت اتعابهما هباءً .

في تلك الاثناء كتب جبران الي من بوسطن يقول :

« . . . يعلم الله انني لم اصرف شهراً في غابر حياتي يماثل الشهر الماضي بصعوباته ومصائبه ومشكلاته ومعضلاته . ولقد سألت نفسي مرات ما اذا

كانت « جنيتي » او « تابعتي » او « قرينتي » قد تحولت الى عفريت يعاديني ويقاومني وبوصد الابواب امامي ويضع العثرات في سبيلي . منذ مجيئي الى هذه المدينة العوجاء وانا في حميم من الدنيويات . ولولا شقيقتي لترك كل شيء وعدت الى صومعتي نافضاً غبار الدنيا عن قدمي .

« . . . غير ان الامور التي ابقتني في هذه المدينة والتي تجبرني على البقاء عشرة ايام اخرى ، لا تتعلق بما كتبت او بما قرأت او سأقرأ بل باشياء جامدة بليدة متعبة تملأ القلب شوكاً وعلماً وتقبض على الروح بكف حديدية خشنة كالبرد . »

هي ضربة استنزفت من جبران كل ما جمعه من المال بالجد والتوفير في خلال سنين طويلة . فضعضت قواه ، وبعثرت افكاره ، واغلقت عليه ابواب الهامه ، واثقلت من وطأة مرضه . لكنه تلقاها بصبر جميل وجأش رابط . ورأى ان لا مناص له من تجديد بنيان استقلاله المادي . فهجر القلم زماناً وعاد الى ريشته يستعين بها على رد خسارته . وكانت كتبه قد بدأت تدر عليه بعض المال . والخمسة والسبعون دولاراً من ماري ما برحت تأتبه في كل شهر . وما هي الا سنتان او ثلاث حتى انتعش جيبه من جديد ، فلملم شعث افكاره واشترود مفاتيح خياله ، وثاب الى محابره ودفاتره . وكان قد مضى عليه نحو ثلاثة اعوام لم يصدر له في خلالها كتاب . وهي سكتة طويلة ، في بلاد كاميركا ، لكاتب لا يرضى ان ينسأه الناس وهو حي . فاقبل جبران على شذور كان قد وضعها بالعريه في ادوار مختلفة من ادوار حياته . فترجمها الى الانكليزية وزاد عليها واصدرها في سنة ١٩٢٦ في كتاب اسماء « رمل وزبد » . وقد قال لي في ذلك الوقت انه كان يشعر كما شعر الملك داود عند ما مات ابنه من بتشابع — امرأة اوريا . فداود

انقطع عن الطعام والشراب ، واستسلم للحزن في كل مدة مرض الصبي .
اما عند ما بلغه خبر موته « فاغتسل وادّهن وغير ثيابه » وامر عبيده فجأؤوه
بطعام واكل قائلاً : « لما كان الصبي حياً صمت وبكيت لاني قلت من يعلم
لعل الرب يرحمني ويمحي الصبي . واما الآن فقد مات . فلماذا اصوم .
أفأستطيع ان اردّه بعد . »

وهكذا هو — جبران . فقد كان ، قبل ان تنتهي مشكلة البناية في
بوسطن ، يعلل نفسه بان يسترد منها ولو بعض مالفه فيها من ماله . لكنه ،
بعد ان انتهت المشكلة ولم يبق له من امل باقل تعويض ، طرح خسارته من
فكره وثاب الى ادبه وفنه

لم يمض وقت طويل حتى ابتاع جبران اربعين حصّة في البناية التي
يسكنها في نيويورك . وهذه المرة كانت صفقته رابحة الى حد انها عوضت
عليه اضعاف خسارته في بوسطن

الدُّبْكُ

« الدُّبْكُ » كلمة عامية شائعة في بعض جهات لبنان . وهي تعني حيلة يقصد بها المزح اذا انطلقت على الممزوح معه . وانا مدين بعنوان هذا الفصل لرشيد ايوب الذي نبش هذه الكلمة من خزانة تذكارات صباه فادخلها على قاموس اخوانه في « الرابطة » والمقرئين منهم . واكثرهم لم يكن سمعها من قبل في حياته . وانا مدين بالفصل كله لعبد المسيح حداد الذي كان يجيد هذا النوع من المزاح اياما اجادة ، لا سيما مع رشيد ايوب الذي دعاه لذلك « شيخ الثعالب » او « الثعلبان » — على وزن ملفان . وكلاهما خفيف الروح حاضر النكتة ، لطيف المعشر . فكم حالة عابسة بدلاها بحالة ضاحكة . وكم ساعة تدب ثوانيا في اصفاد من الهم والامى جعلها دقيقة ترفرف باجنحة من الزهو والطرب .

كان النهار سبتاً . وكان عبد المسيح منهمكاً في اصدار عدد ممتاز من السائح . فمررت به بعد الغذاء ومن لطخ الجبر على يديه عرفت انه كان في المطبعة وانه قد باشر الطبع بعد ان اكتملت لديه كل المواد . وكان آخر ما وصله منها ايات لرشيد ايوب اطلعني عليها قبل ذلك يوم فاعجبني . وقرأتها لجبران بالتلفون فاعجبته .

كان عبد المسيح يحدثني عن تعبته المضنك في ترتيب « الممتاز » وننسيقه والوقوف على طبعه . وكنت اقلب بعض الصحف على المنضدة امامي . فوقع في يدي عدد من جريدة « الف باء » الدمشقية وفي صفحته الاولى عمود

ايض ضرب قلم المراقبة على ما فيه . تأملت ذلك العمود وانا اعجب لسخافة
المراقبين واقلامهم . وهنا خطرت لي اب في ذلك العمود الايض جرثومة
صغيرة لـ « دبك » كبير او لاجبولة ينصبها عبد المسيح لرشيد ايوب . فما
كدت ابوح لعبد المسيح بما جال في خاطري حتى اطرق هنيئة ، ثم انتصب
واقفاً ، وقد لمعت عيناه بنور الفوز . وباسرع من لمحة الطرف خطف
الجريدة من يدي هاتفاً : « عندي ! » . وهرولاً خارجاً

بعد دقائق عاد عبد المسيح وفي يده عدد الف باء . واذا بالعمود الايض
قد اسود . واذا بالسواد الذي فيه آيات رشيد ايوب التي قدمها للسائح
الممتاز . وفي اعلاها باحرف كبيرة هاتان الكلمتان : « لابن المعتز » !

ادركت في الحال ما فعله عبد المسيح فقد ذهب توجاً الى المطبعة حيث
كانت آيات رشيد لا تزال منضدة . فحذف من اعلاها اسم رشيد ايوب
« العامل في الرابطة القلمية » ووضع مكانه اسم ابن المعتز . وطبعها في
العمود الايض كما تطبع « البروفا » فجاءت نظيفة ، ممتنة ، سوداء ، لا
تميزها عما حوالها من مواد الا عين خبيثة جداً بأسرار الطباعة والوان الخبر
واشكال الاحرف

وكان قد قرب ميعاد قدوم رشيد ايوب الى الادارة لينام هناك
« دقيقته المعهودة » حسب عادته من بعد ظهر كل يوم . فاتفقت وعبد المسيح
ان نطرح الجريدة في سلة المهملات . وبعد ان يأتي رشيد ان نكلف رجلاً
من غير الرابطة ان يجلس الى منضدة التحرير ويتظاهر كما لو كان يفتش من
غير اكثر من صحيفة ما يتسلى بها . فينتشل مصادفة ذلك العدد من
الف باء ثم يطرحه من يده الى الارض . ثم يرفعه وقد وقع نظره على آيات
ابن المعتز . فيظهر لها اهتماماً كبيراً ويقرأها بصوت عالٍ لانما عبد المسيح لانه

يطرح مثلها في سلة المهملات بدلاً من ان ينقلها الى السائح حين انه ينقل
الكثير مما هو دونها

وهكذا كان . فما دخل رشيد واحتل كرسیه وسند رأسه بكفه
وراح يغازل إلهة الاحلام حتى بدأ « المساعد » بتمثيل دوره . وما قرأ
يتين او ثلاثة من ايات « ابن المعتز » حتى ارهف رشيد اذنيه ورفع
نظراتيه عن عينيه الى جبهته ، ثم هب عن كرسیه ، وبالرغم عن سنیه الخمسين
وثب وثبة واحدة الى القارئ واختطف الجريدة من يده . فما وقعت عينه
على العمود الذي فيه اياته حتى جمد في مكانه وقد جحظت عيناه ، وامتنع
لونه واستولت الدهشة على كل عضلاته . هي لحظة لا توصف . لكنهما لم
تكن اللحظة اشرقت بعدها اسرّة رشيد ، وعادت نظارتاه من جبهته الى
عينيه ، ومشى الدم في عروق وجهه . فالتفت الى عبد المسيح مقهقهاً وقال :
« آه يا ثعلبان ! هذا دبك . . . لقد بلغت من فنك درجة هي العبقريّة
بعينها . »

ونحن في ذلك واذا بجبران يخاطب الادارة بالتلفون قائلاً انه قادم بعد
قليل . فانفقنا بالبدهة ان « نلعب الدور » معه . وكان من نصيبي ان امثل
الجانب الاكبر من ذلك الدور .

وجاء جبران . فلم نبشّ له كالمعتاد بل استقبلناه بوجوه ارتسم عليها
الحزن والهم والارتباك . الا رشيد . فقد تظاهر كما لو كان لا علم له بشيء .
وما هي الا هنيهة حتى بدت الحيرة على وجه جبران كذلك . فاخذني جانباً
وسألتني بالهمس : « ما الخبر ؟ » اما انا فمن غير ان اجيبه بكلمة اخذته من يده
ودخلت به غرفة محاذية . ومن بعد ان اغلقت الباب كن يخشى ان يسمعه
احد ناولته عدد الف باء واشترت له باصبعي الى العمود المعهود وهمست له

همساً : « اقرأ » وجلست ارقب حر كاته وادرس التغيرات الطارئة على معاني وجهه . فما انتهى من القراءة حتى رفع الي عينيه وفيهما من الحيرة اخماس واسداس . وقال :

« اليست هذه الايات ايات رشيد التي قرأتها لي امس بال تلفون ؟ »
« بلى . حرفاً حرفاً »

« عجباً يا ميسا كيف يتحل رشيد مثل هذه الايات وقد نظم في حياته ما هو اجمل منها بكثير . اوليس من الممكن انه قد نظمها من زمان وبعث بها الى الف باء ؟ »

« هذا مستحيل يا جبران . فلا علاقة بين رشيد والف باء على الاطلاق . وفوق ذلك فهو يعرف مثلاً يعرف كل واحد منا ان ما ينشر في السائح الممتاز يجب ان يكون جديداً وخصيصاً بالمتاز . ثم ان رشيداً قال لعبد المسيح ولي انه نظم هذه الايات منذ يومين وقضى ليلة كاملة في نظمها . »

« انقول اذن انه توارد خواطر ؟ ام نقول ان رشيداً حفظ القصيدة في حادثته ونسي انه حفظها . وعند ما جاء لينظم خطرت له معانيها ومع المعاني اكسيتها اللفظية فكتبها وهو يحسب انه ينظمها . وهكذا انخدع من حيث لا يدري ومن حيث لا يقصد ان يخدع ؟ »

« انت تستخف بنفسك وبني يا جبران عند ما تأتيني بمثل هذه التعاليل »
« ما كنت احسب رشيداً يرتكب مثل هذه الفضيعة . »

« اما وقد ارتكبها فماذا العمل لتلافياها ؟ بماذا نجيب الناس غداً بعد ان يصدر « الممتاز » ويروا ان احد عمال الرابطة قد اختلس قصيدة برمتها ؟ وهل في العالم من الصابون ما يكفي لغسل هذه اللطخة عن اسم الرابطة ؟ »
« لنقل لعبد المسيح ان يهملها من العدد الممتاز »

« ولكنها قد طبعت يا جبران ولا سبيل الى اسقاطها الا باتلاف المزمة كلها . ومن ثم فماذا نقول لرشيد اذا صدر الممتاز ولم ير فيه اياته ؟ اقول له اننا عرفناه سارقاً فنبذناه ؟ »

« لا . لا . لا . والف لا . بل نقول له ان عبد المسيح اهمل اياته من غير قصد . ثم ننشرها في عدد عادي . فقد تعود الناس ان لا يقرأوا في الممتاز الا مواد جديدة . اما الاعداد العادية فليس لها من المكانة والتأثير ما للاعداد الممتازة »

« وهكذا بقي حيث كنا . وتبقى اللطخة على اسم الرابطة . وبقي رشيد سارقاً . — لا . لا يا جبران . هذا عذر اقبح من ذنب »

« اذن لتصدر القصيدة في الممتاز باسم رشيد . وفي اول عدد من السائح يصدر بعده ليعلم عبد المسيح انه قد ظهرت خطأ في الممتاز قصيدة تحت اسم رشيد ايوب وهي لابن المعتز . »

« وبذلك نكون ممن يحاول ان يغسل لطخة من الحبر على ثوبه فيزيدها نفشياً . اما رشيد الذي هو اخونا ومنا وفيما فنكون كأننا غمسناه في خلقين من الزفت . لا يا جبران . جئني برأي غير هذا الرأي . »

هنا اطرق جبران طويلاً وقد شعرت بافكاره كأنها الاسماك في شبكة يتراءى لها منفذ فلا تنشب اليه حتى تجده مسدوداً . فتعود تخبط بعضها فوق بعض . وكان عبد المسيح في اثناء هذا المشهد يدخل علينا بين الفترة والفترة . فيفتح الباب بهدوء كلي . ويغلقه بهدوء كلي كأنه داخل الى مجلس يترتب مسير الكون على خلاصة مناقشاته . وكان ، اذا ما فاه بكلمة ، فليزيد بها في هول المصيبة وحراجه الموقف . واخيراً نفدت حيل جبران فالتفت الى التفاتة المستغيث وقال :

ولكن ما حيلتك يا ميشا ؟ انها لمصيبة عمياء « قلت :
« لا حيلة عندي غير الصراحة يا جبران . وكل حيلة سواها ستكون
عاراً علينا حتى وان نجحت . فمن رأيي ان تصارح رشيداً بالامر لانك عميد
الرابطة . » فانتفض كالملسوع وقال :
« انا ؟ لا والله ! فان عرفت ان رشيد ايوب عرف اني عرفت لما
استطعت بعد ذلك ان ارفع اليه بصري . بل الاحسن ان تصارحه انت
لانك مستشار الرابطة . »

« هذا هو الجبن بعينه يا جبران . وما كنت اعهدك جباناً تهرب من
امر واقع وتخلص من مسؤولية على عاتقك بالقاءها على عاتق غيرك . ان
يكن رشيد صديقك فهو صديقي ايضاً . وعلاوة على ذلك هو ابن بلدي . » —
وكان عبد المسيح قد دخل علينا للمرة الرابعة او الخامسة فاستنجدته بقولي :
« ما رأيك يا عبد المسيح . أليس من واجب العميد ان يفتح رشيداً
بأمر هذه القصيدة قبل ان تقع ونوقع رشيداً والرابطة في ورطة لا يعلم
مغبتها الا الله ؟ » — وبالطبع لم يتردد عبد المسيح لحظة واحدة في تثبيت
رأيي . وعندها ، بعد ان طالت مجادلتنا اكثر من نصف الساعة ، وبعد ان
انسدت كل المسالك امام جبران ، انتشرت على وجهه سحابة من الحيرة
الصماء والحزن الابكم ، وبرقت في عينيه دمعان ، ومن غير ان يقول كلمة ،
نهض عن كرسيه ، وفتح الباب ، وخرج الى الغرفة التي كان فيها رشيد
ايوب ونفرت من عمال الرابطة ومن يلوذ بهم ، وارتدى معطفه واخذ عصاه
وقبعته وهمّ بالانصراف دون ان يودع احداً

فلم يتمالك رشيد عندئذٍ من الضحك . ومعهم ضحك رجل لم يكن جبران
يعرفه . فشززه كأنه يريد ان يمزقه بعينه لانه غريب عن الرابطة وتجاسر

ان يتحكك في مثل تلك « المأساة » . وعلى الاثر خرجتُ وعلى وجهي ابتسامة
وخرج عبد المسيح وهو يقهقه . فوقف جبران لمحة كالشده او كمن خولط
في عقله . ثم التى نظرة على الجمهور كله فادرك ان المأساة لم تكن الا مازحة .
فبسم بسمة صفاوية وضرب الارض بعصاه وقال :

« يا مناحيس . لقد انقصتم من عمري عشر سنين . من هو صاحب هذا
الدبك الذي هو طرفة من طرف الفن ؟ انا حتى الآن لا افهم منه شيئاً .
اين عدد الفباء ؟ ام انا اعلمى ؟ ام انا بليد ؟ هاتوا فسرؤالي كيف وصلت
ايات رشيد الى دمشق منذ اربعين يوماً ولم ينظمها الا منذ يومين . ومن هو
ابن المعتز ومن اين نبشتموه ؟ لله دركم . لله دركم ! »

السيدة المتحيرة

ما يرح الانسان يتكلم عن الحياة منذ تعلم النطق . ويكتب عنها منذ تعلم الكتابة . ويصورها بالانغام والالوان والحجر منذ تعلم الغناء والتصوير والنحت في الحجر . والحياة ما تزال بجزراً بلا شواطئ . لا تسوعها كلمة ، ولا يسبرها لحن ، ولا تقتنصها صورة ، ولا يمثلها تمثال . لكن الذين ادرّكوا بلاغة الصمت وهيبة السكون في حضرة ما لا يحدّ لم يولدوا بعد . واما عرفت هذه الارض امثالهم فالبشرية لم تعرفهم لانهم كانوا صامتين ساكنين .

لعل اقصى درجات المعرفة هي المعرفة بان سرّ الحياة يدرك بالروح ولا يذاع باليد واللسان . واسمى مراتب البلاغة هو الصمت المبطن بتلك المعرفة . وقد يكون ان ذلك الصمت هو المحجة التي نسير اليها عن غير علم منا . فلو كان لواحد من الناس ان يجمع كل ما قاله في حياته لدش لسانه كيف انه لم يبرّ من تردد بعض الكلمات والعبارات ملاين المرات من غير ما جدوى ، ولنفسه كيف لم يرهقها بالثرثرة دون ان يذنيها قيد شعرة من المعرفة التي هي معرفة . ولفكره كيف لم يرزح تحت جبال من المقاطع والمفردات التي لو غرلها كلها لما بقي منها في غرباله كلمة واحدة يمكنه ان يقول فيها : « هي ذي خلاصتي » .

لكن بعض الناس مهنتهم الكلام . ومنهم الكتاب . فواحدهم لا يكاد ينتهي من وضع فصل او كتاب حتى يفكر بآخر . وعذره في ذلك ان

عنده افكاراً و اراء جديدة يعرضها على الناس . والناس يحملونه على ذلك اذا هو لم يحمل نفسه عليه . فهم يتوقعون منه ان يكون شجرة فاكهة على الطريق ، وان يكون عليها ثمر جديد كلما مرّوا بها . وكما ان الشجرة المثمرة لا تعرف في اي فصل من الفصول ، وفي اية سنة من السنين تأتي ثمرة تكون اجمل واشهى كل اثمارها ، هكذا الكاتب المثمر قد يأتيك اليوم بكتاب يبلغ فيه اقصى مداه فلا ينفك يكتب جاهلاً انه لن يقول غير ما قال ولا اجمل مما قال

كتب جبران « النبي » وهو يشعر انه قد افرغ فيه كل قلبه وكل فكره وكل فنه . لكنه ما درج الكتاب في سبيله حتى راح يفكر بسواه . فكأنه من بعد ان ظن انه قد لفظ « الكلمة » التي كانت في فمه عاد فوجد انه لم يلفظ منها سوى مقطع واحد . فعاد يفكر بما بقي من مقاطعها وهو لا يشك في ان بإمكانه ان يلفظها كلها . وما كان يدري انه يحاول المستحيل . ولا كان يدري ان العمر ينقضي ، والبشرية تنقرض وتبقى الحياة كلمة يفهمها الوجدان ويعجز عن النطق بها اللسان . لذلك قال لي بعد صدور « رمل وزبد » :

« هذا لسد الفراغ في حياتي الكتابية ما بين « النبي » والكتاب الذي سبيلوه . فقد مر بي ثلاث سنوات لم يصدر لي فيها كتاب . اما « النبي » فكتاب غريب يا ميسا . وما اكثر الذين يغبطونني عليه . لكنه مقدمة لا غير . فانا فيه اتحدث عن علاقة الانسان بالانسان . وبفكري اليوم كتاب آخر اتحدث فيه عن علاقة الانسان بالطبيعة . وسادعوه « حديقة النبي » . وكتاب ثالث ابين فيه علاقة الانسان بالله . وسادعوه « موت النبي » . وهكذا تشكلون من هذه الكتب الثلاثة حلقة كاملة . فما رأيك ؟ »

لكنه ما عثم ان فاجأني بـخبر جديد . فقد جئته يوماً اسأله اين اصبح من
« حديقة النبي » . فاذا به يجيني :

« الحديقة ما برحت في خاطري . ومثلها موت النبي . ولكن ما قولك
في كتاب عن يسوع ؟ يسوع يساور افكاري من زمان . وقد سئمت
الذين يؤمنون به يا ميسا يتحدثون فيه ويكتبون عنه ويصورونه كما لو كان
سيدة بلحية . فهو جميل لكنه مسكين وضعيف وفقير ووديع ومتواضع .
وسئمت الذين لا يؤمنون به يصورونه مشعوذاً وساحراً . وسئمت « العلماء »
يأتونك بالابحاث الطويلة والبراهين العقيمة ليثبتوا او ليدحضوا وجوده ،
وهو اكبر حقيقة في حياة البشرية . وسئمت اللاهوتيين يحوكون له من
مما حكاهم السخيفة اكفاناً تحجبه عن الفكر والقلب . فلا هو بشر مثلك
فنتقدي به . ولا هو اله فتعبده . ويسوعي بشر مثلي ومثلك . وقد بلغت حقة
احد الكويتيين الامير كان ان صور يسوع تاجراً مخنكاً يرمي بكل تعاليمه
الى غاية مادية بحتة . فتأمل ! وعندي انه كان رجل العزم مثلاً كان رجل
الرافة . وانه قط لم يكن مسكيناً او متمسكناً . وانا اكره المسكنة وارى
التواضع ظاهرة من ظواهر الضعف .»
فقلت من غير ان اجادله في رأيه :

« يسوع موضوع لا ينضب مهما تناولته الالسن والاقلام . ومهما
كثرت الكتب عنه يظل هناك مجال لكتاب جديد . ولكن كيف ننوي
ان نكتب عنه يا جبران ؟»

« لقد اهتديت الى قالب يعجبك يا ميسا . وبعد ان اهتديت الى
القالب اصبح الكتاب في فكري كأنه قد كتب . فسأجعل
معاصري يسوع يتحدثون عنه - كل حسب منازعه ومداركه .

ومن احاديثهم تكون صورة يسوع كما اراه انا . وهو قالب يناسب اسلوبي
كل المناسبة . »

وراح جبران يستنطق الاموات عن يسوع . وهو في الواقع لا
يستنطق الا قلبه ولا يحكم الا فكره . فقد كان يجهد ذاك وهذا في الليل
والنهار . وكم ليلة سهرها حتى الفجر متغلغلاً في روح يهوذا الاسخريوطي
او قيافا او يلاطس البنطي او مريم المجدلية او مريم ام يسوع او كل من
الرسل وسواهم وهو لا يأتي على شهادة واحد منهم الا بعد ان ينقمص فيه
وينقل بالفكر الى عصره . فكان ، وهو في صومعته في نيويورك ، او
عند اخته في بوسطن يزود جبال الجليل وبطاح اليهودية ، وغور الاردن ،
وشواطئ بحيرة طبرية متتبعا خطوات يسوعه ومصغيا الى كرازته في
الجاهير وفي الهياكل وفي التلاميذ على انفراد . ومحاولا ان يأتي بخلاصة
تلك الكرازة والقوة التي جعلتها احرفاً من نار على جباه عشرين من
القرون .

كل ذلك والداء يمكن قبضته من قلبه يوماً بعد يوم . وهو لا يعني او
لا يبالي . بل كأنه كان والداء في سباق . وكان يخشى ان يسبقه الداء
قبل ان ينتهي من كتابه الجديد . لكن الاقدار كانت لا تزال بجانبه .
فقد مكنته من السبق . فانتهى من كتابه في صيف سنة ١٩٢٨ وسلمه
للنشر . فصدر في خريف تلك السنة وجبران في بوسطن . وقد كتب الي
في اول اكتوبر يقول :

« كتاب يسوع تناول صيفتي مريضاً وصحياً - ولا اكتمك ان
قلبي ما يرح فيه رغم انه قد صدر « وطار من هذا القفص » .

على اثر صدور « يسوع ابن الانسان » كتبت فيه كلمة بعنوان « يسوع

جبران « لست ارى بأْساً من اثباتها هنا لان رأيي اليوم في الكتاب لا يزال
ما كان منذ ست سنوات :

وجهه جميل ونيل . يعلوه غشاء لطيف من الشحوب النام عن شفقة
ممسكة بالقلب . لا عن اسي رابض في النفس .

في فمه الحساس صلابة تفهم اللين فلا تجرح . ورفعة تعرف ذاتها فلا
تتضع . وفي انفه رقة الشعر ودقة الفن . واتساق الهندسة .

اما عيناه فتنظران الى ابعد مما تبصران . فيها رهبة الوحي دون طمأنينته .
واليقين بالنصر دون النصر . ووحدة لا تلطفها المحبة . وعزلة لا يونسها نورها
في حاجبيه تقطب خفي . كانه يجهد فكره للوصول الى سر عميق .
وكانه بلغ عتبة ذاك السر اما بابه فلا يزال موصداً في وجهه .

في جبينه الواسع العالي اباء وعظمة . وفي شعره الناعم المرتد عن جبينه
وصدغيه ، والمسترسل فوق كتفيه ، طهارة لا تعرف الدنس . هو وجه
معانيه كثيرة . واطهرها ارادة تحاول ان تغلب على ذاتها او ان تستر ضعفها
ريثما يتم لها النصر .

هذا هو يسوع بريشة جبران . وهو اول ما يقع بصرك عليه في كتابه
الجديد « يسوع ابن الانسان » ذاك ما رأيته فيه . ولعلك ترى غير ما رأيته
او عكس ما رأيته .

اما يسوع من قلم جبران فلن تحظى به في صفحة او صفحتين . بل نتناول
صفاته الحسية والروحية من سبعة وسبعين فماً (وفم جبران احدها) . بينها فم
الثلמיד وفم الجار وفم الصديق وفم العدو . فم العالق بالارض . وفم الطامح الى
السماء . فم جبران يحدثك عن يسوعه بالسنة معاصريه . بعضهم مذكور في
الانجيل وبعضهم اختلقتهم مخيلة المؤلف

وعند ما تشبع نفسك . وتشف اذنك باقوال هؤلاء كلهم -
واقوالهم منسقة بقلم جبران فهي قصائد منشورة - قابل بين يسوع الذي
انطبع في خيالك من مطالعة سطور الانجيل القليلة ويسوع الذي علق
بذهنك من السنة معاصريه كما انطقها جبران . تر ان بين الاثنين فرقاً
ليس طفيفاً

يسوع الانجيل ولد في بيت لحم من عذراء . اما يسوع جبران فولد
في الناصرة من رجل وامرأة

يسوع الانجيل يبكي ويتألم . اما يسوع جبران فيضحك . وهو فوق
الدموع والألم

يسوع الانجيل يطوب المساكين بالروح والفقراء . اما يسوع جبران
فلا يعرف مسكنة ولا يرى غبطة في الفقر

يسوع الانجيل ادرك منتهى الرفعة الروحية لذلك كان « وديعاً
ومتواضع القلب » . اما يسوع جبران فلا دعة فيه ولا تواضع

يسوع الانجيل لا ينجل من ان يهتف على الصليب « الهى . الهى . لماذا
تركته ؟ » لانه لم يكن قد تغلب بعد على كل ضعف في بشرته . اما
يسوع جبران فلا ضعف فيه . او انه ينجل من اظهار ضعفه فيهتف
« لماذا تركتنا »

ولعلك تذهل . مثلما ذهلت انا عند ما ابتادى في قراءة الكتاب فترى
ن المؤلف رغبة في اظهار شخصية يسوع كما يراها بعين روحه . يحيىك
بانجيل يكاد يكون جديداً لولا انه يتقيد ببعض حوادث الانجيل واشخاصه
وهيكل اقواله . فهو يأتيك بموعظة على الجبل من فم متى منسوجة على
نسق الموعظة الانجيلية الشهيرة لكنها تغايرها مبنى وروحاً . ويسرد بعضاً

من عجائب يسوع وحوادث حياته واقواله . فيسقط منها او يضيف اليها طبقاً لما يتصور انه كان من واجب الانجيليين ان يسقطوه او يضيفوه
لعل لجبران عذراً في ذلك . فهو لا يكتب كموترخ . لانه لم يكن
موترخاً ولن يكون . بل هو الشاعر والفنان اولاً وآخرأ . لقد تلجم قلم
الموترخ اما خيال الشاعر وريشة الفنان فكيف وبماذا تلجمهما ؟ ومن ثم
جبران يكتب عن يسوعه بقلب طامخ بالاعجاب والمحبة والعبادة . فهو في
نظره مثل البشرية الاعلى واقصى محجاتها

مع ذلك اقول ان جبران كان في غنى عن التصدي لما جاء في الانجيل
وتحريفه او التصرف به . فقد ورد في آخر انجيل يوحنا ان هناك « اشياء
أخر كثيرة صنعها يسوع لو انها كتبت واحدة فواحدة لما ظننت ان العالم
نفسه يسع الصحف المكتوبة » . اليس ان في هذه الاشياء التي لم تدون
مجالاً واسعاً لخيال نخيال جبران ؟ فليخترق من الحوادث ما اراد . ولينظم
من المواعظ ما شاء وشاء رب الهامه

اما ما دُون في الانجيل فلسبب قد دون بتلك الالفاظ لا بغيرها .
ولسبب قد احتفظت به البشرية باحرفه تسعة عشر قرناً . من ليس يفهمه
او يقبله كما هو فليقل في نفسه انه لم يُعطَ بعد فهمه بالتمام . ومن ليس يفهمه
الا اذا حرفه وتصرف به فهو في الواقع غير فاهم له . لنا ان نفسير الانجيل .
ولكل ان يصور لنفسه يسوعه . مثلاً يصور لنفسه ربه . لكن ليس لنا ان
ناخذ يسوعنا من الانجيل ومن ثم ان نحرف الانجيل لينطبق على يسوعنا
والان فلنعد الى جبران الشاعر المأخوذ بمجالي الروح في الكون لا سيما
باسمى مجاليها في البشرية — يسوع ابن الانسان
فما اجمل ما يقوله بلسان ملاخي الفلكي البابلي —

« في يسوع اجتمعت كل عناصر اجسادنا واحلامنا طبقاً للناموس .
وكل ما كان من قبله سابقاً لآوانه وجد فيه اوانه »

ثم اسمع تعليله الجميل لبعض عجائب الناصري —

« يقولون انه كان يعطي العميان بصراً . والمقعدين مقدرة على المشي .
وانه كان يخرج الشياطين من المجانين

قد لا يكون العمى الافكرة مظلمة يمكن التغلب عليها بفكرة
ملتبته . وقد لا يكون العضو المشلول الاسكوناً يمكن تنبيهه بالقوة
المتحركة . وقد يكون ان الشياطين — تلك العناصر القلقة في حياتنا —
تخرجهم منا ملائكة السلامة والطهارة »

وهناك ما يقوله بلسان اندراوس في قضية الزانية التي اطلقها يسوع
قائلاً — وانا لا ادينك —

« عجبت آتذ مما اذا كان (يسوع) قال ذاك للزانية لانه هو كذلك
لم يكن بغير خطيئة اما الآن فاعرف ان نقي القلب فقط يغفر العطش
الذي يقود صاحبه الى مياه آسنة »

ان جبران في كتابه الجديد . شأنه في كل كتبه . ينثر بسخاء جواهر
من التشايبه المبتكرة . وينقش رسوماً من الفن تقف عندها جذلاً مهلاً .
ولا بد لي من نقل بعضها —

« الريب ألم انسته وحشته انه والايمان توأمان »

« وعند الفجر بقيت واقفة بيننا (الكلام عن ام يسوع) كأنها علم
يخفق في فقر لا يجافل فيه »

« ستبقى المرأة ابدًا رحماً ومهداً وقط لن تكون رسماً »

« لا تمشي النساء الا مقودات بابنائهن »

« غسل يلاطس يديه ولا يزال يغسلهما . وحتى اليوم تحمل اورشليم الطست ورومة الابريق »

واليك بعضاً من الثقاريع الجبرانية . وجبران اذا ما قرع وانب وتبرم اتاك باقصى مقدرته البيانية . وكأنه في الكلام الاتي لا يدفع تهمة عن يسوع فحسب . بل عن نفسه كذلك . فقد قال البعض في يسوع انه لم يكن عالماً بما في نفسه . ولذلك كان مشوش الفكر :

« كم بومة لا تعرف من الاغاني غير ما شابه نعيها . انا وانت نعرف مشعوذي الكلام الذين لا يحترمون الاً من كان اكبر شعوذة منهم . هؤلاء هم الذين يحملون رؤوسهم في سلال الى السوق ويبيعونها ببول ثمن يعرض عليهم . نحن نعرف الاقزام المتحاملين على من تلس رؤوسهم السماء . ونعرف ما يقول العوسج عن السنديانه والارزة »

خذ كذلك هذه الفقرة من كلام يسوع ليهودا الاسخريوطي -
« مملكتي ليست من هذه الارض . وعرشي ليس قائماً على جماجم اسلافكم . اذا كنتم تطلبون غير مملكة الروح فخير لكم لو تركتموني هنا وانحدرتم الى مغاور موتاكم حيث رؤوس الامس المتوجة تعقد مجالسها في قبورها . ولعلها حتى اليوم تجود بالالقاب والمكارم على عظام اجدادكم »

كذلك تهكمه على الاغنياء بلسان واحد منهم . وعلى اولياء الامور والمحافظين على كل سلطة وتقليد بلسان قيافا . فهو يسود وجوههم بما يضعه من الكلام في افواههم .

ومن الغريب ان جبران يتناول بتهكمه حتى الرسول بولس . فهو

يكرهه ولا يعترف له بفضل . بل يعتقد انه افسد تعاليم الناصري بما ادخله
عليها من تعاليمه . وفي اعتقادي انها تهمة ظالمة

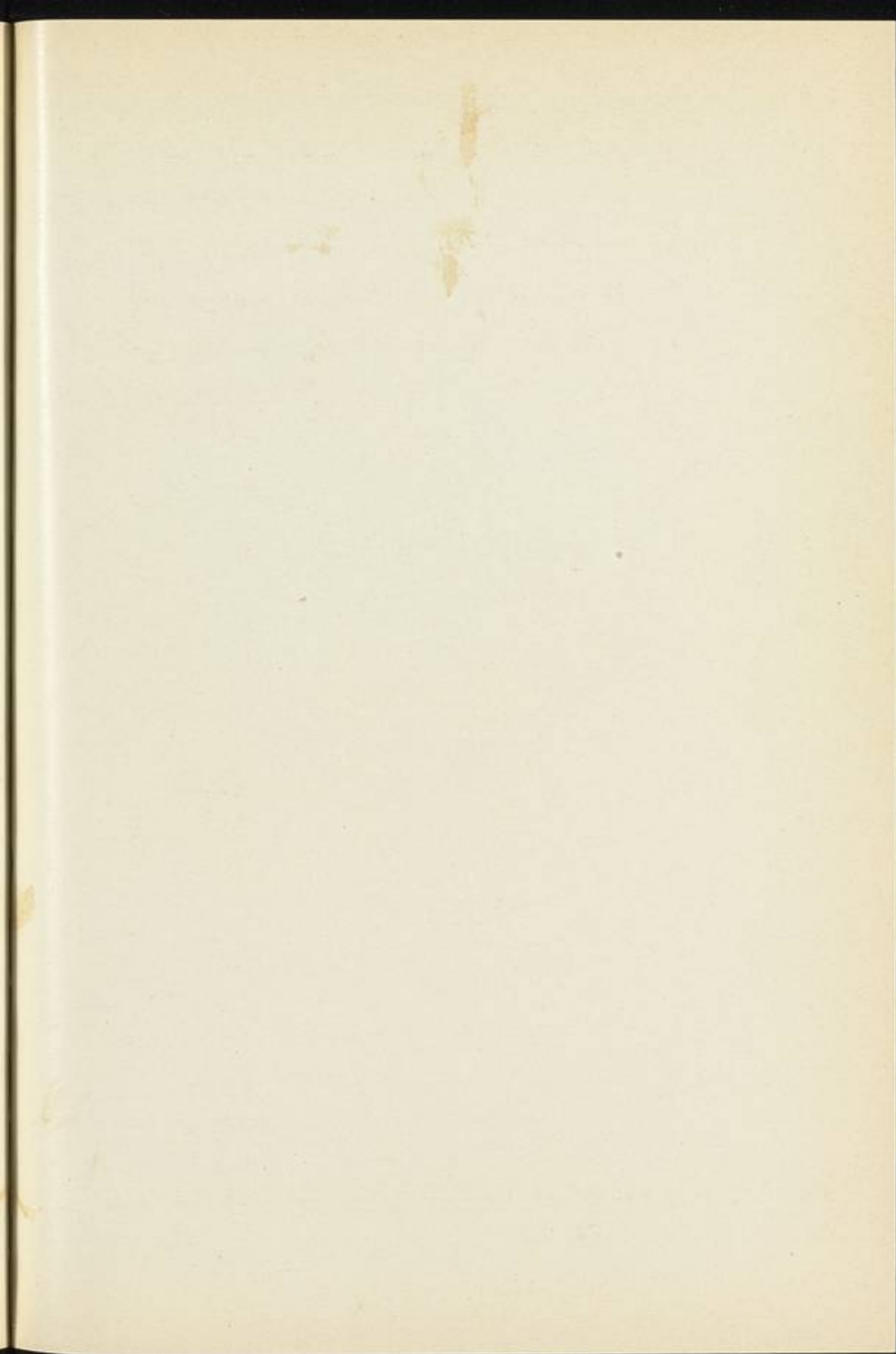
ليس ما ينقشه جبران بريشته اقل فعلاً في النفس مما يسطره بقلمه .
وهو كعادته في كتبه السابقة قد زين كتابه الجديد بطائفة من الرسوم نقف
امامها مستجلباً رموزها . ماخوذاً بتناسق خطوطها . منها وجه يسوع وقد
ذكرته . ووجه مريم المجدلية الذي تكاد نقرأ فيه ما قاله لها يسوع (حسب
رواية جبران) - « اما انا فاني ارى فيك جمالاً لن يذوي وعند ما تدرकिन
خريف ايامك لن يخشى ذلك الجمال من ان ينظر ذاته في المرأة . ولن
يهان »

هناك وجه لبطرس وآخر ليوحنا الحبيب . ورسوم اخرى رمزية
اذكر منها اثنين ملونين - احدهما يمثل انساناً راكعاً على سجادة وقد
احاطت به سلسلة حلقاتها اجسام بشرية . والاخر يمثل « شجرة الحياة »
جذورها بشر . وساقها بشري . واغصانها مجنحة واثمارها دانية . ان في
هذين الرسمين الواناً موسيقية . بل الحاناً ملونة . بل شعراً فياضاً

لقد قيل في نبي الجليل منذ بدا بكرازته حتى اليوم ما ليس يحصى .
فانكر البعض وجوده . والذين سلموا بوجوده رماه بعضهم بالشعوذة .
وبعضهم قال انه كان مخدوعاً . وجعله البعض الهاً . والاخر انساناً . والبعض
الهاً وانساناً معاً . ولعمري ان في ذلك دليلاً بيناً على ان هذا الرجل كان
مظهراً رائعاً من مظاهر الكونية الشاملة . فهو اكبر من ان ينحصر بين



مريم المجدلية
نقلاً عن « يسوع ابن الانسان »



دفتي كتاب . وليس يدخل « ملكوته » من فهم اقواله فحسب . بل من
عمل مشيئة « ابيه » الذي في السموات
على اننا . وان قصرنا عن العمل بمشيئة « الاب » نكفر بعض التكفير
عن تقصيرنا بكشف ما في وجداننا من الشوق والتعطش الى مجارة « ابنه »
وكتاب جبران الجديد هو المحرقة التي يقدمها قلبه لأخيه الاكبر « يسوع
ابن الانسان »

الصلح

قال بعضهم في الدنيا انها ان اقبلت بليت وان ادبرت برت . فهي مقبلة حين تراها مدبرة . ومدبرة حين تحسبها مقبلة . وجبران ، من بعد « النبي » و « يسوع ابن الانسان » ادبرت دنياه وهو يظنها مقبلة بحفاظها وبيارقها وطبلها وزمرها . فقد اخذ عدد المعجبين به يزداد من يوم الى يوم . واكثرهم من النساء . واتسعت موارد رزقه حتى ان صديقاً له من اصحاب المصارف اسمه ادغار سباير اخذ يهتم « بتوظيف » امواله . واقبل البعض على ترجمة كتابه « النبي » الى لغات اجنبية . وعرضت عليه شركة ان يتجول في البلاد ويقرأ من كتاباته في مختلف الاندية . ونقل اخته من بيت قديم في حي الصينيين في بوسطن الى بيت جديد ابتاعه في ضاحية جميلة من ضواحي المدينة . واقام له اخوانه في نيويورك مأدبة تكريمية احتفلوا فيها بيوبيله الفضي . واصبح لا يكاد يمر به يوم الا جاءه البريد او التلفون بشهادة اعجاب او تقدير من اناس يعرفهم واناس يجهلهم ما بين اعراب واعجم . فقد قال لي مرة بفخر كلي ، متظاهراً بعدم الاكتراث الكلي ، ان ملكة رومانيا السابقة - ماري - كتبت الى احدى صديقاتها في نيويورك التي كانت قد اهدت اليها نسخة من « النبي » تقول انها طالعت الكتاب بلذة فائقة ، وتكلف صديقتها اهداء سلامها الى المؤلف . واطلعتني مرة على رسالة من رئيس كلية في ولاية كولورادو يستأذنه فيها بحفر آية صغيرة من آيات « النبي » على الجرس الكبير من سلسلة اجراس صداحة (Chimes) في

قبة كايلاً المدرسة . اما الاية فهذه : « ما اليوم الا ذكرى الامس . ولا
الغد الا حلم اليوم » .

لكن للدنيا شوئناً مع الذين يركنون اليها هي اشبه بشوؤن الهرّ مع
فأرة يلاعها . فهي اقرب ما تكون من الهلاك عند ما يطلق الهر سبيلها
فتحسب انها نجت . ثم لا تلبث ان تجد ذاتها بين شذقي الهر .

لعل افزع الفقر فقر يعضك بانياب من ماس في لثة من ذهب . وأشد
الضنك ضنك يرفل بالحز والبرفير . واقسى الوحدة وحدة تخاطبك باللسنة
المعجيين والمكرّمين . وجبران ، من بعد ان تفتقت الاكلام عن الكثير من
احلام صباه وشبابه ، فتغلب على الفاقة ، واتسعت دنياه ، وكثر مكرموه
والمعجبون به أحس بفقر احد نأباً من الفقر الذي عرفه من قبل . وبضيق اشد
وطأة من الضيق الذي كان فيه . وبوحدة اقصى ملامس من تلك التي كانت
تساور ايامه ولياليه . فقد افر قلبه من الحب في حين ان النساء كنّ يحمن
حوله حوم الفراش حول السراج . والشهرة وما فيها من بخور الاعجاب
والتكريم قد تخدر القلب يوماً — قد تخدره شهراً — لكنها لا تطفي
عطشه ، ولا تسكن جوعه ، ولا تؤنس وحشته اذا ما افاق من تخديره في
سكينة الليل وضوء النهار . فكيف به اذا كان قلب شاعر وقلب فنان
وكان ، علاوة على ذلك ، قلباً عليلاً في صدر عليل ؟

لقد ظل جبران اعواماً يماطل الداء والداء يماطله ، وهو يحسبه رجفة في
القلب تزول بالحماية والوقاية . لكنها ما كانت لتزول . بل كانت كلما تقادم
بها العهد تكاثرت نوباتها ، وتنوعت اشكالها ، وتصلبت اوجاعها . فكانت
تارة تفتك في مفاصله فيظنها النقرس . واخرى في اجهزة التنفس فيخالها نزلة
قوية . وطوراً تشد على قلبه باصابع من حديد فيحسبها علة في القلب .

والاطباء كانوا يصفون له المداواة حيناً بالحماية والراحة وآخر بالكهرباء
وحيناً بالراديوم وحياناً بالعقاقير . فكان يتداوى بكل ذلك . وكان المرض
يهدنه بين النوبة والنوبة هدناً متفاوتة المدى . فتنتعش قواه ، وتجدد آماله ،
وتبرأ همته من فتورها ، فيعود في الحال الى قلبه وريشته ليقتنص الخيالات
والافكار التي كانت تحاصره في سريرته ، وتجالسه وتماشيه في مجالس الناس
ومعابهم .

واخيراً كشفت « الاشعة » لجران مكن الداء في احشائه . فكتمه
عني وعن كل اصحابه . ولو كان بإمكانه لكتمه حتى عن نفسه . وأشار
عليه طبيب في بوسطن باجراء عملية جراحية . فامثل لشارته . واستعد
لاقتبال القدر المحتوم في الميعاد الذي ضربه له الطبيب . وارتدى ثيابه وخرج
من بيت اخته قاصداً المستشفى . لكنه ما بلغ اسفل الدرج حتى عاد وقال
انه قد عدل عن عزمه . فلتفعل الاقدار ما تشاء . وكان في عدوله
صلابة ، وفي استسلامه عتو . فهو لم يتذمر قط من مرضه ، ولم يشك
دهره ، ولم يقنط من حياته ، ولم يشل الوجع يده ، ولا كبل خوف الموت
خياله

الا انه عند ما عاد الى « حديقة النبي » ليخبر عما فيها وجدها غير ما كان
قد تخيلها . فقد رآها من قبل بعين خياله حديقة تأخت فيها النبتة والحشرة ،
واندغم النور بالظلمة ، واستوى الانسان والحيوان في ميزان الوجدانية
الصمدانية . فكانت كلها جمالاً وسلاماً ومحبة . ذلك في الفترات التي كان
فيها صافي الذهن ، قرير الفكر ، وفي هدنة مع الالم . وقد صور بعض ما
رآه منها في بضع صفحات لم تنشر بعد . اما الآن ، وقد توالى عليه غارات
الوجع فاصبح كيفما تفقد تلك الحديقة رأى الالم يعيث في غرسها . ويعكر

صفاء جوها ، ويفسد سلامها . قال عنها وهو يمني نفسه بالعودة اليها حالما تعود اليه نشوته الروحية التي عرفها في « النبي » . لكن تلك النشوة لم تعد . وهو مع ذلك لا ينفك يكتب ويصور

كم مرة في تلك الاثناء لاذ جبران بقلمه من الألم ، فسمع قلبه يهتف اليه : دعني وشأني وعد الى قلبك . ففيه وحده نور الهداية والخلاص : - « طوبى للانقياء القلوب فانهم يعاينون الله ! »

وكم مرة عاد الى قلبه فهتف اليه قلبه : « الراحمة يا جبران . كم شكوت اليك الجوع فاطعمتني ما ليس يُشبع . والعطش فسقيتني ما ليس يُروي . وها انا ما ازال جائعاً الى طعام لا يبلى ، وعطشاً الى شراب لا ينفد . وها انا في خلوة هذه الصومعة اتكوى بالاجوع ولا قلب يخفف اوجاعي . ولا عين تسهر فوقى . ولا يد تجس انباضي . »

ذات يوم تسلم جبران رسالة اعجاب وتقدير من فتاة ما كان يعرف عنها شيئاً . لكنه أنس في رسالتها روحاً تفوق باخلاصها ، وجمالها وشدة شغفها بما هو خلف المحسوسات كل ما جاءه من رسائل الاعجاب والتقدير . وكان في الرسالة عنوان الفتاة ورقم تلفونها . فاخذ في الحال التلفون وخطبها وشكر لها جميل رسالتها . وعند ما ابدت رغبة في زيارته رحب بها كل الترحيب . فزارته ، وكانت لم تقرأ من كتبه الا « النبي » . ولسان يتعثر بشتى الانفعالات ، ولكن بروح نفيض حماسة وطمارة ، راحت تصف له تأثير الكتاب في نفسها وكيف انها لاقت فيه اقوى نصير لافكارها واوفى صديق لاشواقها ومعتقداتها . وانصرفت من عنده ثمل بخمر حديثه ، وكأنها وجدت فيه الكمال الروحي في جسد بشري .

وتلت تلك الزيارة زيارات . وكان جبران قد اجذب قلبه من الحب واخذ يشعر بحاجة الى امرأة تقاسمه حلول الحياة ومرها . فقد كان قبل ان اشتد به المرض يخشى على عزله من ان تعبت بها امرأة او رجل . وعزله كانت مبعث الهامة ومهد مواليد فكره وخياله . اما بعد ان ثقلت عليه وطأة الداء فاصبح يخشى العزلة في المرض والمرض في العزلة . وكان اذا ما عرض امام نفسه كل النساء المقربات منه لا يجد بينهن واحدة تطمئن اليها روحه الا ماري هاسكل . وماري فاتحتها مرة بامر الزواج فكان بينهما ما كان . وهي ما تزال كوكباً نيراً في سماء حياته الروحية . وماري قد تزوجت منذ سنوات من نسيب لها غني ، لكنه مسن ، في مدينة سافانا من ولاية جورجيا . وقد استشارته في زواجها فاشار عليها بالزواج وبارك ما فعلت .

والآن جاءت هذه الفتاة الغريبة . ايكون ان الحياة قد بعثت بها اليه لتؤنس وحشته ، وتخفف من اوجاعه ، وترافق اشواقه وآلامه ؟ ايكون انها الامراة « المكتوبة » له في سجلات الارض الغامضة ؟ كيفما كان الامر ، ها هي - شعاع دافئ وموئس . وهي صحيحة الجسم ، نشيطه ، وفي قلبها من الاخلاص له والتفاني في سبيله ما يقارب العبادة .

ولكن هي البشرة - وما اضعفها ! ولكن هي الشهوة - وما اقواها ! فقد نسي جبران هذه المرة كذلك بيته الجميل في « المواكب » :

« والحب ان قادت الاجسام موكبه

الى فراش من الاغراض ينتحر »

وكان عذره في ذلك لنفسه والفتاة : « تلك هي حياتي » . لكنه عذر ، ان كان مقبولا عند جبران ، لم يكن مقبولا عند الفتاة التي كانت روحها مشبعة بروح « النبي » والتي اخذت الندامة نهنش قلبها وتعضر فكرها . فاحست كأن جوهرة ثمينة كانت في يدها ونحولت الى تراب . او كأن الارض قد خسفت بها . فكتبت بعد ذلك الى جبران تبكته وتبكت نفسها وتندب ايماناً جميلاً طار من قلبها . فقد ظنت عند ما اهتدت الى صاحب « النبي » انها قد اهتدت الى مثل الرجل الاعلى ، الى الرجل الذي يكفر بجمال روحه وجمال حياته عن كل ما في ارواح الرجال وحياتهم من شناعة . الا انها وجدته كسائر الرجال . ووجدته يفعل غير ما يقول . ويقول غير ما يفعل . . في الحياة بعد ذلك ما يستحق الاعتبار ؟ اليس الايمان بالكمال وهماً والمحافظة على الطهارة ضرباً من البلادة ؟

لقد كان من تلك الرسالة انها دفعت جبران الدفعة القاضية على محاسبة نفسه المحاسبة الاخيرة وتعريتها من كل اكسية الغش التي تحوكلها الرغائب والمنى الارضية . واذ مثلت لديه نفسه عريانة اقبل عليها يغسلها بكل ما في وجدانه من ماء الحق ، ويضمخها بكل ما في روحه من عطر الجمال ، ويدفن عند قدميها اوزار حياته وزراً وزراً . فاحس كأنها كانت قصية عنه فدنت منه . وكانها كانت غريبة فاصبحت قريبة . وكانها كانت له خصماً فانقلب صديقاً . فعانقها وعانقته وعقد معها الصلح الذي كان ينشده كل حياته . وعندها استدعى اليه الفتاة واستغفرها وتوسل اليها ان تستعيد ايمانها بالحياة وجمالها . والا تدين الله بهفوة انسان ، وان يكن ذلك الانسان جبران

خايل جبران . وقال لها نظير ما قاله مرة للماري هاسكل : « تعالي نقطع الطريق سوية . »

وما كان يدري ، ولم يكن قد بقي من عمره الا بضعة شهور ، ان طريقه اوشكت تنتهي وانه سيقطعها وحيداً حتى آخر خطوة .

اسعة في الفهم

استسلم جبران لمشية الحياة . ولكنه ما كان يحسبه مستسلماً الموت .
فقد ظل يحارب حتى آخر نحب من انحابه . وكأني به كان يعتقد من كل
قلبه ما قاله لي في احدى رسائله الاخيرة :

« اما العلة فهي في مكان اعمق من الاعصاب والعظام . ولقد فكرت
مرات في ما اذا كانت علة او صحة . هي حالة يا ميسا ، صحة كانت ام
علة هو فصل من فصول حياتي ، وفي حياتك وحياتي شتاء وربيع ،
وانت وانا ، بالحقبة ، لا ندري ايها افضل . »

لذلك ، ولانه كان يكره كل مظاهر الضعف ، ما سمعته يوماً يقول
« آخ » او « اواه » . فقد كان يقضي الليل بعد الليل والنهار تلو النهار
يحارب وحده الوجد . فيندر ان يستدعي اليه صديقاً او صديقة الا اذا اشتد
عليه الالم او عضت الوحدة قلبه الى حد لا يطاق . ومما لا ريب فيه ايضاً ان
اعتقاده بقوة الالم المطهرة كان يدعم جميل صبره عليه

مرة - في اوائل سنة ١٩٣١ - خاطبته بالتلفون اسأله عن صحته .
فاجابني « تعال وانظر » . وعند ما دخلت عليه وجدته في فراشه ، وعلى
وجهه وفي حركاته علامات ضعف ما رأيتها فيه من قبل . الا انه طأن بالي
واكد لي ان ما ألم به لم يكن الا نزلة قوية . وانه قد تعافى منها او كاد .
فلتته اشد اللوم لتهامله في امر صحته . وقلت له ان بقاءه وحده في صومعته
اصبح ضرباً من المجازفة القريبة من الحماقة . فاما ان يرضى بي او بسواي من

اصحابه بنام عنده ويخدمه عند الحاجة ، واما ان يأتي باخته من بوسطن لتسكن معه . فاقنعني ان لا ضرورة الى شيء من ذلك . فزوجة حارس البناية تخدمه بكل امانة . اما اخته فالأفضل ان تبقى في بوسطن فلا تحمل من همه اكثر مما تحمل حيث هي . ومن ثم فلو جاء بها الى نيويورك لاضطر ان يفتح بيتاً آخر مع الاحتفاظ بالصومعة . وفي ذلك ما فيه من الاكلاف . وبالتالي فهو لا يرضى عن الصومعة بديلاً . ولا يفضل على تشويشها بيتاً مهما توافرت فيه معدات الراحة والرفاهية واكمل انقائه وترتيبه .

« ومارسركيس يا جبران - اما ان نفي بنذكرك له ؟ صدق انه لو كان بإمكانك لكيلتك الآن و « شحنتك » الى لبنان حتى في هذا النهار . ان بقاءك في هذه البلاد وانكبابك على الكتابة والتصوير في حالتك هذه هما الانتحار بعينه . »

« مارسركيس لا بد منه . وقريباً ان شاء الله . اما الكتابة والتصوير فلا معنى لحياتي بدونهما . وهما تعزيتي الوحيدة . واني لا عجب لك من بين كل الناس ، نهنيني عنهما . أأنت نهنيني عن الكتابة والتصوير يا ميسا ؟ أنت تقول مثل هذا القول ؟ اكاد لا اصدق اذني . انقضي اذن على الفن - انقضي على الشعر ؟ »

« ليس الفن ما نصوره ، ولا الشعر ما ننظمه يا جبران . بل الفن ان ندرك بارواحنا إلفة الحياة فنؤلف ما بين افكارنا ومنازعنا واقوالنا واعمالنا حتى لا يبقى فينا من نقیض يناهض نقیضاً . والشعر ان نجد لايماناً وزناً وليالينا قافية . وما دمنا تمر بنا حالات نتعصر لها قلوبنا ، وتعتم ابصارنا ، ويتحول الشهد في افواهنا علقماً ، والشدة في مفاصلنا رخاوة ، فما نفعنا من

صورة جميلة نرسمها او من قصيدة « عصماء » ننظمها ؟ انصور الجمال قبل ان
يصورنا الجمال ؟ أنلفظ الحق قبل ان يلفظنا الحق ؟ ونحن لو حيننا حياة جميلة
لما استطعنا ان نصور غير الجمال . واذ ذاك كنا في غنى عن التصوير . ونحن
لو كان الحق سلطان افكارنا لما استطعنا ان نفوه بغير الحق . وعندئذ كنا
في غنى عن الكرازة بالحق . »

« اليس يا ميثا اننا كلما صورنا الجمال اقتربنا من الجمال . وكلما نظمنا الحق
اتحدنا مع الحق ؟ ام انت تشاء ان تحتم الصمت على الفنانين والادباء ؟
والافصاح عن مكنونات النفس حاجة من حاجات النفس . »

« لا بد للنفس من ان تشع بمكنوناتها ، ومن تلقاء ذاتها . لكننا حالما
نحاول تصوير تلك المكنونات للناس نشوهها وننقلها الى غير حالها . فاما
نزيد فيها او ننقص منها . وكثيراً ما نستتر الذي نحسبه شنيعاً فيها ونبرز الذي
نعده جميلاً . والجمال الذي يحتاج الى بد تخرجه من بيت الشناعة ليس
جميلاً . والشناعة التي تسكن والجمال في بيت واحد ليست شنيعة . والانسان
الذي لا ينفك يغربل الكون ليفرز جميله عن شنيعه اخرى به ان يقول لرب
الكون : « لقد اسأت سياسة خلقك . وقد اخنلط عليك حقه وباطله . وجميله
وشنيعه . فانزل عن عرشك وانا اريك كيف اجمع الجليل من كونك الى
الجميل ، والشنيع الى الشنيع . والحق الى الحق ، والباطل الى الباطل . »
اوليس الله ابعد من جمالنا وشناعتنا ، وفوق حقنا وباطلنا ؟ »

« هو كذلك يا ميثا . هو كذلك . وقد يكون اننا نهتدي اليه
كلما حاولنا ان نقسمه فوجدناه لا ينقسم . وانا ما ازال اقول ان الفن ، وان
ميز بين الجمال والشناعة ، هو من اقرب السبل الى الله . اما التأمل المجت
الذي انت ترمي اليه فسيبل آخر . لكنه يؤدي الى الصمت و كتم سر النفس

ضمن النفس . والصمت اذهب من الكلام واصدق . انت محق في ذلك .
ولكن ستأتينا ساعة نصمت فيها . فلماذا نصمت قبل ان تدق الساعة ؟ هوذا
صاحبك لاوتسو لاذ بالصمت ولكن بعد ان اعطى الناس بالكلام خلاصة
ايمانه . سنصمت يا ميسا . سنصمت . ولكن لتكلم الان . واليك طائفة من
الكلام . اقرأها وقل لي رأيك فيها .»

ودفع جبران الي مخطوطة « آلهة الارض » وطلب الي ان اقرأها
بصوت عالٍ .

أخذت اقرأ ما يدي فاذا به قصيدة منشورة ذات ثلاثة اصوات
تمثل ثلاثة ارواح او آلهة . لكل منهم نزعة الخاصة ونظرته في الناس
وحياتهم . فالاول إله عبوس كئود ، ملّ الناس وسياسة الناس ، وملّ
جبروته والوهيته الى حد انه اصبح ينشد العدم :

« لقد سئمت روجي كل ما هو كائن . وانا اربأ يدي ان احر كها
لاخلق عالماً او لامحو عالماً . وانا اوثر الموت على الحياة لو كان في استطاعتي
ان اموت . فقد اثقلت كاهلي دهور لا تحصى . وانين البحور المستمر يسلبني
لذة النوم . »

والثاني اله يطيب له اللعب بالارض وما عليها من حياة . لا سيما بالانسان
وحياته . فيقول لرفيقه الاول انه ليس نظيره يطلب العدم . لكنه يختار
طريقاً اصعب من طريقه . وهي :

« ... ان ابعث الانسان من الظلمة الخفية واترك جذوره عالقة

بالارض

« ان اعطيه العطش الى الحياة واجعل ساقيه الموت . »

« ان امنحه الحب الذي ينمو بالالم ، ويتسامى بالشهوة ، ويزداد بالشوق ثم يذوي لدى اول قيلة .

« ان امنطق ليايله باحلام ايام مشعشة بالفرح ، والتحق ايامه بخيالات ليالٍ مترعة بالغبطة ، وان اعيد ليايله وايامه فتبقى ابدًا متشابهة .

« ان اجعل خياله كنسر الجبال ، وافكاره كعواصف البحار ، ومن ثم ان اعطيه يدين تترددان في العمل ، ورجلين يثقلهما التأمل .

« ان اعطيه الفرحة كيما يرغم لنا . والحزن كيما يضرع الينا . ومن ثم ان القمه الارض عند ما تصرخ الارض من جوعها طالبة طعامًا .

« ان ارفع نفسه فوق السماء كيما يذوق طعم غدنا . وان ادع جسده يتمرغ في حمأة الارض كيما ينسى امسه الدابر .»

اما الاله الثالث فيصني الى رفيقيه ، وبصره تائه في الوادي يرقب فتى وفتاة يرقصان للحب ويرنمان له . وفيهما يرسم كل سر الحياة . ولكنه عبثًا يحاول ان يجذب اليهما ابصار رفيقيه وافكارهما . فهما لا ينتبهان في البدء الى ما يقول . الا انه يفوز في النهاية فيستميل الاله الثاني الى رأيه بان الحب هو السر كل السر والحق الذي ما بعده حق . ويبقى الاول حائرًا ما بين النور والظلمة . ويختتم الاله الثالث المحاوره قائلاً في بعض ما يقوله :

« نحن سيكتنفنا الغسق . وقد نستيقظ لنرى فجر عالم غير هذا العالم . اما الحب فسيبقى ، واثار اصابعه لن تمحي الى الابد .»

كنت في قراءتي كلما وقفت عند عبارة بارعة ، او تشبيه بديع ، او

فكر جذاب انظر الى جبران فارى وجهه مشرقاً بنور كانه اذبال الشمس
عند المغيب وقد نشبت في غمامة . والغمامة هي ذلك الالم الذي انزلته به الحياة
وحاول ان يصفه بلسان الاله الثاني . ومع اني كنت منذ دقائق انبه عن
الكتابة ، لم يسعني الا ان ابدى له اعجابي باسلوب القصيدة النضر
وخياها الواسع . واسفي لانها من معدن غير معدن « النبي » الصافي
ولان نفسه التي كانت قد التأمت في « النبي » عادت فتشعبت في « آلهة
الارض » وانا اعلم في داخلي ان الالم كان مبعث التشعب . اما لساني فما كان
بطاوعني لافوه بذلك .

بعد ان انتهينا من قراءة القصيدة والتحدث فيها قام جبران من فراشه
وهو في ثياب النوم واخذ يعرض عليّ الرسوم التي اعدّها لها - وعددها اثنا
عشرة - فكلاد ينسني نفسه ونفسي والقصيدة التي ما برحت انغامها ترن في
اذني . فقد ادهشتني من تلك الرسوم - علاوة عما فيها من رشاقة وانسجام
والفة الوان - قوة كنت المحما في فن جبران ، ولكن ما رأيتها قط مجسمة
الى هذا الحد . وادهشني كيف ان كفة جبران الفنان اخذت ترجع على
كفة جبران الشاعر كلما تبادت بذاك وهذا السنون . فحين ان جبران الشاعر
لم يبقَ عنده ما يقوله من بعد « النبي » الا اعادة ما قاله ، كان جبران الفنان
يزداد براعة وجرأة وقوة في فنه

« كل هذه من شغل الصيف الماضي يا ميسا . فقد كان صيفاً
مثمراً . » - وبعد فترة من السكوت :

« ميسا . لقد ذكرتك في وصيتي . »

سقطت هذه الكلمات عليّ سقوط البرد من غمامة في الصيف . فاجفلت
من سكوتي وشعرت كأن قلبي تحول فجأة الى جرة من دموع . وكادت

الجرة تفرغ كل ما فيها من عيني لو لم يسد فوهتها خوفي على الجالس بجاني
ومعرفتي ان دمة من عيني في مثل تلك الساعة تنفجر لها ساقية دموع من
عينيه . فقلت له وفي صوتي غصة :

« ما كنت احب ان اسمع ذلك منك يا جبران لا اليوم ولا بعد اليوم .
فانت لو فتشت عن امر توصي لي به — من بعد عمر طويل — لما وجدت
اعز من نفسك . وتلك انا حاصل عليها من غير وصية . فانت معي في كل
حين مثلما انا معك في كل حين . »

بعد ذلك باسابيع اخبرت نسيب عريضة عما كان يني وبين جبران
بشأن وصيته فاجابني ان جبران قال له عين ما قاله لي : « لقد ذكرك في
وصيتي يا نسيب » . وعلى اثر وفاة جبران حدثني عبد المسيح حداد عن
زيارته له قبل وفاته باربعة ايام . قال :

« دخلت عليه وكان النهار ممطراً . وكان قد طلب اليّ ان آتية ببعض
الصحف العربية ليتسلى بها . فاخذت له رزمة كبيرة منها . وكان في فراشه
فنهض وجلس بجاني . للمرة الاولى سمعت الموت في صوته ورأته على
وجهه . غير اني حاولت مقدرتي الا اظهر له شيئاً مما سمعت ورأيت . تحدثنا
في امور كثيرة . ولكن اكثر حديثه كان عن « الرابطة » واخوانه فيها .
فقد اخذهم واحداً واحداً وراح يكشف فكره وقلبه نحو كل منهم كأنه
يقصد ان يجمعهم حواليه ولو بفكره وان يودعهم الوداع الاخير

وعند ما سألتني عن عائتي ذكر كل واحد من اولادي واعطاني بضعة
دولارات وكلفني ان اشتري بها طاقة من الزهر اقدمها كسلام منه الى
امهم . ثم التفت اليّ وقال : لا تخف على مستقبل اولادك يا عبد المسيح .

اذا مدَّ الله بعمرى فانا سأهتم بامر تعليمهم . والا فاني قد تركت لهم في وصيتي ما يكفيهم . ووصيتي في تلك الخزانة . « وأشار الى الخزانة الصغيرة بجانب سريره . »

ولكن لا عبد المسيح ولا نسيب ولا انا كنا نعرف مرض جبران الحقيقي . فكان يودعنا ونحن غافلون عن انه مودع . وكانت الاقدار تلملم خيوط حياته الارضية ونحن نحسبها ما تزال ماضية في نسجها .

الاحتضار

الغرغرة تغور في الصدر وبعد قرارها ، كأنها بقايا شريدة من عاصفة في قعر واد . والانات ثواهي وثقطن وتباعد . ومعاون الطبيب يحس النبض من حين الى حين في انتظار النبضة الاخيرة

وانا ، بجانب السرير ، افكر في القلب المحتضر امامي ودقاته من الاولى حتى الاخيرة — اين هي ؟ فيترأى لي ان في الفضاء حافظة تعي كل دقة من كل قلب ، وكل شهوة ، وكل فكر ، وكل عمل ، وكل طرفة عين ، وكل حلم ، وكل نبذة ، وكل نفس . وان كل انسان سيأتيه يوم نتمزق فيه اغشية الحس عن عينيه ، وتنفك عصائب الوهم عن اذنيه فيبصر ويسمع كل ما كان من امره منذ صدوره من مصدر الحياة حتى عودته اليه . بل يخيل اليّ ان تلك الحافظة كامنة في اعماق الانسان نفسه . وان الانسان ، من حيث لا يدري ، يحفر حياته فيها مثلما يحفر الصوت في صفيحة الفونوغراف . واذ كر قول يسوع « ليس خفي الا سيظهر » . فاحس برهبة الدينونة وعدلها وارى ان يوم الدين هو اليوم الذي نسمع فيه فونوغراف حياتنا يردد علينا كل ما كان منا على ممر الدهور . فاستغفر الحياة عن كل ما نسبته او ينسبها اليها الناس من جور وخشونة وقساوة . واقول لنفسني : مثلما تغنين بغنى لك . والذي تزرعين تحصدين . ما ظلت الا لانك ظلت . ولا توجعت الا لانك اوجعت . ولا بكيت الا لانك ابكيت . كما انت كذلك حياتك . والموت ؟ — انكون حافة السرير بجانبني الحد الذي ننتهي اليه حياة

من في السرير ؟ ايكون هذا السرير الصغير اوسع من الله الذي انبثقت
منه تلك الحياة ، فكانت ازلية مثله ، والذي يستحيل عليها ان تخرج عن نطاقه
فتبقى ابدية مثله ؟

وعلاقتي برفيقي ؟ - انقطع بانقطاع انجابه ؟ وافكارنا التي تقاربت
فتلاصقت في بعض مناحيها ، وروحانا اللذان تعارفا فتآخيا - انفصل بينها
وهذه الموت الى الابد ؟ اين هي القدرة التي في وسعها ان تحل حلقة واحدة
من سلسلة الزمان ونترك السلسلة مفككة مقطعة ؟ اليس ان علاقتي برفيقي
حلقة في تلك السلسلة ، فهي لا تنفك ما دام الزمان زماناً ؟ اليس كل حلقة
في سلسلة لا بدء لها ولا نهاية حلقة لا بدء لها ولا نهاية كتلك السلسلة ؟
اليس ان حلقتين متصلتين في مثل تلك السلسلة تبقيان كذلك الى الابد ،
فاذا ما اختفيتا في ناحية من نواحي الزمان برزتا في غيرها ، كالشمس تغيب
عنا في بقعة من الارض فتشرق في سواها ؟ لا . ليس على الارض ولا في
السماء قدرة تستطيع ان تفضم عروة مكنتها الحياة بين انسان وانسان ، او
بين شيء وشيء . وهل في الكون ذرة ليست مربوطة بكل ما في الكون ؟
رباه ما اوسعك ! رباه ما اجملك ! رباه ما اعدك ! وما اجهلنا نفصل
انفسنا عنك بكل ما نفعل ونقول ونفكر ونشتهي . فنشقي ، ونخزن ثم
ننتحب عند ما تضمنا اليك . وما اغباننا نحرق العمر طالبين معرفة غير معرفتك
وحقاً غير حقك ، وسلاماً غير سلامك . وما افقرنا نذخر من دنيانا كل
اصناف الزاد الا زاد المحبة الذي لا يفنى . وما اضعفنا نتحصن من هذه الساعة
بكل انواع الحصون الا حصن الايمان الذي لا يُدك . وما اشد عمانا نفقش
عنك في غير انفسنا !

ولكن ، لماذا كتب لي من بين كل رفاق جبران واخوانه ان اشهد

عراكه مع الموت وحدي ؟ لقد حاولت مراراً وبغير جدوى ان اتصل بالثلفون
بنسيب وعبد المسيح . فقد كان يجبهما محبة جمّة . فلاحاول مرة بعد
انهض عن كرسيّ فاسمع خارج الباب نجياً . وافتح الباب فاعرف
ان مريانا قد قدمت من بوسطن فور تسلمها برقية تستدعيها الى نيويورك . ولم
تكن حتى ذلك اليوم تعرف ان اخاها في خطر الموت . وارى النسوة يقدنّها
الى غرفة محاذية لغرفة اخيها . وهي تشفق بدموعها ، وتلتجب وتستغيث .
وكانت تعرفني عند ما زرت جبران مرة في بوسطن وتعرف الكثير عني من
جبران . فلا يقع نظرها علي حتى تتخفق بعبراتها مستجيبة بي كأن في قدرتي
رفع القدر المحتوم :

« دخليك ! اني اشمّ فيك رائحة جبران . دخليك ! انت اخوه واخي .
ايوت ؟ امات جبران ؟ دخليك انتر كه يموت ؟ ... »

اعود الى غرفة جبران وفي قلبي نجيب مثلاً في اذني . فاسمع الغرغرة
تكاد تلتاشي والانات يهبط قرارها حتى يكاد لا يسمع . فتهرب مني
افكاري ، وتشتت خيالاتي . وتساألني نفسي الف سؤال فاجيبها بالف لون
من الوان الصمت . وتختلط عليّ مشاعري فلا ادري أ احزن ام اتجلى . أأفرح
لانعتاق اخي من متاعب الارض ، ام انفجع لحياته المملأى بالعواصف
والخيالات والاشواق والاماني والاضلال والانوار فلم اذياها عن الارض قبل
ان تشبع من الارض او تشبع الارض منها . لكنني اشعر برهبة الساعة
وهيبة السر الذي نتمه الحياة امام عيني . وتخطر ببالي كلمات المصطفى للبحر :

« سيدور هذا الجدول دورة بعد . سيهمس بعد همسة في هذه الغاب .

ومن بعدها سأتيك قطرة لا تكد الى محيط لا يحد . »

وكلماته الاخيرة لاهل اورفليس :

« عما قليل ، بعد هجعة قصيرة على اجنحة الريح ، ستجبل بي امرأة
اخرى » .

وعند ما ينسل آخر نفس من صدر جبران ، نحو الساعة الحادية عشرة
من الليل ، احس بقوة تجذبي الى الارض . فاهبط على ركبتى بجانب السرير
وادفن وجهي في ثياب الملاء البيضاء عليه . ومن كل الاصوات التي نتسابق
الى اذني لا اسمع في داخلي الا صوتاً واحداً . اسمعه منقطع النبرات . وفي
بعض نبراته صلات قلب منسحق . وفي بعضها ترنيمة ايمان ظافر . هو صوت
داود النبي :

« ارحمني يا الله بحسب رحمتك وبحسب كثرة رافتك امح معاصي ...
اني في الاثم ولدت وفي الخطيئة حملت بي امي ... تنضحني بالزوفى فاطهر .
تغسلني فايبض اكثر من الثلج ... قلباً طاهراً اخلق فيّ يا الله وروحاً
مستقيماً جدد في داخلي ... »

وتعزني شبه غيبوبة افيق منها مخاطباً نبي الجليل ومردداً كلماته الوداعية
لتلاميذه :

« وها انا معكم كل الايام الى منتهى الدهر . »



ملک

=====

=====

=====

جثمان جبران

يحكي عن الفيلسوف الصيني تشوانغ تسو الذي عاش في القرن الرابع ق.م. انه ، عند ما كان على فراش الموت ، جاءه تلاميذه ليظلموه على رغبتهم في الاحتفال بدفنه احتفالاً باهراً . فقال لهم :

« ما دام لي من الارض نعش ومن السماء كفن ومن الشمس والقمر والنجوم اوسمة ، وما دامت الخليفة باسرها ستشيعني الى القبر — أو ليست كل معدات دفني جاهزة ؟ »

فردّ عليه تلاميذه : « لكننا نخشى كواسر الجو من ان تمزق جثمان معلمنا . » فكان جوابه لهم : « انا على التراب سأكون طعاماً للكواسر . وفي التراب سأكون طعاماً للدود . فلماذا تُنجيع تلك لنطعم هذه ؟ »
لكن « المدينة المنورة » تقاليد عمياء أنى لها ان تبصر حكمة تشوانغ تسو ! فهي تجلّ التراب من بعد ان تفارقه نسمة الحياة اكثر من اجلها اياه ونسمة الحياة ما تزال فيه . وكم خلقت للاحياء من متاعب فوق نكبتهم بموت امواتهم .

قضيت ما تبقى من ليلتي — بعد ان تركت المستشفى وشيعت مريانا ومن معها الى النزل — ولم يغمض لي جفن . وفي صباح اليوم التالي — السبت — قصدت محترف جبران فوجدت مريانا ومن كان معها قد سبقوني اليه . ورحت اهتم مع بعض الاصحاب باذاعة خبر الوفاة في الجرائد ، وبالتفتيش عن مخط ، وعن نعش ، وعن قاعة لائقة ومناسبة عند احد

الدفانين تعرض فيها الجثة . فقد رأينا ان يعرض الجثمان كل نهار الاحد في نيويورك ليودعه من شاء من الاصحاب والمجيبين قبل ان ننقله الى بوسطن . وهكذا كان . وتقاطر المودعون من سورين واميركيين ليلقوا النظرة الاخيرة على جبران وهو مسجى في نعشه المحفوف بالرياحين والازهار

في تلك الاثناء جاءني من يقول لي ان كاهن الكنيسة المارونية في نيويورك لا يرضى ان يعطي تصريحاً لكاهن الكنيسة المارونية في بوسطن بالصلاة على جثمان جبران . لانه زار جبران في المستشفى وعرف من الراهبة ما قاله لها عند ما سأله اذا كان كاثوليكياً ، ولم يتمكن من مخاطبته ليعرف ما اذا كان يرغب في الاعتراف ومناولة الاسرار الالهية بعد ان انقطع عنها نحو ثلاثين سنة . فقلت لمخبري - وكان مارونياً وذو نفوذ كبير في طائفته - ان يستعمل نفوذه مع الكاهن ليحصل على ورقة تصريح . لا اكراماً لجبران الذي لم يكن يحفل بمثل هذه الامور بل رحمة بشقيقته التي ما كانت تكف عن البكاء والنحيب دقيقة واحدة . فلم يجيب طلبي .

صباح الاثنين نقلنا الجثمان بالقطار الى بوسطن وقد رافقه غيري وغير مريانا ونسيبين من انسبائها عدد من اخوان جبران في الرابطة القلمية وسيدتان اميركيتان من اللواتي لقيتهن في المستشفى . وفي بوسطن بقي الجثمان مسجى في قاعة جمعية المساعدة للسيدات السوريات حتى صباح الثلاثاء . وهناك - في تلك القاعة - تعرفت بماري هاسكل التي قدمت من ساقانا البعيدة لتحضر الدفن . فرأيت الرصانة والبساطة والدعة ورحابة الصدر في كل ملامحها - حتى في ثيابها . ولم اقرأ في وجهها حزناً ولا سمعت في صوتها غصة . بل حدثني حينئذ - ومراراً بعدئذ - عن جبران كما لو كان ما يزال حياً .

وانا مدين لها بالكثير مما صورته في هذا الكتاب من علائق جبران معها
ومع ميشلين .

صباح الثلث نقل الجثمان الى كنيسة سيدة الارز المارونية . ومن بعد
الصلاة عليه سير به في موكب حافل الى المقبرة حيث اودع مدفناً مؤقتاً
ربما تفتح وصية جبران فترى اذا كان يبدي رغبة ما في امر دفنه اما في
اميركا او في لبنان .

بعد اشهر قرّر رأي مريانا ان تنقل جثمان اخيها الى لبنان الذي كان يحن
اليه حنيناً دائماً . فبلغ الجثمان بيروت في ٢١ آب (اغسطس) حيث جرى له
استقبال ما عرفت بيروت نظيره . وفي اليوم التالي سار في موكب رهيب
الى بلدته المحبوبة - بشري . وهناك استقر ، بعد مناورات كثيرة ، في
الخلوة التي كان جبران يمني نفسه ويميني بها - في مار سر كيس ، وقد توفّق
ذووه الى ابتياع ذلك الدير

زرت مار سر كيس في صيف سنة ١٩٣٢ . ولست اعرف ما يصف
جمال موقعه وهية سكنته ابلغ من الآية المخطوطة باللاتينية فوق بوابته
بأحرف تكاد العناصر تعبت بها :

OH BEATA SOLITUDO

OH SOLA BEATITUDO

ابتها الوحدة المغبوطة

ابتها الغبطة الوحيدة

وصية جبران

ان الوصية التي قال جبران لي ولنسيب عريضة ولعبد المسيح حداد وعدد من السيدات الامير كيات اللواتي عرفت منهن سبعة انه ذكرنا فيها لم يظهر لها اثر . اتراها ما برحت في ذمة جبران ؟ لا اظن ذلك قط . فجبران اخبرنا عنها كأمر ناجز . حتى انه دل عبد المسيح على الخزانة التي وضعها فيها . وما كان من داع له ان يذكرها قبل موته بثلاثة ايام الا رغبته في تثبيت وجودها . هي في ذمة الزمان ؟ هي في ذمة بعض الناس ؟ الله اعلم . اما الوصية التي ظهرت وتقدمت الى المحكمة فتاريخها في ١٣ اذار (مارس) سنة ١٩٣٠ ، اي قبل وفاة صاحبها بما يقارب السنة . وقد وجدت نسخة منها عند مريانا في بوسطن ، والاصل عند ادغار سباير في نيويورك . واليك ترجمتها :

« كل مالي من دراهم وسندات مالية عند المستر ادغار سباير ، الذي تلتطف واحتفظ لي بها ، اريد ان يكون بعد مماتي من نصيب شقيقتي ماري خ . جبران الساكنة حالياً تحت رقم ٧٦ شارع تيلر في مدينة بوسطن من ولاية ماساتشوستس .

هناك ايضاً ٤٠ (اربعون) حصة من حصص شركة بناية المحترف رقم ٥١ من الشارع العاشر غرباً وهي موجودة في صندوقتي للودائع في بنك منهاتان تروست كومباني ، رقم ٣١ يونيون سكوير ، مدينة نيويورك . وهذه الحصص اوصي بها لشقيقتي كذلك .

وهناك ، علاوة على ما تقدم ، دفتران للتوفير في وست سيد سايفينغس بنك ، رقم ٤٢٢ من الافينيو السادس في مدينة نيويورك . وهذان الدفتران

عندي في المحترف . وانا اريد من شقيقتي ان تأخذ هذا المال الى بلدي بشري
وننفقه هناك على الاحسان .

كذلك اوصي لبشري بربع كتبي التي ، حسبما اعرف ، يمكن ورثتي
ان يطلبوا تجديد الاحتفاظ بحقوق طبعها لثمان وعشرين سنة بعد مماتي .
كل ما هو في محترفي من رسوم وكتب و سلع فنية الخ اوصي به بعد
مماتي لمسنز ماري هاسكل مينس ، الساكنة حالياً تحت رقم ٢٤ شارع غاستون
في مدينة سافانا من ولاية جورجيا . لكنني ارغب الى مسنز مينس ، اذا هي
استنسبت ذلك ، ان تبعت بكل هذه الاشياء او يبعثها ، الى بلدي .

بلغ مجمل تركة جبران ٥٣٦١٩٦ دولاراً . اما قبل حلول الازمة وهبوط
اسعار العقارات والاسهم المالية فكانت ثروته تقدر بين الثمانين والتسعين ألفاً

رسائل جبران الى

لدي طائفة من رسائل جبران ما كنت لاغرضها على القارىء بكل ما فيها من شؤون خاصة الا لانها تكشف له نواحي كثيرة من نفسية جبران وحياته . وفي بعضها ما قد يجرح بعض الناس بصراحته . لكننا جراح تشفع بها سلامة النية . وكان من عادة جبران ، الا فيما ندر ، ان يعمل التاريخ في رسائله فيكتفي بذكر نهار الاسبوع دون الشهر والسنة . وذلك لان اكثر رسائله الي كان من بوسطن الى نيويورك . والبريد بين المدينتين يصل في ست او سبع ساعات . لكنني قد وضعت في اول كل رسالة مهمة من التاريخ السنة التي كتبت فيها مهتدياً اليها من مضمون الرسالة :

(من نيويورك الى والا والا ، واشنطن) في ٤ ايلول سنة ١٩١٩

عزيزي ميخائيل . سلام الله عليك وبعد فقد عدت من سفرتي المستطيلة واجتمعت باخينا نسيب وتحدثنا ملياً في شان احياء الفنون وفي السبل التي تضمن مستقبلها . ولقد اجتمعت وحادثت الكثيرين من ادباء ومتأدبي بوسطن ونيويورك في هذه المسألة فكانت تلك الاحاديث تبلغ نقطة واحدة وتقف عندها . اما النقطة فهي هذه : نسيب عريضة لا يستطيع ان يقوم وحده بالعمل ومن الواجب ان يعود ميخائيل نعيمة الى نيويورك ويشترك مع نسيب بوضع المشروع على اساس عملي امام ادباء نيويورك وتجارها لان ثقة هؤلاء تكون بوجود الاثنين ولن تكون بوجود الواحد . نيويورك عاصمة السوريين في المهجر ولميخائيل نعيمة تأثير على سوريي نيويورك . يجب اقامة حفلة كبيرة في نيويورك يرصد ريعها للمجلة ، وكيف ننجح الحفلة بما

تتناوله من خطب وموسيقى وتمثيل وتشجيع وترغيب والذي يجب ان يديرها ويرتبها موجود في واشنطن ؟ يجب تشكيل لجنة صغيرة للقيام بالعمل ويجب ان يكون امين صندوقها من المعروفين عند سوريني الداخلية الذين سيسألون نفوسهم الف سؤال وسؤال قبل ان يجيبوا على النشرة - ومن يا ترى غير مخائيل نعيمة يستطيع ان يشتغل بتشكيل هذه اللجنة

وهناك يا مخائيل امور كثيرة تبثدي وننتهي بك كلما فتحنا حديث مجلة الفنون . فاذا كنت تريد احياء المجلة عليك ان ترجع الى نيويورك وتكون « الزنبرك » وراء كل حركة لان نسبياً لا يستطيع ان يفعل شيئاً في الوقت الحاضر وليس في نيويورك من محبي « الفنون » ومريديها من يقدر ان يتخذ مسؤولية المشروع على عاتقه . انا اعتقد ان خمسة آلاف ريال تكفل مستقبل المجلة بيد انني اعتقد ان النشرة بدون الحفلة لا تجمع نصف هذه القيمة . الخلاصة - انه على وجودك في نيويورك بتوقف نجاح المشروع . واذا كان رجوعك الى نيويورك يستلزم التضحية بالتضحية في مثل هذه الظروف هي العزيز الموضوع على اقدام الاعز والمهم الموقوف على مذهب الالم . وعجدي ان الاعز في حياتك هو تحقيق احلامك ، والالم في حياتك هو استثمار مواهبك .

اكتب الي ان شئت والله يحفظك . لاختك جبران

(من بوسطن الى نيويورك) في ٢٤ ايار سنة ١٩٢٠

اخي مخائيل . سلام على روحك الطيبة وقلبك الكبير . وبعد فان الرابطة القلمية ستعقد اجتماعاً رسمياً مساء الغد (الاربعاء) اما انا فلسوء حظي ساكون بعيداً عنكم . ولولا محاضرة علي ان القيا مساء الخميس لرجعت

الى نيويورك كرامةً لعيني الرابطة القلمية ، فان حسبتم لقاء المحاضرة عذراً
شريعياً شكرت لكم كرمكم والثفاتكم ماذا والا فاني سادف الخمس ريات
(جزاء نقدي) بكل طيبة خاطر - وجبة مسك !

كانت هذه المدينة في الايام الغابرة تدعى مدينة العلوم والفنون اما
اليوم فهي مدينة التقاليد . اما نفوس سكانها فمتحجرة واما افكارهم فعتيقة
بالية . والغريب يا مخائيل ان المتحجر يشكبر ويتعجرف دائماً والعتيق البالي
يتبجح ويتشامخ ابداً . وكم مرة جالست احد اساتذة هارفرد وشعرت بانني
في حضرة شيخ من مشايخ الازهر ، وكم مرة حادثت سيدة بوسطونية
وسمعت من فهمها ورقبها ما كنت اسمعه من جهالة وبساطة عجائز سوريا .
الحياة كلها واحدة يا مخائيل ، ومظاهر الحياة في قرى لبنان مثلها في بوسطن
ونيو يرك وسان فرانسيسكو .

اذكر اسمي مشفوعاً بمودتي امام اخواني العمال في الرابطة القلمية والله
يحفظك عزيزاً لاختيك . جبران

(بوسطن - نيويورك) مساء الاربعاء (١٩٢٠)

اخي مخائيل . قرأت الساعة مقالتك في « العواصف » فماذا ياترى
اقول لك يا مخائيل ؟

لقد وضعت بين عينيك وصفحات كتابي مكبرة بلورية فظهرت اكبر
مما هي حقيقة - وهذا مما يجعلني ان اخجل من نفسي . لقد القيت بمقالتك
مسؤولية كبيرة على عاتقي فهل استطيع ان اقوم بها - هل استطيع تحقيق
الفكرة الاساسية في نظرياتك ؟ اتبينك منشئاً هذه المقالة النفيسة وانت
نظر الى مستقبلي لا الى ماضي - لان ماضي كان خيوطاً ولم يكن نسيجاً

كان حجارة مختلفة الحجم والصورة ولم يكن قط بناءً . اتبينك تنظر الى
بعين الامل لا بعين النقد فاندمل على الكثير من ماضي وفي الوقت نفسه احلم
بالمستقبل وفي نفسي حماسة جديدة ، فان كان هذا ما اردت ان تفعله بي ولي
عند ما كتبت نقدك فقد نجحت يا مخائيل .

قد استحسننت اوراق الرابطة « الى درجة قصوى غير انني ارى ان
الآية « لله كنوز تحت العرش الخ » يجب ان تكون ظاهرة بوضوح تام .
اما نشر اسماء الموظفين والاعضاء فلا بد منه اذا كنا نريد ايجاد التأثير
المعنوي المطلوب . وكل ناظر الى ورقة من اوراق « الرابطة » يسأل من
هم عمال الرابطة القليلة ؟ » ولكنني مع ذلك افضل ان ننشر الاسماء باصغر
احرف عريية موجودة .

بكل اسف يا مخائيل لا استطيع الرجوع الى نيويورك قبل منتصف
الاسبوع الاقي فانا مقيد ببعض المشاكل الحيوية في هذه المدينة المكروهة
ولولا هذه المشاكل لكنت ذهبت وشقيقتي الى البرية منذ اسبوعين فماذا
العمل ؟

اذهبوا الى ملفرد واملأوا كوؤوسكم من خمرة الروح وخمرة الغنب
ولكن لا تنسوا اخاكم ومحبكم المشتاق اليكم

جبران

(بوسطن — نيويورك) مساء الاربعاء (١٩٢٠)

يا اخي يا مخائيل . سلام عليك وعلى قلبك الكبير وروحك الطيبة .
وبعد فاني اريد ان اعرف كيف انت . واريد ان اعرف اين انت .
هل انت في غابة احلامك ام في مسارح افكارك ام على قمة ذلك الجبل

حيث تحول جميع الاحلام الى رؤيا واحدة وجميع الافكار الى ميل واحد ؟
اخبرني اين انت يا مخائيل .

اما انا فبين صحي المشوشة ومشيتة الناس بي اشبه شيء بآلة موسيقية
محلولة الاوتار في يد جبار يضرب عليها انغاماً غريبة خالية من الالفه والتناسب
(الله يساعدي يا مخائيل على هولا الامار كيين) الله يبعدني واياك عنهم الى
اودية لبنان الهادئة

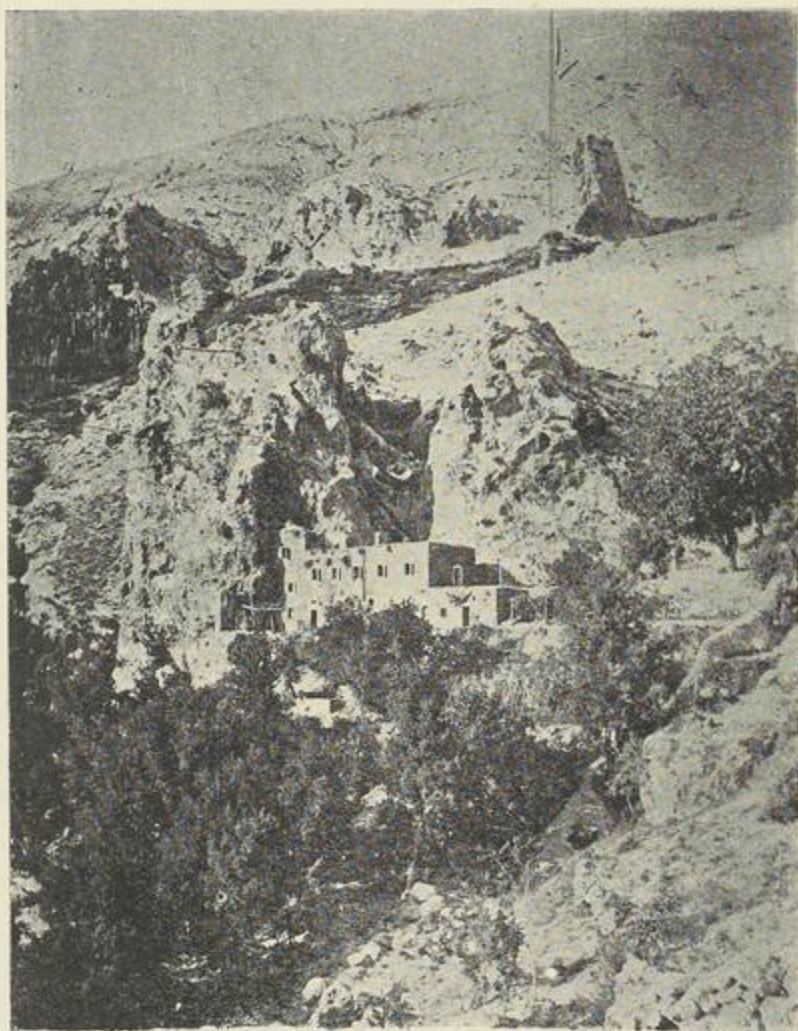
بعثت الساعة الى عبد المسيح بقطعة صغيرة للنشر . انظر فيها يا اخي
فان وجدتتها غير حربة بالنشر قل لعبد المسيح ان يحفظها في قرنة مظلمة حتى
رجوعي . هي كلمة كتبت بين نصف الليل والفجر وانا لا ادري ما اذا كانت
حسنة ام غير حسنة . اما الفكرة الاساسية فيها فليست بغريبة عن احاديثنا
في سهرائنا . واخبرني كيف نسيب واين نسيب . كلما فكرت بك وينسيب
شعرت بسلامة وطمانينة وهدوء بحري وقلت في سري « ليس تحت الشمس
شيء باطل »

والف تحية وسلام الى اخواننا بروح الحق . والله يحفظك ويحرسك
وبيقك اخاً عزيزاً لايخيك . جبران

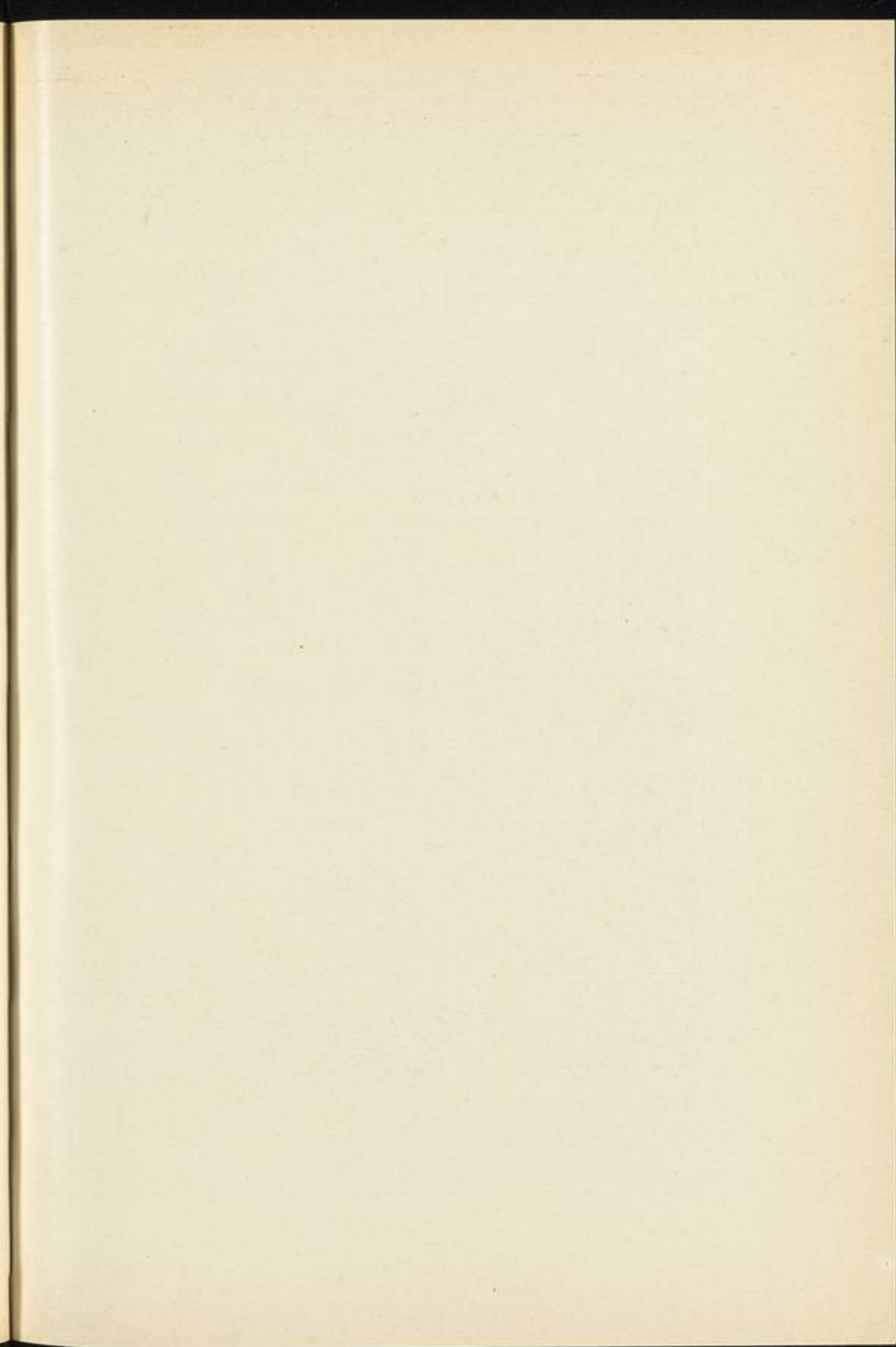
(فمت مرة برحلة قصيرة من قبل محل تجاري الى بعض الولايات المجاورة لنيويورك .
فكتب الي جبران في اثنائها الرسائل الثلاث التالية ، اما « المجموعة » التي يذكرها
فمجموعة الرابطة القلمية لسنة ١٩٢١)

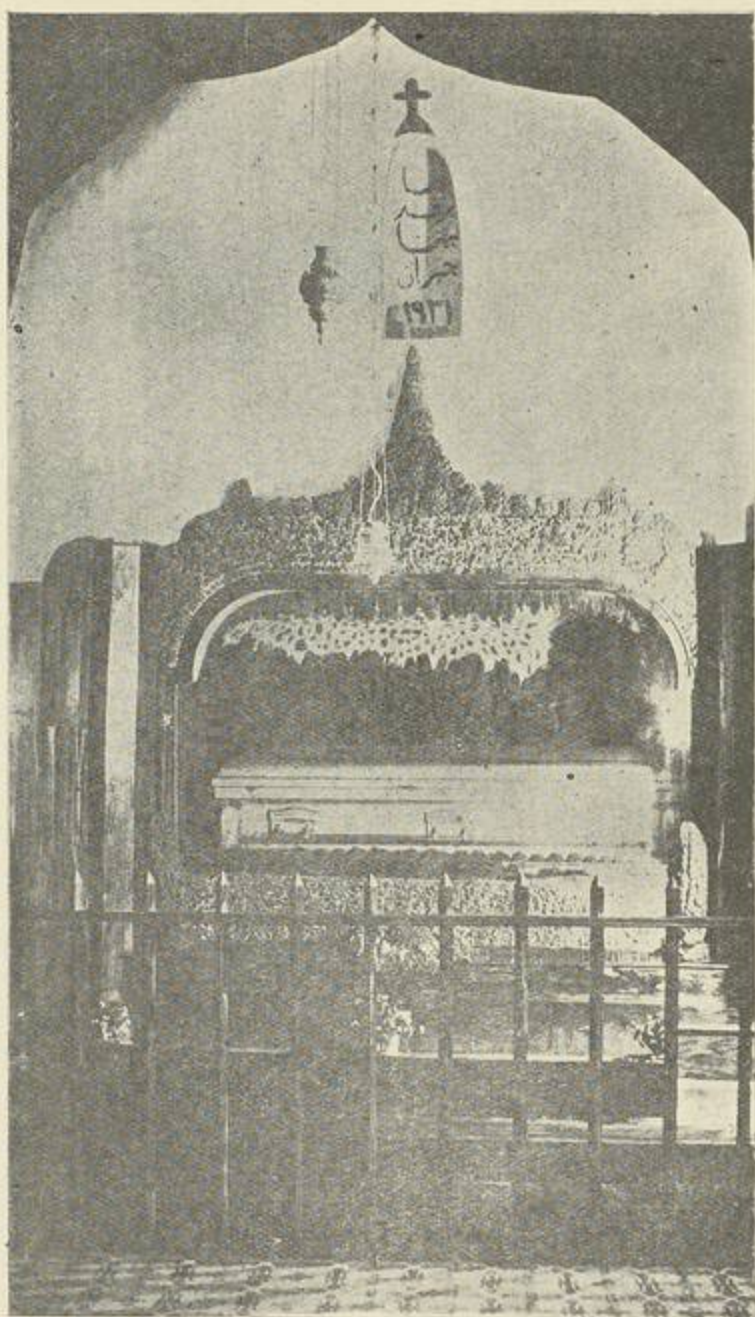
(عن نيويورك) في ٨ تشرين اول سنة ١٩٢٠

عزيزي مخائيل . كلما فكرت بك منجولاً في « الداخلية » كمثل
لبيت تجاري شعرت بنوع من الالم . غير انني اعلم ان هذا الالم هو من بقايا

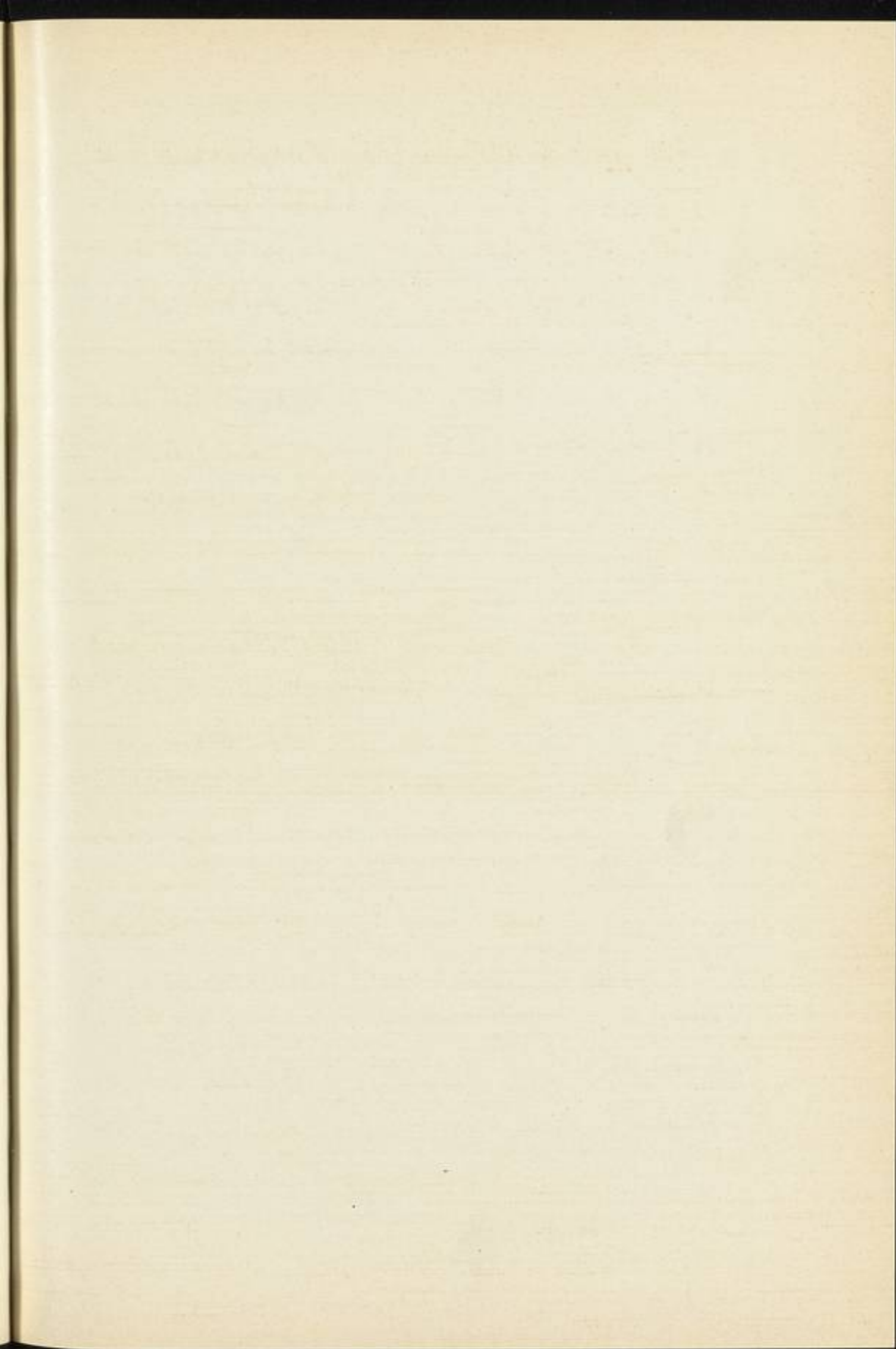


دير مار سرکيس





ضريح جبران في بازار سرکيس



الفلسفة القديمة فانا اليوم او من بالحياة وبكل ما تجلبه الحياة واحقق ان جميع ما آتي الايام والليالي حسنة وجيدة ونافعة .

قد اجتمعنا ليلة امس عند رشيد فشربنا واكنا وسمعنا الاغاني والقصائد

— ولكن ليلتنا لم تكن كاملة فانت لم تكن معنا بكلمتك !

اما مواد المجموعة فجاهزة بالروح ! ومرتبة بالكلام ! وكلما طلبت شيئاً

من احد اخواننا يقول لي « بعد يومين » او « في آخر هذا الاسبوع » او

« في الاسبوع الآتي » . ان فلسفة التسويف — وهي شرقية — تكاد

تختلج جلدني . والغريب يا مخائيل ان بعض الناس يحسبون الغنج والدلال

مظهرين من مظاهر الذكاء !

قد طلبت من نسيب بواسطة عبد المسيح ان يفتش علي « العاقر »

« ومذكرات الارقش » وهو فاعل ان شاء الله .

سررت بقولك انك لا تطيل الغربة . وربما كان الواجب عليّ الاّ

اكون مسروراً .

عد الينا يا ميشا عندما تشاء تجدنا مثلاً تشاء — والله يحفظك ويحرسك

لاخيك . جبران

(عن نيويورك) مساء الجمعة (١٩٢٠)

عزيزي ميشا . اسعد الله صباحك ايها التائه بين منازع الارض ومرامي

السماء . وبعد فقد سمعت صوتك منادياً « علي بضاعتك » في الاسواق

والساحات . سمعتك تقول بصوت عالٍ رخيماً « يا الله الخام — يا الله الشيت

والعنبر كيس » — ولقد استحسننت نعمة صوتك يا ميشا — وانا اعلم ان

الملائكة تسمعك وتدوّن مناداتك في الكتاب الابدي .

قد سررت « بتوفيقك الباهر » بيد انني اخاف من هذا التوفيق ! اخافه
واخشاه لانه قد يسير بك الى قلب العالم التجاري ومن يبلغ ذلك القلب يصعب
عليه الرجوع الى عالمنا ! !

سوف اجتمع الليلة بنسيب وعبد المسيح في هذه الصومعة ونبحث
ونتحدث بشأن « المجموعة » ويا ليتك معنا يا مخائيل - يا ليتك معنا .
انا في هذه الايام بين الف عمل وعمل مثل نحلة مريضة في حديقة ازهار
ما اكثر العسل وما اجمل اشعة الشمس على الازهار . ولكن النحلة مريضة
مشوشة . صلّ من اجلي واكتسب اجري واسلم اخاً عزيزاً . لجبران

(عن نيوبورك) مساء الاثنين (١٩٢٠)

عزيزي ميشا ، قد صرنا مشتاقين اليك وانت لم تزل مودعاً ، فماذا
يجلّ بنا اذا ما غبت عنا ثلاثة اسابيع ؟
« المجموعة » « وما ادراك ما المجموعة » - هي سلسلة حلقاتها مصنوعة
من التسوية والتردد . وكلما قلت كلمة لنسيب او لعبد المسيح بخصوص
المجموعة يقول لي الاول « غداً » اما الثاني فيجيب « الحق معك » ! ولكن
قهرأ عن التسوية والتفرير^(١) فالمجموعة ستصدر في نهاية العام ان شاء الله
اكتب اليّ عند ما لا يكون لديك ما هو افضل من الكتابة اليّ .
واذا كانت قصيدتك الجديدة قد بلغت حدّ الكمال فابعث اليّ بنسخة منها .
لم تعطني نسخة من « ايها الساقى » فليساحبك الله . كن كيفما شئت تبقى اخاً
عزيزاً لاختيك . جبران

(١) هذه كلمة جديدة في اللغة العربية (التعليق لجبران)

(بوسطن - نيويورك) مساء الجمعة (١٩٢١)

عزيزي ميسا . اسعد الله صباحك ومساءك وغمر الله ايامك بالاناشيد
ولياليك بالاحلام . وبعد فاني باعث اليك طيه برسالة حسنة وحوالة احسن
من احد انصار الرابطة ، فهلا اجبت على الاولى بما نعهده بك من سلامة
الذوق ودقة البيان ، ونفضلت وقبلت الثانية بخوراً محروفاً وزيتاً مهروقاً ؟
لعلك فاعل ان شاء الله !

نقول لي انك قد اوغزت الى جورج^(١) ان يبعث اليّ بمجلة وجريدة
اسبانينين اما جورج فلان لم يفعل . سامح الله جورج . ورقع الله ذاكرة
جورج بخيوط صبري وتجليدي ! يبدو لي يا اخا الصفا ان جورج قد رمى
بجمهورية تشيلي الى سلة المهملات !

البرد في بوسطن هائل فقد تجمد كل شيء حتى افكار البشر ولكن
رغم البرد والريح القاصفة العاصفة فانا في صحة ورغد عيش . اما صوتي
(اوزعقتي) فاشبه شيء بثورة بركان ! واما لبطني فمثل نيزك هبط من السماء
ففغرت له الارض حنكها ! واما معدتي فمطحنة رحاها الادني مبرد ورحاها
الاعلى لسان ثرثار ! فالرجاء بان تكون بزعتك ولبطنك ومعدتك مثلاً
تشاء اينما تشاء عند ما تشاء . بلغ سلامي مشطراً ونمخساً ومذنبلاً بشوقي
ومحبيتي ودعائي الى اخوان الصفا والله يحفظك عزيزاً للجبران

(بوسطن - نيويورك) في اول كانون الثاني سنة ١٩٢١

اخي ميسا . اسعد الله صباحك - وكل سنة وانت بخير - واثقل الله
كرمك بالعنايد - وملاً الله يدرك بالغملة - وافعم الله جرأتك بالزيت

(١) كن كاتباً في ادارة السائح . والمجلة والمجريدة كان فيهما شيء عن جبران

والعسل والخمر — ووضع الله يدك على قلب الحياة لتشعر بنبضات قلب الحياة .

هذه اول رسالة اكثبها في السنة الجديدة — ولو كنت في نيويورك لطلبت اليك ان تصرف السهرة معاً في الصومعة الهادئة . ولكن ما ابعديني عن نيويورك وما ابعد الصومعة عني

كيف حالك ، وماذا تكتب ، وماذا تنظم ، وبماذا تفكر ؟ هل صار عدد السائح الممتاز على اهبة الصدور ام هي المطابع والآلات تتسارع عندما نريدها ان نتهامل ونتهامل عندما نريدها ان تتسارع ؟ انما الغرب آلة وكل شيء في الغرب رهن الدولار . نعم يا ميسا ، حتى وقصيدتك « هل تعلم الاشواك » هي رهن دوايب سلوم المكرزل !

لم تكن صحيحة حسنة في الاسبوع الغابر لذلك لم اكتب شيئاً جديداً ولكنني غربلت مقالة « الضائع » ودلكت الحشن فيها ثم بعثت بها الى الهلال اذكر اسمي يا ميسا امام رفاقنا مشفوعاً بمودتي وشوقي والله يحفظك عزيزاً لاختيك . جبران

(بوسطن — نيويورك) مساء الجمعة (١٩٢١)

عزيزي مخايل . سلام عليك وبعد تجد طيه رسالة باسم مستشار الرابطة القلمية من بشاره الخوري صاحب جريدة البرق . وهي كما تراها قصيرة لطيفة وتدل في الوقت نفسه على شيء من الالم في روح كاتبها — والالم دلالة حسنة .

ما ذا حلّ بالصور الشمسية التي اخذناها في كاهونسي ؟ الا فاعلموا انني اريد الحصول على نسخة من كل صورة . فان لم احصل على حقوقي رفعت

عليكم دعوتين ، واحدة في محكمة الصداقة والاخرى في ديوان احمد
باشا الجزائر .

واذكري يا ميسا اسمي مشفوعاً بمودتي امام اخواننا ورفاقنا والله يحفظك
عزيزاً لاختيك . جبران

(بوسطن - نيويورك) الاثنين (١٩٢١)

عزيزي ميسا . اليك رسالة لطيفة من اميل زبدان فانظر فيها ودير
امرها بالفكر الثاقب والرأي السديد شأنك في كل حالة وكل زمان وكل
مكان . الحرّ قتال في هذه المدينة مثله في جميع الاماكن المحيطة بهذه المدينة
فكيف حالكم في نيويورك وماذا تفعلون ؟

في قلبي يا ميسا صور واشباح تتمايل وتتمشى وتتهادى كالضباب ولكنتي
لا استطيع وضعها في قوالب من الالفاظ . ربما كان السكوت اجدر بي
حتى يعود هذا القلب الى ما كان عليه منذ سنة . ربما كان السكوت اولى بي
ولكن ما اصعب السكوت وما امره في فم رجل تعود الكلام والف الانعام
والف سلام لك وللأخوان الاحباء وابقاً اخاً عزيزاً لجبران

(كتبت اليه مرة بتاريخ ١٦ تموز سنة ١٩٢١ بادئاً رسالتي بهذه المداعبة :
« سلام على قلبك الدفاق ، وانفك البراق ، وعلى ما ابيض من شمعك وما اسود من
شعرك . وبعد فقد وافاني كتابك فسبب لك مني مسبة بدل المحبة لانه مقعضب حتى
الجفاء » فكان جوابه ما يلي :)

(بوسطن - نيويورك) مساء الخميس (١٩٢١)

عزيزي ميسا . والف سلام على قلبك الذي لا يدق ولا يرق ولا

ينخفق ولا يهرق . وبعد فانك تعبرني بما ايضاً من شعري وما اسودّ من شعري . وننكر اقتضاباً في مقالتي وسكوتاً عن حالي ، ثم نترجى الى السباب وتدخل فيه من باب الى باب ، فلا حول ولا !

اما انا فلا ارى بك عيباً ينكر ، فانت كامل بما قتم في صدغيك ، وغزر في قمة رأسك ، وفاض من شعرك ، وراق في نثرك ، فكأنك خلقت كما شئت وانت جنين ، وبلغت ما اردت وانت في المهد ، فاننا لله وانا اليه راجعون !

يعزّ عليّ ان اكون غائباً «وَمَدَّةٌ»^(١) نسيب حاضرة ، ولكن ما العمل وليس في «المدة» ما يمتد من بلد الى بلد . ومن نكد الدنيا ان يشبع قومٌ مما لذّ وطاب ، ويجوع قوم «حتى» الى نعمة الله ولا يحصلون على لقمة منها — كذا قضت الايام ما بين اهلها !

سررت بالحاح نسيب عليك بكتابة مقدمة مجموعة «الرابعة» ولا شك انك قد كتبت او ستكتب ما سيكون «عقداً في جيد» المجموعة «ونقشاً في معصمها» فلا زلت يا اخا العرب «درة في تاج الادب وكوناً ساطعاً في سمائها»

صحتي احسن مما كانت عليه منذ اسبوع . ولكن عليّ ان ابقى بدون شغل وبدون عمل وبدون فكر وعاطفة ثلاثة اشهر او اكثر قبل الحصول على العافية بتمامها . اقول يا ميسا ان الامتناع عن العمل اصعب عمل ، وان الرامة عند من تعود الشغل اقسى عقاب .

لقد قمت بالواجب عليّ نحو وليم كسفليس والمحتفلين بوداعه . وذلك

(١) «المدة» اكلة امتاز نسيب باعدادها . وهي من اللحم والخضرة واصناف التوابل وتطبخ في صينية بالفرن ونسيب كان طاهياً الاكبر ، لا سيما في زمان عزوبته

بارسال تلغراف الى وليم وآخر الى انطون سمعان جواباً على تلغراف يدعوني فيه الى نيويورك لحضور الحفلة .

والله يحفظك ويحفظ اخوانك اخواني ورفاقتك رفاقي واسلم عزيزاً
لاخيك : جبران

(بوسطن — نيويورك) الاحد (١٩٢١)

عزيزي ميسا . قد استحسنيت المقدمة جداً . ما قولك في ابدال
« اكلوني البراغيث » بمثل آخر من نوعه ؟ هذا سؤال لا انتقاد . بيد انني
اشعر ان بيت المعري يستدعي بكبره مثلاً كبيراً بتفاهته . اما « اكلوني
البراغيث » فمضحك ولكنه صغير حتى عند تلامذة المدارس فيجب ان لا نشرفه
باقامته عدواً « للحيوان المستحدث »

اقول ثانية انني اسأل ولا انتقد . اخوك جبران

(بوسطن — نيويورك) ١٩٢١

اخي ميسا . مذ جئت هذه المدينة وانا ائنقل من طبيب اختصاصي الى
طبيب اختصاصي ، ومن فحص دقيق الى فحص ادق . كل ذلك لان هذا
القلب قد فقد وزنه وقافته . وانت تعلم يا مخائيل ان وزن هذا « القلب » لم
يكن قط مطابقاً للاوزان وقافته لم تكن ابداً مماثلة للقوافي . ولما كان
العرض تابعاً للجوهر والظال للحقيقة كان من المقرر المحتوم ان تأتلف هذه
الكتلة في صدري مع ذلك الضباب المرتعش في الفضاء — ذلك الضباب
الذي ادعوه « انا » .

لا بأس يا ميسا ، فكل ما قدّر يكون . غير انني اشعر بانني لن اتروك

لحف هذا الجبل قبل طلوع الفجر . وسيلقي الفجر ثقاباً من النور والبهاء على كل شيء .

عند ما تركت نيورك لم اضع سيفي حقيبتي سوى « النبي » وبعض الملابس اما دفاتري العتيقة فما برحت في زوايا تلك الغرفة الصامتة ، فماذا ياترى افعل لارضيك وارضى « الرابطة الادبية » في دمشق ؟ من اوامر الاطباء الانصراف عن كل عمل عقلي ، ولكن اذا « رشحت » قريحتي بشيء في الاسبوعين القادمين فاني ساناوول اسفنجتي والنقط بها ما « ترشحه » قريحتي ماذا والا فعذري مقبول

لا ادري اي متى اعود الى نيوبورك . يقول لي الاطباء الا اعود حتى تعود الي عافيتي . ويقولون لي ان من « الواجب » عليّ الذهاب الى البرية والاستسلام الى الحياة البسيطة الخالية من كل فكر ومن كل قصد ومن كل منزع — اي انهم يطلبون مني ان اتحول الى ملفوف في بستان او الى نبتة طفيلية ! لذلك ارى من الموافق ان تبعثوا برسم الرابطة الى دمشق خالياً من سمحتي او ان تبعثوا الرسم القديم بعد ان تطلوا وجهي فيه بلطخة من الخبر . ولكن اذا كان لا بد من ان تظهر الرابطة النوير كية كاملة مكملة امام الرابطة الدمشقية فما قولك في ان يترجم نسب ، او عبدل ، او ميسا (اذا كان ذلك ممكناً) قطعة من « المجنون » او « السابق » ؟ هذا رأيي سقيم ، بل وقد يكون نقيضاً ، ولكن ما العمل يا مخائيل وانا في هذه الحالة ؟ ان من لا يستطيع خياطة ثوب جديد يعود فيرقع اثوابه العتيقة . أتعلم يا اخي ان هذه العلة قد حثمت عليّ بتأجيل نشر « النبي » الى زمن غير معلوم ؟ سوف اقرأ مقالك في « الديوان » بلذة فائقة ، وانا اعلم بانه سيكون عادلاً وجيلاً مثل كل شيء كتبته

اذكر اسمي امام اخواني عمال الرابطة . قل لهم ان محبتي لهم وانا في ضباب الليل ليست باقل منها في جلاء النهار . والله يحفظك ويحرسك ويبقيك اخاً عزيزاً . لجبران

(بوسطن — نيويورك) مساء الخميس (١٩٢١)

اخي ميشا . بعد ان قرأت آخر عدد من مجلة الرابطة الادبية ، وبعد ان استعرضت اعدادها الغابرة تيقنت ان بيننا وبينهم هوة عظيمة فلا منا اليهم ولا منهم الينا . مهما فعلنا يا مخائيل لا نستطيع ان نحررهم من عبودية القشور اللفظية . الحرية المعنوية تنبعث من الداخل ولا تأتي من الخارج . انت اعلم الناس بهذه الحقيقة ، فلا تحاول ايقاظ من انزل الله النوم على قلوبهم لحكمة خفية . افعل لهم ما شئت وابعث اليهم ما شئت ولكن لا تنس انك ستضع على وجه « رابطننا » نقاباً كثيفاً من الشبهة والشك . اذا كان لنا قوة فقوتنا في وحدتنا وانفرادنا . واذا كان لا بد من الاشتراك في العمل فلنشارك مع من يماثلنا ويقول قولنا . في عقيدتي ان عباس محمود العقاد — وهو فرد واحد — لا قرب بما لا يقاس من منازعنا ورغائبنا الادبية من كل ما ظهر وسيظهر من الرابطة الدمشقية . اما انا — انا كعامل في الرابطة القلمية اخضع واخضع بمسرة لصوت الاكثرية . ولكن انا كفر ولا اريد ولا اقدر الاتفاق على امر ادبي فني مع تلك الفئة الدمشقية التي تحاول غزل البرفير من مادة مخاطية .

قد تأثرت ، تأثرت جداً ، لما قلته لي عن سابا^(١) . ليتني كنت قادراً

(١) شقيق نسيب عريضة وقد الم به مرض دضال .

على خدمة هذا الشاب الودود بشيء من الاشياء . ولكن العين بصيرة
واليد قصيرة .

حسناً فعلت بوضعك شيئاً من الحماسة في روح رشيد وندره ونسيب .
اذا بقينا على هذه الحالة تبقى مجموعة الرابطة لسنة ١٩٢٣ او لسنة ١٩٢٤ في
جيبه من جيوب الاثير ! ابعثوا اليّ - غير مأمورين - بست نسخ من
المجموعة وقيدوا الثمن على حسابي او ابعثوا اليّ بكرديّ هو الله
صحتي يا ميسا افضل مما كانت عليه . وقد قال لي الاطباء انني ساعود
الى الحالة الاعتيادية اذا انصرفت ستة اشهر عن كل عمل وعن كل اجهاد ،
بل وعن كل شيء الا الاكل والشرب والراحة ! الله يساعدني يا ميسا !
اذن انت على شفاى الجنون . هذه بشارة جليّة بهولها هائلة بجلالها
وجمالها . اقول ان الجنون اول خطوة نحو التجرد الرباني . كن مجنوناً
يا ميسا . كن مجنوناً واخبرنا ما وراء نقاب « العقل » من الاسرار . ان
القصد من الحياة الاقتراب الى تلك الاسرار - وليس كالجنون مطية .
كن مجنوناً وابق اخاً مجنوناً لا خيك المجنون . جبران
« مركب سلام الى الاخوان »

اين مقاتلك في « الديوان »
لم ارها للآن فما حل بها ؟

(بوسطن - نيويورك) ١٩٢٢

اخي ميسا . لقد اثر بي ذهاب سبابا تأثيراً عظيماً هائلاً . انا اعلم انه
قد بلغ المحجة ، واعلم انه قد صار في مأمن مما نشكوه ، واعلم انه قد حصل
على ما اتمنى الحصول عليه كل يوم وكل ليلة . اني اعلم كل ذلك - ومن

الغربة ان علي لا يمحو هذه الغصة المتمايلة بين قلبي وحنجرتي . وما معنى هذه الغصة يا ترى ؟

لقد كان لسابا امان يريد تحقيقها . وكانت حصته من الآمال والاحلام تضارع حصّة كل واحد منا ، فهل في ذهابه قبل ان تزهو امانيه وقبل ان تثمر احلامه ما يولد الغصات في قلوبنا ؟ اليس حزني عليه — بالحقيقة — اسفي على حلم كان في شبابي فقضي شبابي قبل ان يتحقق حلمي ؟ اليس الحزن والانف واللوعة اشكال من الانانية البشرية ؟

يجب الا اعود الى نيويورك يا ميشا . قد حكم عليّ الطبيب بالانزواء والابتعاد عن المدن والمدينة . لذلك قد استأجرت كوخاً صغيراً قريباً من البحر وسأذهب اليه مع شقيقتي بعد يومين . وسأبقى هناك حتى يعود هذا القلب الى نظامه او يصير جزءاً من النظام الاعلى . غير انني ارجو ان اراك قبل انقضاء هذا الصيف . لا ادري كيف واين ومتى ولكن لا بد من ترتيب المسألة بصورة من الصور .

ان افكارك « الزهيدة » تشابه افكاري تماماً . منذر من بعيد وانا احلم بصومعة وحديقة صغيرة وعين ماء . انذ كر « يوسف الفخري » ؟ انذ كر افكاره السوداء ويقظته البيضاء ؟ انذ كر رأيه في المدينة والمتمدنين ؟

انذ كر يا ميشا ان المستنقعات في مدينة فائمة مع كثف رؤي
ن ادوية لبنان . ان حصن المدينة الغاشية قد شئت اوتار
روحنا حتى كادت تنقطع . فعلياً ان نزهن قبل ان تنقطع .
يمكن علينا ان نبقي جابرين متجدين حتى يدم الرحيل . علينا
ان نصبر يا ميشا .

اذكر اسمي امام الاخوان وقل لهم انني احبهم واتوق اليهم واعيش
بالفكر واياهم

والله يحفظك يا مبشاً ويحرسك ويبقيك لاخيك جبران
مساء الاربعاء

(بوسطن — نيويورك) مساء الخميس (شباط ١٩٢٢)

عزيزي مبشاً . لا نقل ان مناخ بوسطن قد طاب لي واني قد استسلمت
الى الراحة فنسيت نيويورك ، ورفاقي في نيويورك ، وما ينتظرنني من الاعمال
والواجبات في نيويورك . يعلم الله انني لم اصرف شهراً في غابر حياتي يماثل
الشهر الماضي بصعوباته ومصائبه ومشكلاته ومعضلاته . ولقد سألت نفسي
مرات ما اذا كانت « جنيتي » او « تابعتي » او « قربنتي » قد تحولت الى
عفريت يعاديني ويقاومني ويوصد الابواب امامي ويضع العثرات في سبيلي
منذ مجيئي الى هذه المدينة العوجاء وانا في حميم من الدنيويات ولولا شقيقتي
لتركت كل شيء وعدت الى صومعتي نافضاً غبار الدنيا عن قدمي

عندما استلمت برقيتك في هذا الصباح شعرت كمن يستيقظ من حلم
مزعج وبقيت هنيهة افكر واسترجع تلك الساعات اللذيذة التي صرفناها
معاً متحدثين عن الامور الروحية والفنية ونسيت انني في معمة وان فيالتي
في حالة حرجة ، ولكنني ما لبثت ان عدت فتذكرت مصائبي الغابرة والآتية
وتذكرت ان من الواجب عليّ البقاء هنا والقيام بوعودي وتحقيق مواعيدي
عليّ يا مخائيل ان اقرأ من كتاباتي مرتين في الاسبوع الآتي ، المرة الاولى
من الجنون والسابق والمرّة الثانية من النبي وذلك امام هيئة « معتبرة » من
يهمهم هذا النوع من الافكار وهذا الشكل من التعبير . غير ان الامور التي

ابقتني في هذه المدينة ، والتي تجبرني على البقاء عشرة ايام اخرى ، لا تتعلق
بما كتبت او بما قرأت او سأقرأ بل باشياء جامدة بليدة متعبة تملأ القلب
شوكاً وعلماً وثقبض على الروح بكف حديدية خشنة كالبرد .

لم انسَ قط ان يوم الاربعاء القادم هو موعد اجتماع الرابطة ولكن
ما العمل والعين بصيرة واليد قصيرة ؟ ارجو ان تجتمعوا وتقرروا ما فيه
فائدة وان تذكروني بكلمة حسنة فانا في هذه الايام بحاجة ماسة
الى تمنيات الاصدقاء وصلوات المتعبدين بل وانا بحاجة الى نظرة ملوّه في
عين مخلص .

سوف تبلغ هدية اخواننا في البرازيل البيت الابيض^(١) ، وسوف يشكر
لهم ولنس كرم اخلاقهم وحسن نواياهم ، سيتم كل ذلك بصورة جميلة لايقة
ثم تأتي موجة من بحر النسيان وتغمر المسألة من اولها الى آخرها . ولكن
محنة الفنون ما برحت نائمة والرابطة القلمية ما زالت فقيرة واخواننا في البرازيل
وفي الولايات المتحدة لا يذكرون تلك ولا يشعرون بوجود هذه ! ما اغرب
الناس يا ميسا وما اغربنا بين الناس .

سلام عليك يا اخي وسلام على رفاقنا . والله يحفظك عزيزاً
لاخيك . جبران

(بوسطن — نيويورك) ١٩٢٢

اخي الحبيب ميسا . ما اعذبك سائلاً عن عِلتي ، ويا ليتني قادراً علي
الاجابة بصورة صريحة ، فعلتي « يوم علينا ويوم لنا » غير انني اشعر اجمالاً

(١) هي الهدية التي قدمتها الجالية السورية في البرازيل الى الرئيس ولنس بواسطة لجنة من السوريين
في نيويورك . وقد كانت رئيس اللجنة التي قامت بتقديمها . م . ن .

بانتي احسن حالاً مما كنت عليه منذ عشرة ايام ، ولا اكتمك انتي قد
مللت عليّ ، وربما كان هذا الملل اهون السبل الى العافية .

اما بخصوص استكتاب عبد المسيح ادباء مصر فاقول انه سيفعل حسناً
— على انني ارجو ان تكون بضاعة المصريين « والمتصرين » احسن من
ذلك « الحرنوب » الذي جاءنا منذ عامين من دمشق . لو كنت صاحب
جريدة يا ميسا لاستكثبت قوالي المعنى والعشابي في لبنان ونشرت اقوالهم .
ولكن السائح لسان الرابطة القلمية ، لذلك لا يستطيع ان يحن السائح كما
يجن واحد منا .

خذها وعبد يسوع « تطييشة » هائلة على ظهري كما لانكما « انبل » من
ان تشتركا في « لعبة » يوم السبت — الله يساعدي ويساعدكما على يوم
السبت في ادارة السائح !

ساحول الرجوع الى نيويورك قبل نهاية هذا الاسبوع وسوف
اخاطبك بواسطة التلفون عند رجوعي فقد صرت مشتاقاً اليك والى كل
واحد من اخوانك واخواني والله بقيق يا ميسا اخاً محبوباً . لجبران

(بوسطن — نيويورك ١٩٢٣)

اخي الحبيب ميسا . اغفر لي سكوتي الطويل وساعدي بطلب المغفرة
من اخوانك اخواني . قال لي الاطباء في اوائل الصيف ان اهجر الكتابة
بكل اشكلها فامتثلت بعد صراع عنيف جرى بين ارادتي وارادة شقيقي
وبعض اصحابي . ولكن النتيجة قد جاءت حسنة فانا اليوم اقرب الى حالتي
القديمة من اي وقت في العامين المنصرمين . فالابتعاد عن المدينة والمعيشة
البسيطة الهادئة المرتبة ، وهواء البحر والغابات قد ابدل القلب المتفرض بقلب
يكاد لا يخفق واليد المرتعشة بيد تكتب اليك هذه السطور

سوف اعود الى نيويورك بعد اسبوعين او ثلاثة اسابيع وعند ذلك
اعرض نفسي امام اخواني فان رضوا عني عرفت حلمهم وان غضبوا عليّ
عرفت عدلهم . فالشحاذا لا يتعنت والمجرم لا يشترط
الف حمل سلام الى الجميع والله يحرسك وبيتيك لايخيك . جبران
هذه اول رسالة كتبها منذ ثلاثة اشهر

(نيويورك — الى الداخلية) مساء الاثنين (١٩٢٣)

عزيزي ميشا . اسعد الله مساءك — وبعد فاني ابشرك ان نسينا باقي
معنا وفينا ومنا الى ما شاء الله ، وسفره الى الارجتين اصبح اسطورة من
اساطير الاقدمين

لا لم تجتمع الرابطة في آخر اربعاء من هذا الشهر وذلك لسببين اولهما
غيابك عنا وثانيهما عدم وجود ما يدعو الى الاجتماع — واطن ان السبب
الاول كافٍ — وهو المولد للسبب الثاني

لقد سررت بقولك انك ستعود الينا يوم الخميس . لقد طال غيابك عنا
يا مخائيل وفي غيابك نتحول حلقتنا الى شيء سديمي ضبابي لا شكل لها
ولا صورة

لم يرق لي قولك « وعزرائيل بمخائيل » — في شرعي ان مخائيل اقوى
من عزرائيل ، فالاول له سلطة على الثاني ، اما الثاني فايس له سلطان على
الاول . ان في الاسماء سرّاً اعمق وأدق مما نتصور ، وفيها رموز ادلّ وأهم
مما نفكر ولقد كان مخائيل منذ البدء اكثر سطوة واشدّ بأساً من عزرائيل
الى اللقاء يا اخي — والله يحفظك عزيزاً . لجبران

(بوسطن - نيويورك) صباح الاحد ١١ آب ١٩٢٣

اخى العزيز ميسا . اسعد الله صباحك ، وبعد فقد سررت بصدور كتاب «الغربال» لكنني ، ولا اكتمك ، لم يرق لديّ صدوره في هذا الفصل من السنة - هذا مع علمي ان قيمة الكتاب ، وهو وحيد من نوعه ، لا تُقيد بفصل من الفصول بل ولا بعقد من العقود . . . لا بأس فما طُبع قد طبع . . .

لقد صرفت الساعات الطوال مع الارشمنديت بشير بمراجعة ترجمة «المجنون» و «السابق» ورغم تمردي فقد اعجبتُ بحماسة الرجل وعزمه . وقد قال لي عند ما فرغنا من المراجعة والتصحيح «سوف ادفع ترجمة الكتاين الى مخائيل نعيمة ونسيب عريضة واطلب منهما نقداً صارماً» ، فاستحسنّت كلمته هذه وعرفت انه بالحقيقة يريد الاستفادة^(١) .

لم افعل شيئاً حرياً بالذكر مذ تركت نيويورك سوى تدوين بعض رؤوس اقلام ونفيس بعض الافكار العتيقة . يبدو لي يا ميسا ان الحياة المرتبة في بيت شقيقتي تبعثني عن التوليد والانشاء . من الغريب ان يكون التشويش في العيش افضل مستحث تقريحتي

سوف افرح وابتهج بقصيدتك وقصيدة نسيب الجديدتين ولكنني سأقف منجولاً امامكما لفراغ جبعتي - غير انني لن اقف وحيداً اذا بقي رشيد على تسويفه ، واذا بقي على تسويفه فلا ادري كيف يستطيع اصدار ديوانه بلغ سلامي ومحبتني الى الرفاق والخلان وقل لهم ان الحياة بدونهم حياة مبثورة والله يباركك يا ميسا وبقيقك اخاً عزيزاً لجبران

(١) اطلعتني الارشمنديت بشير على ترجمته لقطعة او لقطعتين . فرأيت ان عناء «المساعدة» اشق من الترجمة وتركته يترجم بمفرده ولغته دون اقل تدخل مني - ٢٠٠ ن

اخي العزيز ميسا . اهنتك واهني نفسي « بالغربال » فهو بدون شك
اول نسمة حية من تلك العاصفة الربانية التي ستصهر جميع الاغصان والقضبان
اليابسة في غابة آدابنا . لقد قرأت الكتاب ، قديمه وجديده ، من ألفه الى
يائه ، ففكرت لدي حقيقة فكرت فيها مرات وابديتها لك مرة واحدة
وهي هذه : لو لم تكن شاعراً و كاتباً لما بلغت من فن النقد المستوى الذي
انت فيه ، ولما تيسر لك رفع الستار عن حقيقة الشعر والشعراء والانشاء
والمنشئين . اقول يا ميسا انك لو لم تختبر الشعر بروحك لما تبينت اختبارات
سواك الشعرية ، ولو لم تسر طويلاً في جنة الشعر لما تمرت على الذين لا
يسيرون الا في مضايق الاوزان والقوافي . لقد كان سان بف ورسكين
وولتر بيتر من الفنين قبل وبعد ان ينقدوا آثار غيرهم الفنية ، وكان كل
واحد منهم ينقد الاشياء بنور روحه الوضعي لا بذوقه المقتبس ، فالنور
الروحي ، وهو منبع كل جميل وكل نبيل ، يتحول بمشيئة صاحبه الى نقد
فيجيء النقد فناً جميلاً نبيلاً ، ولولا ذلك النور لجاء النقد تعنتاً مملأً خالياً
من رنة التأكيد الايجابي ونعمة الاقتناع الجازم

نعم يا ميسا ، انت شاعر مفكر قبل كل شيء ، وما مقدرتك الفريدة
على النقد سوى مظهر من مظاهر فكرك وشاعريتك ، فلا تقدم مثل
« البيضة » فانا لا ولن اقبله لانه يدل على مقدرة جدلية لا على حقيقة مجردة
سأعود الى نيويورك بعد عشرة ايام ان شاء الله فتحدث طويلاً
ونصنع الرسوم لديوان رشيد ونقوم بكثير من الاعمال — وسنحلم احلاماً
جميلة .

قل للاخوان انني صرت مشتاقاً اليهم والله بقيقك اخاً عزيزاً . لجبران

(بوسطن - نيويورك) ٣٠ ايلول (١٩٢٤)

اذا تحسنت حالتي بين اليوم والسبت القادم
فاني اذهب توجاً الى آل بني^(١)

عزيزي ميسا . منذ ايام وانا رهن هذه الغرفة وقد قمت من فراشي
لاكتب اليك . انت تعلم انني تركت نيويورك مريضاً ولم ازل احارب
التسمم في معدتي . ولولا ذلك لما تأخرت عن الذهاب الى الميتم يوم تدشينه .
وانت تعلم يا ميسا ان اشغالي مهما كانت مهمة لا توقفي عن التغيب يومين
او ثلاثة ايام خصوصاً اذا كان تغيبني للاشتراك في تدشين انبل معهد سوري
في الولايات المتحدة . ارجوك ان تقدم للطران عذري وتبين له السبب
الحقيقي في عدم مجيئي
وبلغ سلامي مشفوعاً بمحبيتي الى الاخوان والله بيقك اخاً حبيباً . لجبران

(بوسطن - نيويورك . ١٩٢٥)

اخي ميسا . سلام على روحك وبعد فقد بعثت الساعة برسم لغلاف
السائح الممتاز كما اشترت الي . واشارات الامراء امراء الاشارات ! واني
ارجوك ان تحتم على عبدول ان يحتفظ به بعد الفراغ من نسخه عند الحفارين
تري هل وجدت في الصومعة الهادئة بعض الراحة والسلامة ؟^(٢) قد
خفت عليك من البرد فيها ولقد كان من الواجب علي ان اخبرك عن آلة
كهربائية موجودة في الصومعة تساعد على تدفئة قرنة من قرانيتها . « على كل
حال » ان القلوب الحامية لا تحتاج الى نار خارجية !
سأعود الى نيويورك بعد اسبوع - اكثر او اقل - فلتتقي وتحدث

(١) عاصمة ولاية نيويورك . وكان الميتم في جوارها

(٢) عند ما سافر جبران الى بوسطن قبيل عيد الميلاد من تلك السنة سلمني مفاتيح مخزفه لاني قلت
له اني في حاجة الى خلوة كخلوته لا نهني بعض ما كنت اكتبه . ٥٠ ن .

طوبلاً في ماتحت الارض وفوق السحاب ، والله يحفظك يا ميسا اخاً
محبوباً . لجبران

(بوسطن نيورك) مساء الاثنين ١١ تشرين الاول سنة ١٩٢٨

عزيزي ميسا . سلام على روحك ، وبعد فما احسنت مستفحصاً عن
صحتي وما اكبر قلبك . كنت مصاباً بالداء المعروف بالنقرس الصيفي فلما
ذهب الصيف وحرّه ذهب النقرس

عرفت انك رجعت الى بابل الجديدة منذ اكثر من ثلاثة اسابيع ، فقل
يا زين الشباب ، ماذا جلبت معك من كنوز غيبتك وغيبوتك ؟ سوف
اعود الى نيويورك بعد اسبوع ، وسوف ابحت وافتش في جيوبك لاحصل
عما جلبت معك .

كتاب « يسوع » تناول صيفتي مريضاً وصحيحاً - ولا اكتبك
ان قلبي ما يرح فيه ، رغم انه قد صدر « وطار من هذا القفص »
بلغ سلامي يا مخائيل الى اخوانك اخواني والله يحفظك . لجبران
(بوسطن - نيويورك ٢٦ اذار ١٩٢٩)

عزيزي ميسا . ما احسنتك وما اعطفك سائلاً عن صحتي . لقد صرت
يا ميسا في حالة « مقبولة » وقد ذهبت آلام النقرس او « العصبي » وقد
تحول التورم الى ضده ، اما العلة فهي في مكان اعظم من الاعصاب والعظام
ولقد فكرت مرّات في ما اذا كانت علة او صحة .

هي حالة يا ميسا ، صحة كانت ام علة . . . هو فصل من فصول حياتي
وفي حياتك وحياتي شتاء وريبع . وانت وانا ، بالفقرة ، لا ندري ايها افضل
عند ما نجتمع ساخبرك عما جرى لي ، وعندئذ تعلم لماذا صرخت مرة « لكم
لبنانكم ولي لبناني »

ليس بين الفاكهة احسن من الليمون الحامض ، وانا اناول الليمون كل يوم ٠٠٠ والباقي على الله !

قلت لك في رسالة ان الاطباء حضروا عليّ العمل ، ولكنني لا استطيع سوى العمل ، ولو بالفكر ، او للنكاية ! ٠٠ ما قولك في كتاب مؤلف من اربع حكايات ، ميكل انجلو ، شيكسبير ، سبينوزا ، يتوفن ، وما قولك في ما لو كانت كل حكاية نتيجة مقررة لما في القلب البشري من الالم والطموح « والغربة » ثم الامل ؟ ما قولك في كتاب من هذا النوع ؟ ٠٠ هذا — اما كتاب « حديقة النبي » فامر مقرر ، على انني ارى ان من الحكمة ان ابتعد عن الطابعين في الوقت الحاضر

سلامي الى اخوانك اخواني الاحباء — والله يحفظك اخاً . جبران

(بوسطن — نيويورك . برقية بتاريخ ٢٦ اذار ١٩٢٩)

اثرت بي برقيتك تأثيراً عميقاً . انا احسن . رجوع العافية سيكون بطيئاً . قيل لي ان امتنع عن الشغل سنة كاملة . هذا اشقّ عليّ من المرض . سيعتدل كل شيء في حياتي على التامادي . محبتي اليك والى رفاقنا . جبران

(بوسطن نيويورك ٢٢ ايار ١٩٢٩)

اخي ميسا . انا احسن حالاً اليوم مما كنت عليه يوم تركت نيويورك ما اعظم حاجتي الى الراحة والى البعد عن الاجتماع وضجيجيه ومشكلاته . سوف ارتاح . وسوف ابتعد باميسا ولكن اريد ان ابقى قريباً منك ومن اخواني بالروح والعاطفة فلا تقصوني ولا تنسوني .

الف سلام لك ولعبد المسيح ولرشيد ولوليم ولنشيب ولكل واحد ممن تجمعنا بهم رابطة الله

والسما تحرسك وتباركك يا اخي . جبران

ملك البهرد وراعي الغنم

الرواية التالية هي آخر ما كتبه جبران بالعربية . وقد اعدّها « للسائح الممتاز » الذي كان ليظهر في اوائل سنة ١٩٣١ . غير ان « السائح » سبق جبران ببضعة شهور الى « الدار الثانية » . وعدده الممتاز لم يظهر . والرواية لم تنشر حتى الآن :

المكان — مرعى اخضر بين الهضاب في ظلال الاسد الصخري في شمالي لبنان
الزمان — عصرية يوم من اواخر ايام الصيف
الاشخاص — راعي الاغنام . الملك . ثم وزير الملك
الراعي جالس في ظل الاسد الصخري ينظر بارتياح الى اغنامه وفي يده ناي ينفخ به بين الآونة والاخرى
بأقي اذ ذاك الملك على صهوة جواده وينظر الى الراعي

الملك — اراك مرتاحاً في ظلال هذه الصخرة فما اشد سلاحك ؟
الراعي — ما اكثر فرحك في صهوة فرسك ! على انني اراك متعباً !
الملك — (ينظر حوله) — اتعلم من انا ؟
الراعي — لا وهل تعلم انت من انا ؟
الملك — (ضاحكاً) — لو عرفت من انا لاغمي عليك وجلاً .
الراعي — (قابضاً على حفنة من تراب) — لو عرفت من انا لمت فرحاً
الملك — ما اكثر وقاحتك !
الراعي — ما ابلذك واغلظك !
الملك — عليك ان تعلم من انا لتعتبر .
الراعي — وعليك ان تعلم من انا لترتعش خوفاً .

الملك - لو شئت الساعة لقتلتك بحد سيفي .

الراعي - ولو شئت انا لقتلت سبعة رجال مثلك بعصاي .

الملك - (متردداً) - انا ؟ انا هو الملك .

الراعي - وانا . انا راعي هذا القطيع .

الملك - امجنون انت ؟

الراعي - لم اقل انني ملك هذه الارض فكيف تدعوني مجنوناً ؟

الملك - الا تعلم ان الموت والحياة بين شفتي ؟

الراعي - اذاً انت الذي قتل جدتي وانت الذي انعمت بمولود علي جارة

لي قبل ان تبلغ الخامسة عشرة من عمرها .

الملك - لا لم اقل جدتك ولم ابعث بمولود الي جارتك .

الراعي - اذاً لم تدعي الملك ؟ ولم تقول لي ان الموت والحياة بين

شفتيك ؟

الملك - ماذا يا ترى نفعل لو رأيتني محاطاً بجندي ؟

الراعي - انت تراني الان محاطاً بنعاجي ولا اراك نفعل امراً معقولاً .

الملك - وماذا نقول لو رأيتني جالساً على عرشي ؟

الراعي - هانذا اسند ظهري الي هذه الصخرة وللآن لم اسمع كلمة

حسنة منك !

الملك - (متضجراً) - انا لله وانا اليه راجعون . اتعلم يا رجل معنى

كلمة ملك ؟

الراعي - نحن الله ! ونحن المعاد والمرجع ! اتعلم يا رجل معنى كلمة

راعٍ وغنم ؟

الملك - اتعلم معنى قولنا : قائد . زعيم . عميد . سلطان . ؟

الراعي - (ممتلاً التضجر) - اتعلم معنى قولنا . قائد اغنام . زعيم
خول . رئيس حملان . عميد القطيع . ؟
الملك - اتعلم معنى قولنا ! بلاد . مملكة . حكومة . شرائع . جرائم
عقوبات . ؟

الراعي - اتعلم معنى قولنا : مراعي . اودية . سهول . موارد .
حظائر . ؟

الملك - يبدو لي انك لست من البشر .
الراعي - لا لست من البشر اذا كنت انت منهم .
(في هذه الدقيقة يترجل الملك ويقرب من الراعي وفي حر كانه شيء
من التهديد)

الملك - انا هو الملك . وكل ملك والد لكل فرد من رعيته و كوالد
عليّ ان اهذبك وانير ظلمتك وسوف اهذبك الان بالقوة .

الراعي - ما احمقك يا رجل ! وما اكثر دعواك ! لو كان بإمكانك
تهذيبي واناة ظلمتي لما فعلت . الراح في سبيك يا هذا . رح وابحث عمن
يهذبك وينير ظلمتك . ثم عد اليّ فان وجدتك كفوءاً لتكون احد رعاياي
سيرتك الى المراعي الخصبة والى المناهل العذبة

الملك - (متجلداً) - اعلم ان الارض متجزأة الى ممالك ولكل مملكة
دستور .

الراعي - (يقاطعه) - نعم والممالك والدساتير متديلات من الدماغ .
ودماغكم ضعيف وهو مقسوم الى طائفات متبوعة وتابعة تسوس بالدعوى
وتساس بالهوان .

الملك - اعلم ان الناس هم حاكمون ومحكومون فالتبوع يسوس والتابع
يوّدي الجزية

الراعي - يا لله ! ترى بين الناس من يدفع ضريبة ليسمع السخافة لتكلم
وبرى الشناعة لتبرج وتترقص ؟

الملك - ان الناس يدفعون الثمن للعقول الراجحة التي تدير شؤونهم
وتهديهم الى السبيل القويم .

الراعي - اذاً انت مدبون لي بنصف ما في الارض لانني رغم غباوتك
وتضجيري منك فقد هديتك السبيل القويم

الملك - واعلم ان لكل مملكة شرائع بعضها منزل والبعض انفق عليه
امراء الشعب وشيوخه فمن يقف عليها يسان ومن لا يتبعها يعاقب ويهان .

الراعي - بلوح لي ان شرائعكم المنزلة وغير المنزلة ثروة الغنى
الملائكة ولكنكم للان لا تعرفون . ولو عرف الناس لشنقوك او سجنوك
حتى الحشرة .

الملك - واعلم يا ولدي الجاهل ان الفيلسوف وراعي الغنم سيان امام
تلك الشرائع .

الراعي - واعلم يا جدي المخط ان الملك والخنفساء سيان امام وجه
الشمس .

الملك - (متجلداً) - واعلم ان لكل مملكة جنوداً وقواداً يغزون
ويهاجمون اعداء المملكة الاخرى عند الحاجة ويدافعون عندما تهاجمهم جنود
المملكة المجاورة .

الراعي - (يضحك حتى يسيلقي على ظهره) - عند ما تغزو جنود
سيدي الملك واعوان سيدي المملكة المجاورة بحق او بغير حق انا اعلم

الناس بماذا يفعل سيدي الملك واعوان سيدي الملك واين يكون مركزهم
من الجيش .

الملك - اقول لك ان حد السيف نصيب الاعداء .

الراعي - نعم سيف الاكثرية على عنق الفرد الاوحد . يا لها من
جبانة . . . ! الم اقل مرة ان الاكثرية والجبانة توأمان ؟ الم اقل
ذلك مرة ؟

الملك - (غاضباً) الاكثرية الجاهلة ! الفرد الاوحد ! ماذا تقول
يا رجل ؟ ان ما نقوله سوف يقودك الى مكان يوعز اليك بالفاظ غير هذه
الالفاظ وسوف تندم ، وسوف تنبكي بكاءً مرّاً .
الراعي - (ضاحكاً) - نعم سوف اندم على هذيانك . وسوف ابكي
ولكن على بلادتك . سوف اندم وسوف ابكي لان ملك هذه البلاد هو
جرذون اعرج .

(في هذه اللحظة يمشق الملك سيفه اما الراعي فيظل جالساً ولكنه يتمسك
بعضاه ويقول ضاحكاً)

الراعي - اضرب يا بليد ! لا ولن اضرب اولاً ومن يقاتلني ليس باحسن
من جرذون متوج .

الملك - (يقف) - انت نكتة جديدة وقد ثلينا بقلياك . يجب ان
نذهب .

الراعي - انت مهزأة عتيقة - غير اننا لم نسر بمرآك . اذهب ولا ترجع
الملك - (مستبسماً) - قل لي ماذا تفعل ههنا سوى رعاية هذه الاغنام ؟
الراعي - ارى انك ترغب في الحديث ؟ انا لا افعل شيئاً سوى اني
اجلس في الشمس على انني بين الآونة والاخرى انظر الى قطيعي ولكن لا

اكتمك يا بليدي ان كل نعمة من هذا القطيع ترفع رأسها من وقت لآخر
لترى ما اذا كنت انا ههنا ام لا . هذا كل ما فعله في هذا المكان . ولكن
قل لي اذا كنت من القائلين الشجعان ماذا انت من الفاعلين ؟

الملك - الم اقل لك انني ملك هذه الارض ؟

الراعي - ليس فيك من الملوكية اكثر من هذه الصخرة الغربية
الشكل . لقد تفرستك فلم اجد فيك سوى البلادة المتحدرة من البلادة -
(مشيراً الى القطيع) - اترى ذلك الكبش - الكبش ذا القرنين
الكبيرين ؟ اقول لك انه ليس من كباشي الحسنة ولكن له عادة غريبة وهو
انه يهز رأسه كل صباح مطوحاً نحو الفضاء . لذلك فهو لا يسير الاّ وسارت
الاغنام والكباش معاً ورائه . في قطيعي حول اكبر منه جثة ذوو قرون
اضخم واخم والكنهم لا يقودون القطيع لشرف في طبيعتهم ولاعراض عن
شرف القيادة وقد يحسبون القيادة شكلاً من الصغارة

الملك - لا يشبه الملك بالكبش سوى الجاهل الاحق الذي لا يعرف
ما يقول ويقول ما لا يعرف ويجب علينا ان تغفر للجاهل الاحق لانه لا
يدري ما يقول ، الاقوال والاعمال بالنيات وانت لا تعرف كيف تخاطب
الامراء والسلاطين وعلى الملوك والامراء ان يفهموا ذلك ويكونوا صابرين
الراعي - اقول لك يا ولدي الصغير انني عند ما شبهتك بالكبش
ظننتي مطرئاً مادحاً اباك اكثر مما تستحق ولكن ما العمل وانت من اولئك
الذين لا يميزون بين الاطراء والهجاء

الملك - (ناظراً الى الراعي نظرة طويلة جدية) - لست بالابله ايها
الرجل . لست بالابله كما ظننت . انت تتهنتنا بمعرفة ولكن لن ادنس
يدي بدمك . يجب ان تقتل ولكن بسيف رجل من طبقتك .

الراعي - (يضحك ضحكاً عالياً) - يد رجل من طبقتي ؟ يد رجل من طبقتي ؟ الا تعلم يا بليد لو بحثت في كل قرنة من مملكتك المسروقة المزيفة لما وجدت رجلاً من طبقتي ؟ قلت مملكتك المسروقة المزيفة فهل فهمتني ؟

الملك - (يكفهر وجهه وتظهر على ملامحه امارات الخوف ثم يمثل دور الغضب ثم يستل سيفه ويصرخ قائلاً) - قم ودافع عن نفسك فاني قاتلك لا محالة .

الراعي - (يتناول عصاه بدون ان يتزعزع من مكانه ويقول) - عصاي بسيفك باشجاع

الملك - (يضرب الراعي بسيفه والراعي لا يزال جالساً) - خذها ايها الحقير الملعون .

الراعي - (يلاقي السيف بعصاه ولكن بحركة كأنها منحربة يقذف بها السيف من يد الملك ثم يقول) - اذهب والتقط سيفك وعد الى عصاي مرة ثانية .

الملك - (يذهب ويلتقط السيف ويمشي نحو الراعي يبطء) - الم نقل اني سرت مملكتي ؟ الم نقل هذا ؟ (يضرب ثانية فيلاقي الراعي ضربته بنكتة من عصاه فكأنه قطعة فارسية تلاعب فارة) - لماذا لا تقف ايها الشيطان ؟ انت بدون شك من الابلالة . لماذا لا تقف ؟

الراعي - قاتلني وانا جالس يا صغيري اللطيف قبل ان نناضلني واقفاً اليس في جلوسي الكفاية ؟

الملك - (يضرب ثالثة والراعي يقذف بعصاه سيف الملك الى مسافة بعيدة)

الراعي - اذهب والنقط حديدك يا صاحب الجلالة
الملك - (يلنقط السيف ويعود على مهل مع شيء من الخوف كأنه
يرى في الراعي ساحراً ثم يقول) - سوف اقتلك . سوف اقتلك جنياً
كنت ام بشراً .

الراعي - (يضحك) - انت لا تستطيع ان تقتل ذبابة . انت المنشل
من جيوب الغد وانت المنتصب واقفاً وانا الجالس قاعداً تأتيني بسيف وانا
اقابلك بعضاً . تعال واضرب يا اشجع الشجعان .

(بينما الملك يحاول ان يضرب والراعي ينظر اليه ضاحكاً يسمع صوت
«يا هو يا هو يا هو فيقف الملك مصغياً»

الراعي - هنالك رجل يناديك باسمك اشكر الله ان اسمي ليس
«يا هو يا هو»

الملك - (مجاوباً) يا هو يا هو

الراعي - الا اسمعوا الملوك والعبيد ينادون بعضهم بعضاً باسم واحد
وبذات النعمة السقيمة القديمة .

(يُسمع وقع خطوات الملك يعيد سيفه الى غلافه ويقف الى جانب
فرسه ممثلاً الطمأنينة لان جلالته لا يرغب في ان يظهر مبارزاً الا الملوك .
في هذه الدقيقة يجيء الوزير مدبجاً بكل اشكال وآلات الصيد ويقف
هنيهة مبغوتاً ثم يمدق بوجه الراعي وعند ما يتبينه جلياً يخضع له على ركبتيه
قائلاً) :

«يا اميري . يا اميري . انت لم تنزل حياً ؟»

الراعي - (ينظر الى الوزير مبتسماً) - هو ذا صديقي القديم الذي
كان يلعب لي دور الحصان المطهم في دار جدي . فيركبني ظهره فيقفز

ويمرح ويتبختر ويصهل ويصيح . انظروه الان حاملا سلاح ملك البلاد .
لماذا لا ؟ كلنا يترقى ويتطور ذلك اذا كان يفكر بذلك . ولكن اشك في
ارتقاء هذا الرجل الذي يدعو نفسه ملكاً

الوزير - (للراعي) يا مولاي انها لا كبر فرصة ان اراك ثانية
الراعي - لا تلتفت بهذه الكلمات بصوت عالٍ فقد يسمعك جلالة الملك
الملك - (للوزير) - من هو هذا الرجل الوقح الذي تخضع امامه
ونحنى لديه وتسلم عليه بالامارة ؟ من هو يا ترى هذا الصعلوك المشجر ؟
الوزير - هو يا سيدي ضاهر السعدي واحد من الثلاثة الامراء
السعديين وهم ما بقي من اوراق ذلك الغصن من تلك الشجرة القديمة .
واسمع يا مليكي . تأمله الان يرعى قطعاً من الغنم واخوه في وادي العاصي
يحرق الارض واخوه الثالث قد بنى معملًا للانوال في سفح هذا الجبل ليحوى
القطن والكتان

الراعي - (هازأً رأسه) - اذاً نحن لم نزل المملوك . اتركوني وشأني
وسامحوني .

تخليد جبران

هذه كلمة اسوقها الى محبي جبران في الشرق والغرب ، لا سيما الى اولئك الذين يتحدثون في امر « تخليده » بالتأثيل وما اليها

ليس جبران في حاجة الى من يخلد ذكره في الحجر او البرونز او سواهما . فهو اخلد منهما كانسان . وابقى اثرأ كشاعر وفنان . ولا نفع له او لسواه من نصب يقوم في ساحة ما من مدينة ما فيمسي على التماذي محطة للعصافير ومصيدة للغبار . واذا كان المقصود من كل ذلك « تكريم » جبران فاجمل ما نكرمه به هو نشر ادبه وفنه بين الناس . ذاك أمراً على قلبه بما لا يقاس . وذاك ما انفق حياته لاجله . فتأثيل تقيمها روحه في ارواح الناس لاعظم واروع من تماثيل يقيمها له الناس في ساحات المدن وعلى قوارع الطرق

وهذه مؤلفات جبران العربية ما تزال مبعثرة هنا وهناك بغير ما تنسيق او تبويب . وهذه مؤلفاته الانكليزية ما تزال في حاجة الى ترجمة تضارع الاصل ولو بعض المضاربة بجودة اسلوبها وتؤدي معانيها باخلاص . وهذه رسومه ما تزال محجبة مهمة . فهل اقل من ان تجمع مؤلفاته العربية وترجم مؤلفاته الانكليزية وتطبع كلها طبعاً جميلاً بشكل واحد وقطع واحد حتى يسهل الوصول اليها واقتناؤها على من يشاء ؟ وهل اقل من ان تحصي اثاره الفنية ونظم وتعرض في مكان يليق بها ؟ وهل اقل من ان ينفق ولو بعض ربيع كتبه على تنظيم رسومه وكتبه ؟

ان تشكيل لجنة من ذوي الذوق والفهم للاهتمام بهذه الامور لا كبر
ما يمكن محيي جبران فعله من اجل انفسهم واجل جبران . فهو اعظم كاتب
ظهر في الشرق منذ اجيال . وهو متفرد في فنه ليس في هذا الشرق وحده
الذي لم ينجب بعد رسامين معدودين ، بل في الغرب الذي يعد ذاته رب الفن
ومهد الفنانين .

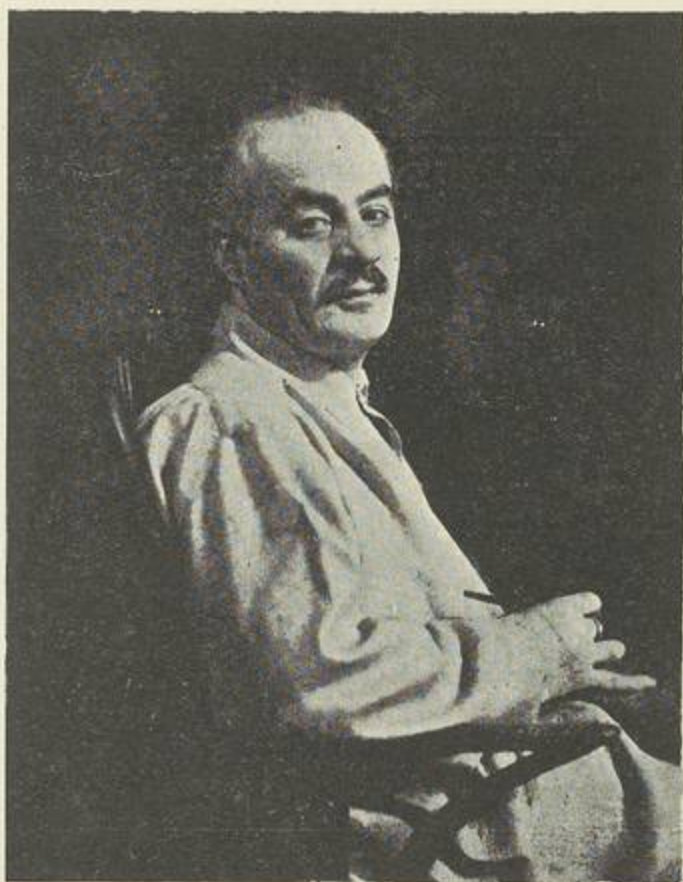
البناء السري

ترجمة القصيدة التي القيتها بالانكليزية في حفلة تذكارية اقامها لجبران رهط من
اصدقائه الامير كيين في قاعة متحف روريخ في نيويورك في ٢٩ نيسان (ابريل) ١٩٣١

قادني القدر الى حيث اخي والموت كانا على ميعاد اللقاء
فوجدتهما في عناق مكين . وسمعت اخي يقول :
« يا أمّ انفاسي . الا مُريها ان تتلاشى في الفضاء . فقد اثقلت اني
بروائح الامل الجهيضة والايام والليالي العفنة . وانا اود ان اعيش بلا نفس
في الاعالي والاعماق حيث الجمال الذي لا يتنفس .

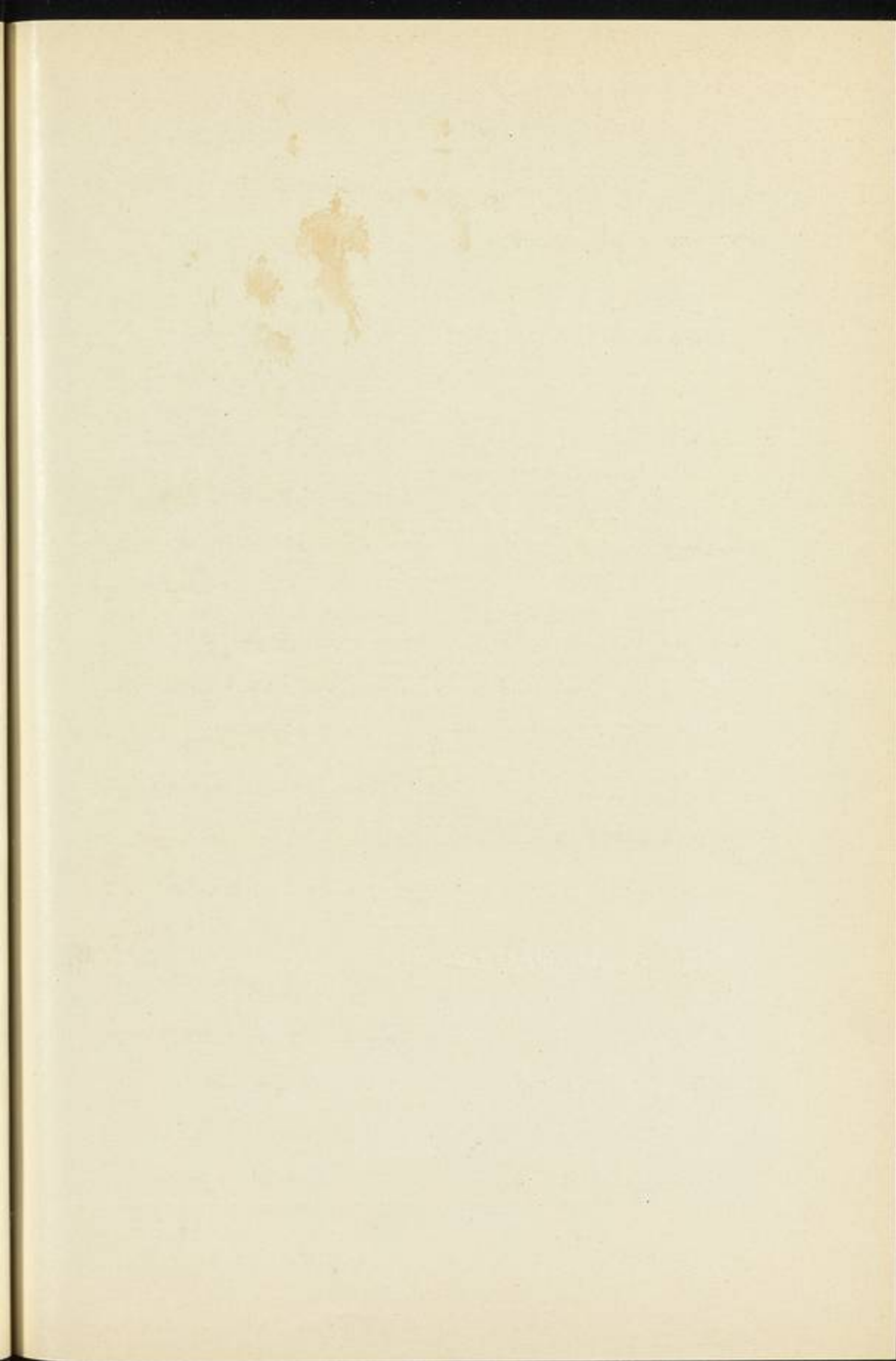
مدّي يدك يا حبيبتي الى صدري . تعمقي . تعمقي
فقد تظفرين هناك بكسرة من قلب . هي كل ما عندي لا قدمه لك
اما ما بقي فليس بعدُ لي . فقد نشرتُ نتفاً منه على لوحات هنا وهناك
وذوّبت بعضه الحاناً . والبعض بذرت في حقول لم يفضّ المحراث بكارتها .
والبعض صهرته في اتون الشوق والالم السنة للذين لا السنة لاشواقهم وآلامهم
والان طهريني يا حبيبتي . اغسليني من ملح الارض ورغوتها كيما اخبر
واباك البحر الذي لا شواطئ له . »

فاستجاب الموت ابتهاج اخي . وبقبله الصمت ختم على الميثاق .
وبينا انا اشهد السر العجيب ، وقد اعتراني ذهول واكتشفتني ظلمات
الف ليل دمس ، اذا بي اسمع صوتاً فائق اللطف والنعومة :
« كل آن قد مضى كل ماضٍ سبعود »



جبران في « الصومعة »

آخر صورة فوتوغرافية له وقد أخذت قبل وفاته بمدة قصيرة



جبران الحبي

الكلمة التي افتتحت بها حفلة الاربعين لجبران التي اقامتها الجالية السورية في بروكلين برعاية الرابطة القلمية . و كنت عريف الحفلة :

لقد اجتمعنا ههنا لا لنمجد انساناً مات ، بل لنتمجد بانسان حي . ولا بمجد للانسان الا في تدرجه من ناسوته الى لاهوته — من الفاني الى الباقي — من الشناعة الى الجمال — من الوهم الى الحق — من ظواهر الحياة المزدوجة الى باطنها الموحد

كلنا على الطريق . ويا لها من طريق مفروشة بالاجوع ، مخددة بمعثر المطامع ، مظلمة بخيالات الشهوات . غير ان روح الله يرف فوقها ونور الله يتخلل ظلماتها . وما الفرق بين السائرين عليها الا في ان البعض يتواني في السير متليهاً هنا وهناك بحلاوة لا تلبث ان تثقل الى مرارة . والبعض يمشي في السير عالماً ان كل ملذات الارض جنورها في تربه الالم . وان الالم ابن الجهل . وان لا غلبة على الجهل الا بالمعرفة . وان لا معرفة الا بالحق .

كلنا آية للحق . غير اننا لا نسع منه الا بقدر ما نفسح له مجالاً في نفوسنا . فالجرة التي ملأناها خلاً يستحيل عليك في الوقت ذاته ان تملأها خمرآ . كذلك القلب الذي اترعته بشهوات الارض انى لك ان تملأه باشواق السماء ؟

وبالاحرى اننا نعكس الحق بقدر ما نكون صفيحة الروح

فينا صافية او غير صافية . فمن تعكرت صفيحة روحه عكس الحق عكراً ومشوهاً . ذاك لا يعني انه خلو من الحق . فالبدر المنعكس في بركة عكرة هو البدر عينه المنعكس في بركة صافية . والشمس التي تشرق عليك من وراء لوحة صافية من الزجاج ، فتأنس بأشعتها ، هي الشمس ذاتها التي تطل عليك من وراء لوحة مقنعة بالدخان ، فتكاد لا تراها .

ان روح جبران خليل جبران من الارواح التي صفت للحق فاصطفاه وفي ذلك مجدها — وفي ذلك شقاؤها . لان الروح التي تعكس الحق صافياً ولو لحظة واحدة تتألم فيما بعد كلما انعكس عليها ما ليس حقاً . وابن آلام الارواح العكرة من آلامها ؟ والعين التي تلمح وجه الجمال المطلق ولو لحظة واحدة تدمع دماً كلما وقعت بعد ذلك على وجه ما ليس جمالاً . وابن من دموعها دموع العيون التي لا تبصر الا جمال الارض ؟

من ليس يعرف آلام جبران ليس يعرف افراحه . ومن ليس يعرف افراحه لا وان يدرك تلك القدرة التي مكنته من ان يرسل آلامه وافراحه موسيقى تترقق في مقاطع من الكلم ، والواناً تذوب وتجمد افكاراً واشواقاً حية ، وخطوطاً كأنها سلام تنحدر بك الى اقصى دركات الالم البشري وتصعد بك الى عرش الاله الساكن في قلب كل انسان . وفي كل ذلك يدنينا جبران من انفسنا لانه يدنو من نفسه ويجلو صفائح ارواحنا بجلائه صفيحة روحه ويمجدنا بالحق الذي يتمجد به .

انه لغرض لا اعرفه ولا تعرفونه ولد جبران في لبنان وفي العصر الذي ولد فيه . ولحكمة اجهلها وتجهلونها كانت العربية لغته . فكأنني بالعين التي تبصر كل حاجة ابصرت ما في حيائنا الروحية من القحط فارسلت لنا هذه السجادة المباركة لتمطرنا بعض بركايتها .

من شاء ان يرى في ذلك مفخرة فليكن له ما شاء . اما انا فأكبرُ على
بقعة عطشي من الارض ان تفاخر سواها بطل ارسلته لها السماء . واوثر
ان اقول :

« اللهم اجعلنا مستحقين لهذه العطية كما نستحق سواها »

فهرس الكتاب

١٨٣	نبأ كاذب	اعتذار (المقدمة)
١٩٣	الفجر :	الشفق :
١٩٥	الضباب يتباور	٣ و ٢٥٧
٢٠٤	المصطفى	١٤
٢١٥	حصة في السماء وحصص في الارض	٧٨ و ٥١
٢٢٤	الدبك	٤٦
٢٣١	السيدة الملتحجة	٨٥
٢٤٢	الصالح	٩٧
٢٤٩	اشعة في الغمام	١٠٦
		١١٣
٢٦١	ملعون	١٢١
٢٦٣	جثمان جبران	١٢٣
٢٦٦	وصية جبران	١٣١
٢٦٨	رسائل جبران الى المؤلف	١٤٥
٢٩٣	ملك البلاد وراعي الغنم	١٥١
٣٠٢	تحايد جبران	١٦٠
٣٠٤	الميثاق السري	١٦٩
٣٠٥	جبران الحي	١٧٦
		١١٣
		١٢١
		١٢٣
		١٣١
		١٤٥
		١٥١
		١٦٠
		١٦٩
		١٧٦

فهرس الصور

٢٤٠	ورق المجدلية	جبران تصوير الحويك في اول الكتاب
٢٧٣	ديو مار نر كيس	٤٨
	ضمربج جبران	١٦٨
٢٨٣	انموذج من خط جبران	١٩٣
٣٠٤	جبران قبل وفاته	٢٠٠
		٤٨
		١٦٨
		١٩٣
		٢٠٠

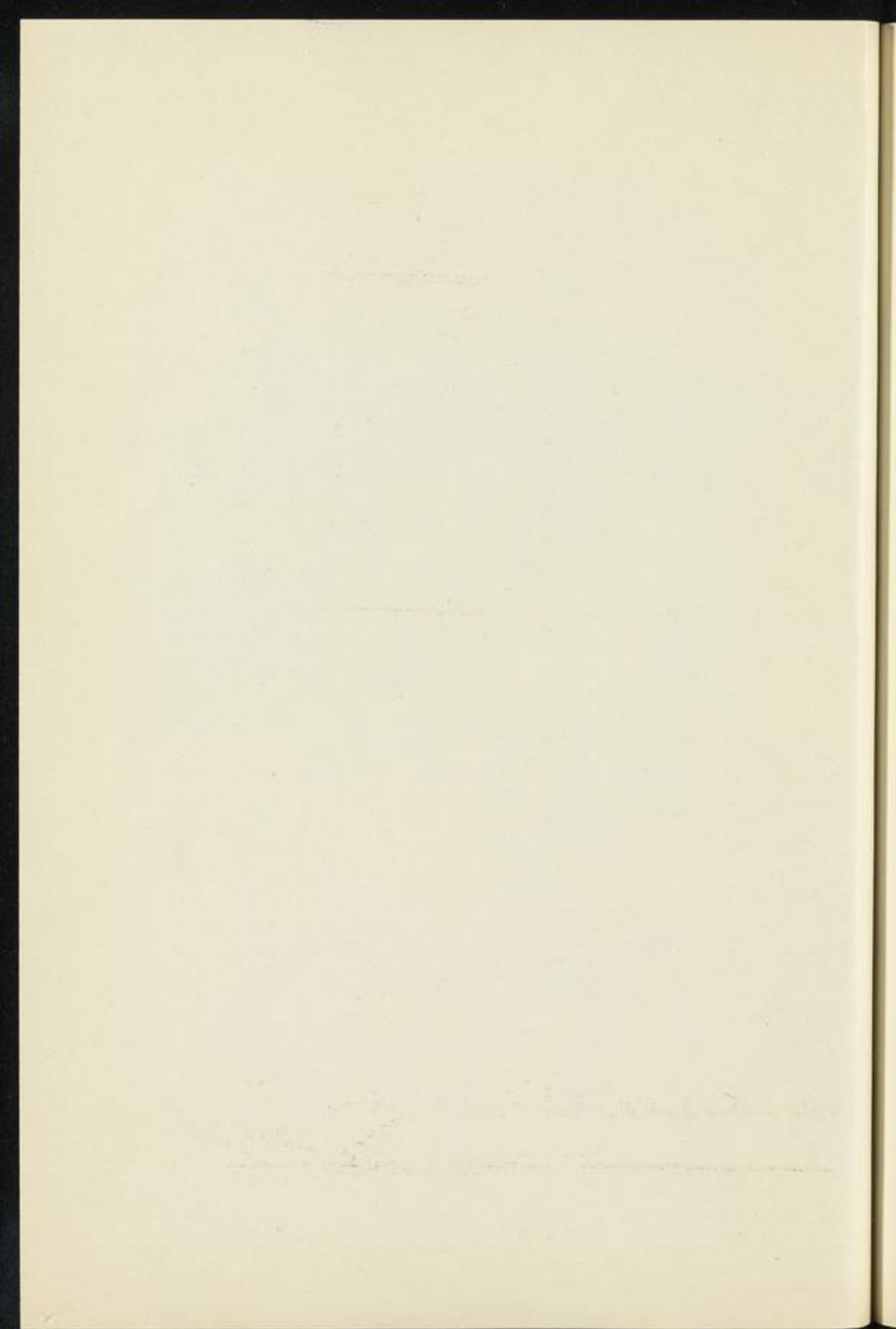
كتب افري للمؤلف

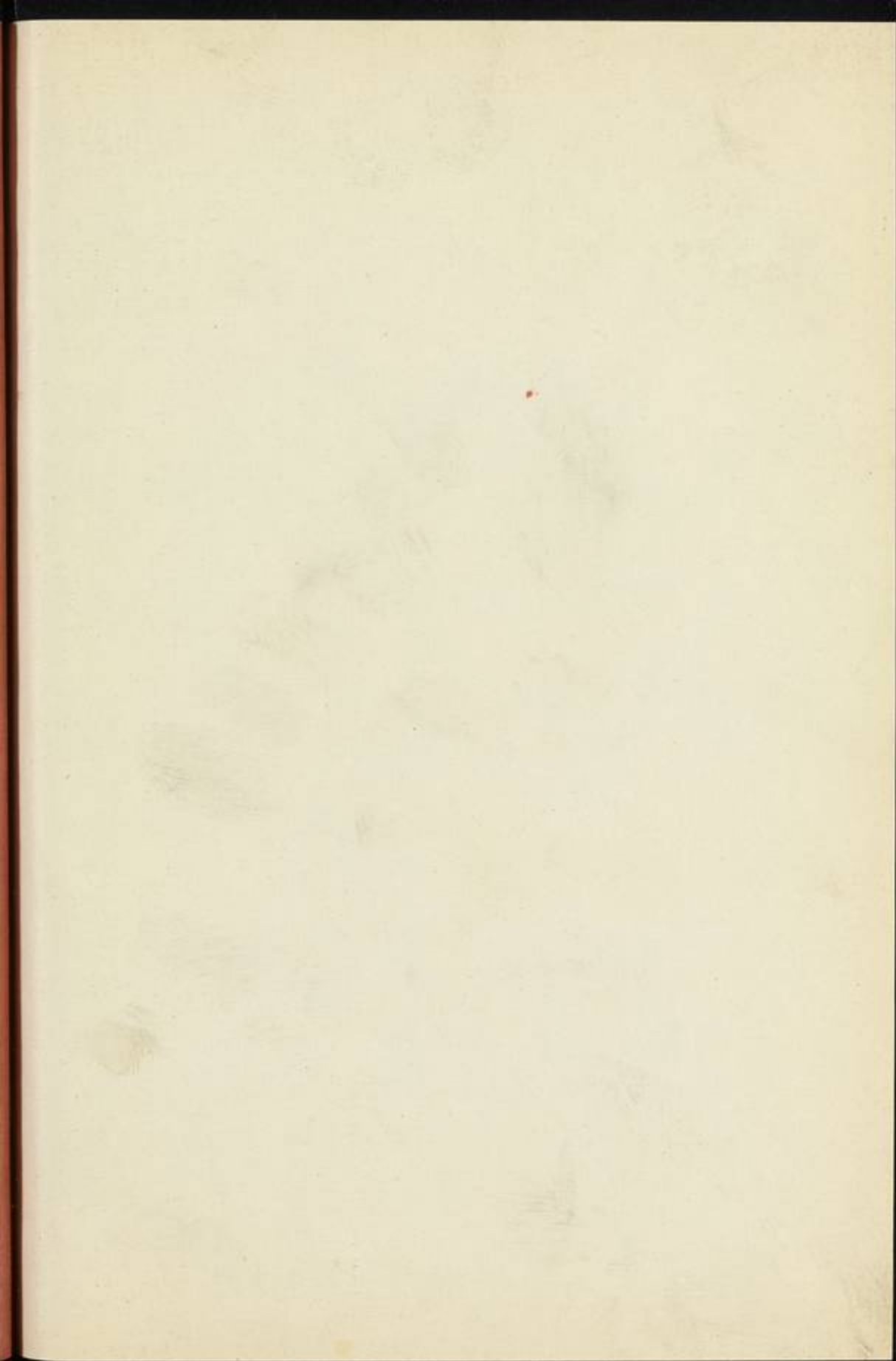
الآباء والبنون

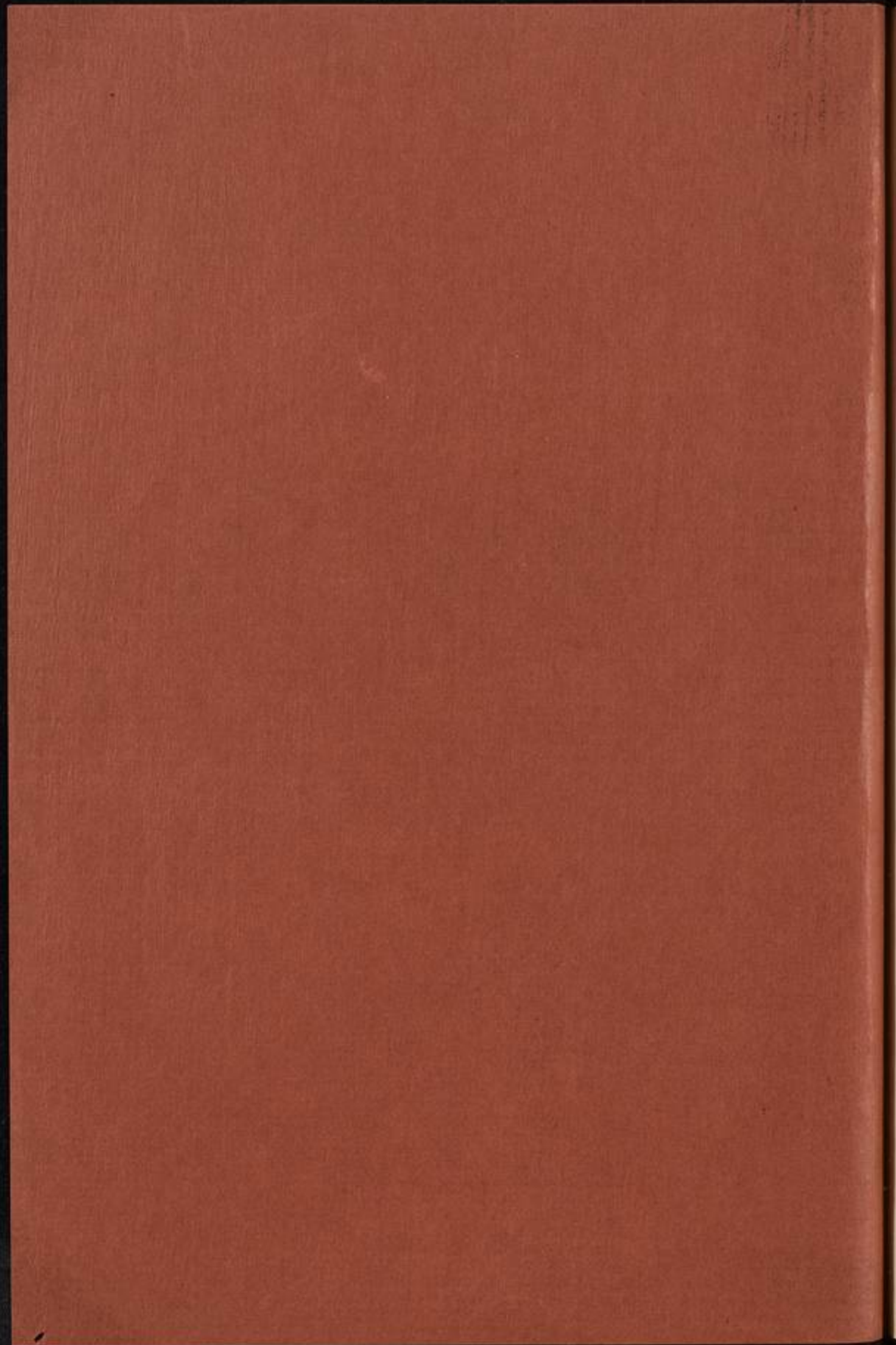
الغربال

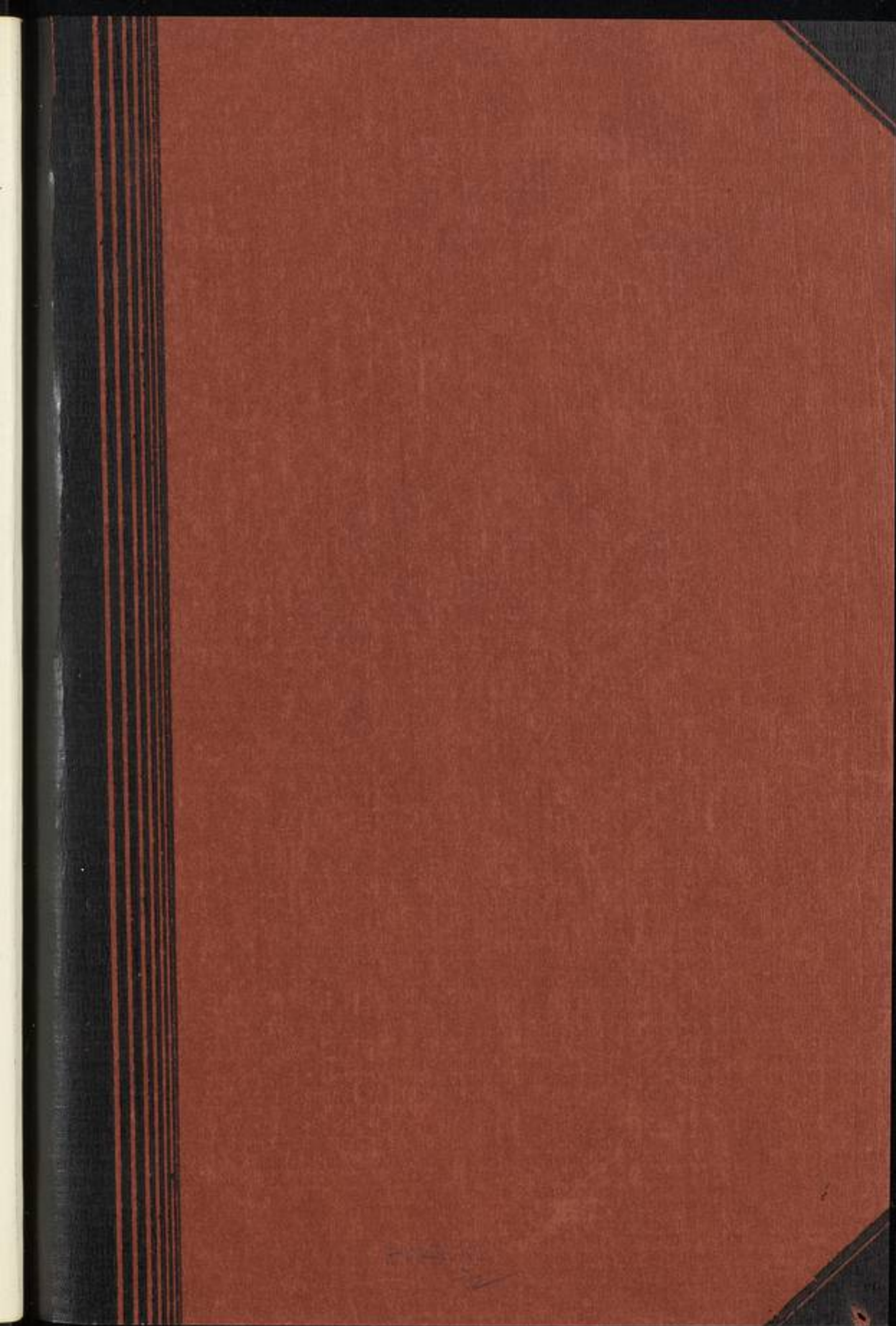
المراحل

هذا الكتاب و « المراحل » يطلبان من المؤلف في بسكتنا ، لبنان ،
ومن المكاتب المعروفة

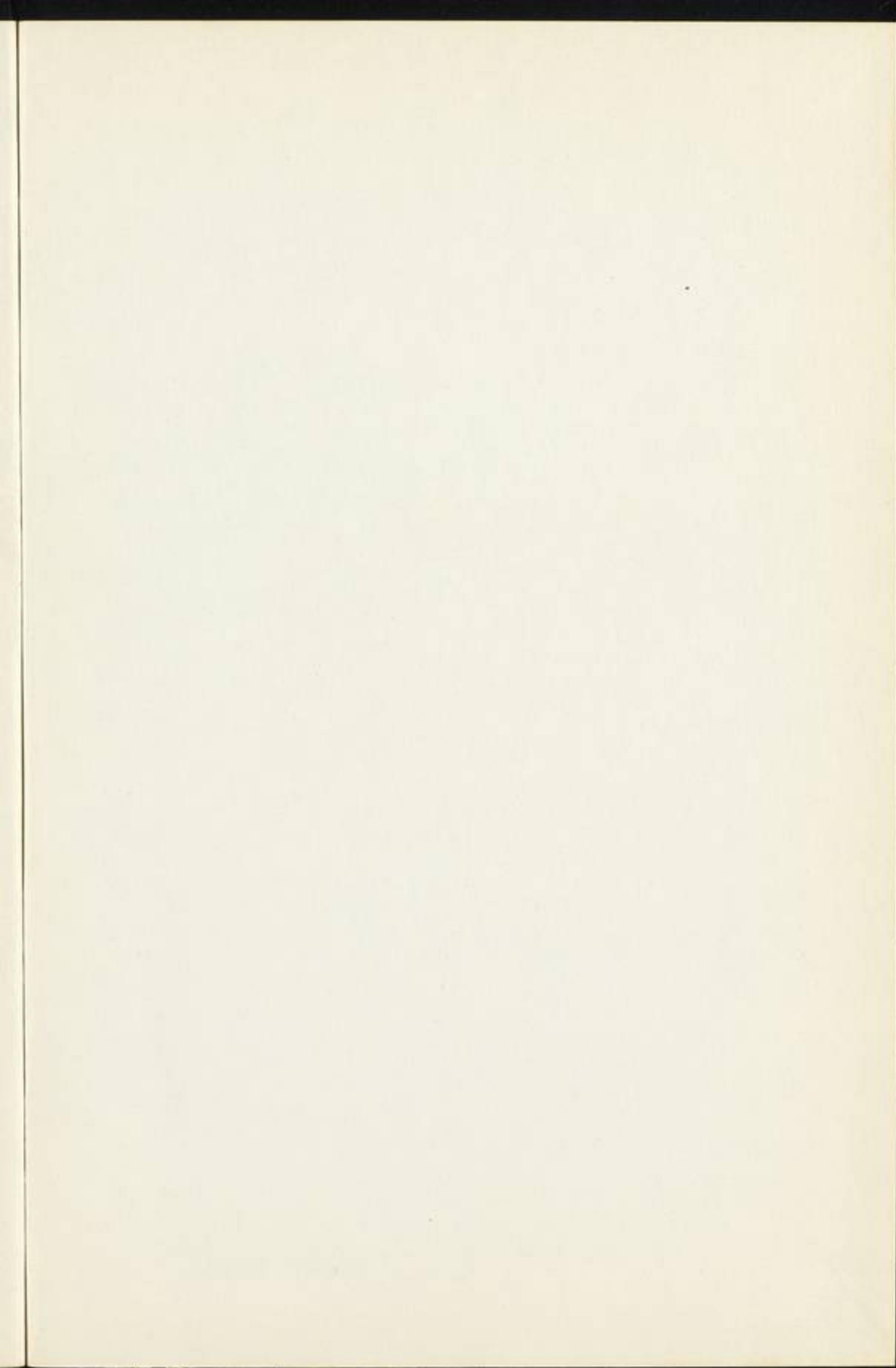


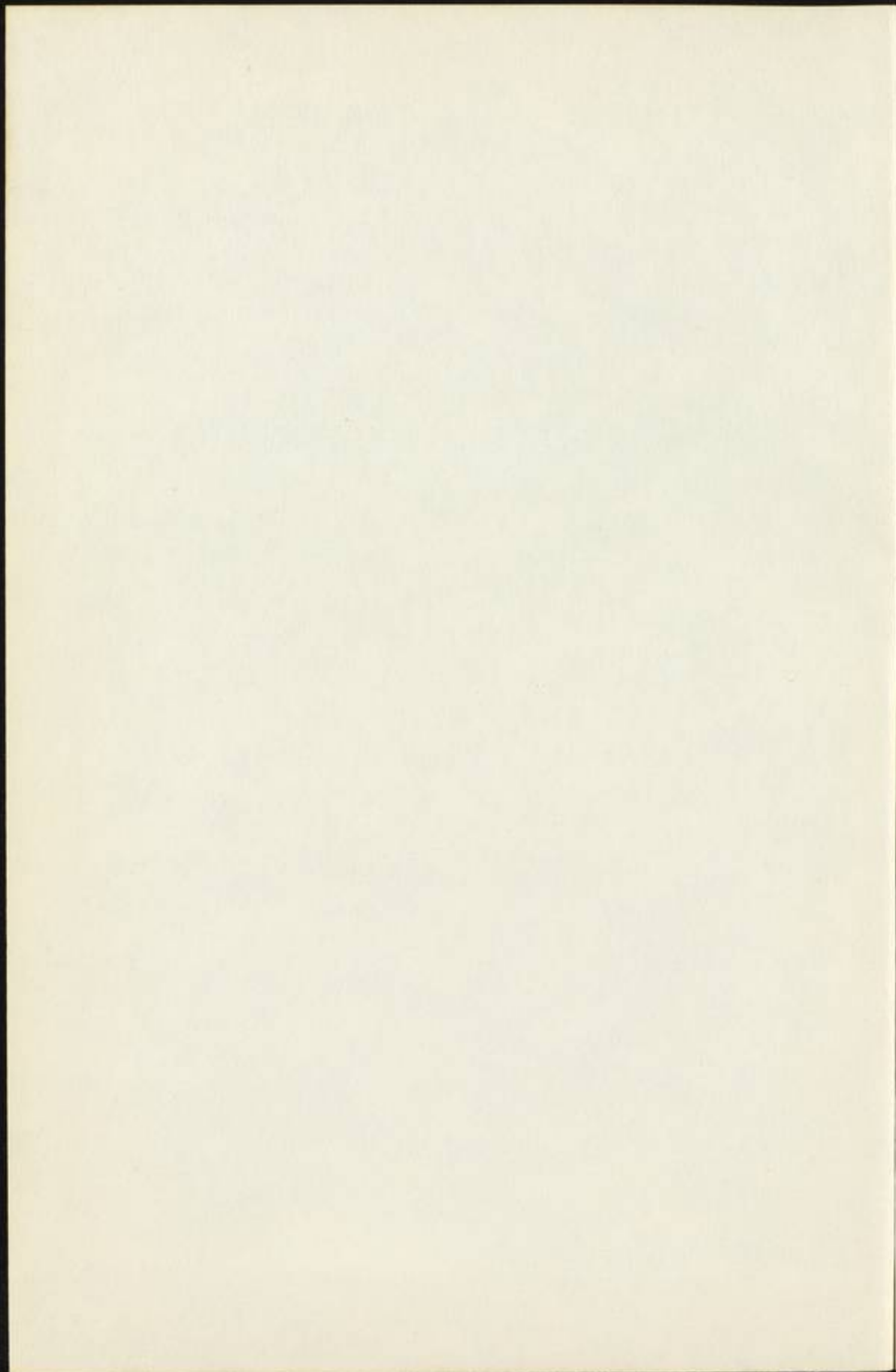


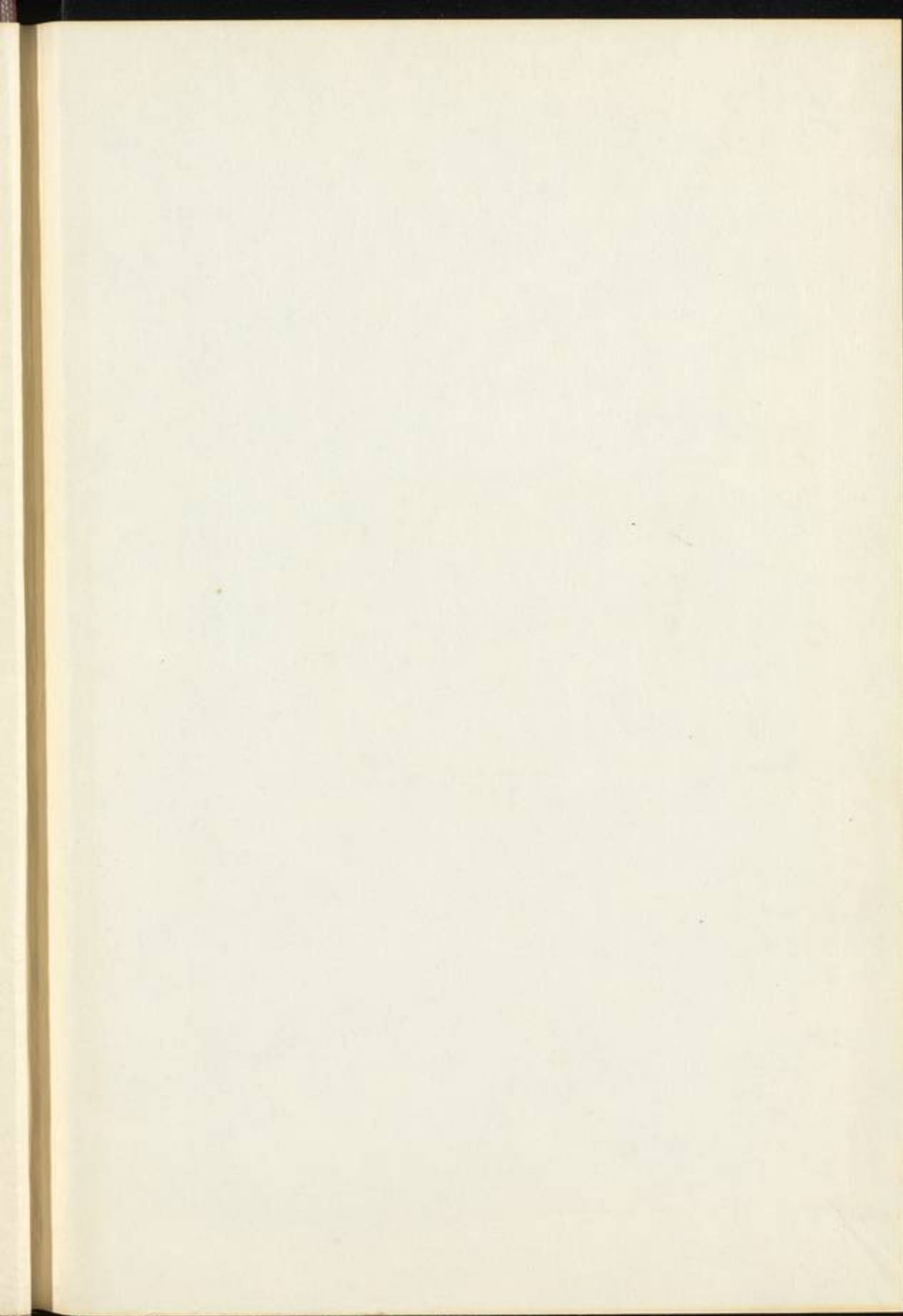














PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

THE ABU SHADI
MEMORIAL LIBRARY

PRESENTED BY

CHARLES A. DANA, JR. '37
H. H. PRINCE SADRUDDIN AGA KHAN
COUNCIL ON ISLAMIC AFFAIRS



